مجلة البحوث التاريخية

دورية دولية سداسية محكّمة تصدر عن قسم التاريخ

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة محمد بوضياف المسيلة

المدير الشرفي للمجلة أ. د. أحمد بوطرفاية مدير جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

مدير المجلة: د. محمد يعيش عميد كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

رئيس التحرير د. مصطفى عبيد

د. أحمد مسعود سيد علي رئيس قسم التاريخ جامعة المسيلة	
أ. د. صالح لميش جامعة المسيلة	د. محمد السعيد قاصري جامعة المسيلة
أ. د. عبد الله مقلاتي جامعة امسيلة	د. سفيان لوصيف جامعة سطيف (02)
أ. د. عبد الكامل جوية جامعة المسيلة	د. بشير فايد جامعة سطيف (02)
أ. د. أحمد رواجعية جامعة المسيلة	د. كمال بيرم. جامعة المسيلة
أ. د. خير الدين شترة جامعة المسيلة	د. طاهر بونابي جامعة المسيلة
أ. د. خلفات مفتاح جامعة المسيلة	د. عيسى بن قبي. جامعة المسيلة
أ. د. عبد العزيز فيلالي جامعة قسنطينة (02)	د. عبد الحميد عمران. جامعة المسيلة
أ. د. عمارة علاوة. جامعة الأمير عبد القادر	د. رضوان شافو جامعة وادي سوف
أ. د. أحمد صاري جامعة الأمير عبد القادر	د. عبد الوهاب شلالي. جامعة تبسة
أ. د. مولود عويمر جامعة الجزائر (02)	د. الطاهر جبلي. جامعة تلمسان
أ. د. قدادرة الشايب جامعة قالمة	دة. سعاد يمينة شبوط جامعة تلمسان
أ. د. حفظ الله بوبكر جامعة تبسة	د. محمود بوكسيبة. جامعة المسيلة
أ. د. محمد السعيد عقيب جامعة وادي سوف	د. مرزوق بتة. جامعة المسيلة
د. أبو بكر الصديق حميدي جامعة المسيلة	د. محمد لمين بونيف. جامعة المسيلة

العدد 01: مارس 2017 ردمد ISSN:2543-389X الإيداع القانوني: مارس 2017

شروط النشر بالمجلة

1- ذكر اسم ولقب الباحث (ة) ورتبته العلمية ومؤسسة عمله ضروريا بجانب العنوان.

2- أن يكون البحث جديدا، لم يسبق نشره سواء في المجلات أو الملتقيات والندوات ...

3- ألاّ يكون البحث مستلة من أطروحة أكاديمية مهما كان مستواها: ماستر، ماجستير، دكتوراه.

4- أن يلتزم الباحث بشروط النشر الأكاديمي. كما أن الآراء الواردة في المقالات لا تعبر بالضرورة عن رأي وموقف المجلة، وإنما تعبر عن رأي صاحب المقال.

5- اللغات المعتمدة للنشر بالمجلة هي: العربية، الفرنسية، الإنجليزية، الألمانية، التركية.

6- أن يرفق الباحث ملخصا عن بحثه باللغة العربية إذا كان لغة البحث بغيرها، في حدود نصف صفحة على الأكثر.

7- ترسل المقالات إلى إيميل المجلة في نسخة وورد 2007. وعند الضرورة يمكن استخدام التقنيات الأخرى للجداول والرسوم البيانية...

8- تكتب المداخلات بخط (Traditional arabic) 16 بالعربية في المتن و 14 في الهامش، و(Times New Roman) 14 في المتن و 12 في الهامش وتباعد 01 سم. ويكون التهميش آلي بطريقة جديد لكل صفحة. أما حدود الصفحة فهي 02 سم من كل الجهات.

9- لا يقل عدد صفحات المقال عن الـ 10 صفحات ولا يزيد عن 25 صفحة.

10- تخضع كل المقالات المرسلة إلى المجلة من أجل النشر إلى التحكيم العلمي. ويبلغ صاحب المقال بنتيجة التحكيم حال وصول قرارات الخبراء.

11- المقالات التي تصل إلى المجلة لا ترد إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

12- ترسل المقالات على البريد الإلكتروني التالي: revuerh@gmail.com

للاستفسار يرجى الاتصال على رقم الهاتف التالي: رئيس التحرير: 00213773036145

مجلة البحوث التاريخية

Revue des Recherches Historiques

ردمد ISSN:2543-389X

الإيداع القانوني: مارس 2017

تقديم المجلة

مجلة البحوث التاريخية مولود علمي جديد، وهي أول مجلة تتأسّس بقسم التاريخ منذ نشأته سنة **2003** م، وهو أحد أكبر الأقسام، ليس بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية فحسب، بل بجامعة محمد بوضياف بالمسيلة. ونحن إذ نباركه، فإننا نطمح من خلاله إلى إضافة الجديد في الدراسات التاريخية سواء المحلية أو الوطنية أو الاقليمية والدولية. ونقدم هنا واجب الشكر إلى كل من ساهم في بناء هذه اللبنة العلمية، بدءا بمدير جامعة محمد بوضياف الأستاذ الدكتور أحمد بوطرفاية الذي ما فتئ منذ توليه منصبه هذا، يدعم كل أشكال البحث العلمي بما يعود على الطلبة والأساتذة بوفير العلم. كما نقدم شكرنا إلى السيد عميد كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية الدكتور محمد يعيش وإلى السيد رئيس قسم التاريخ الدكتور أحمد مسعود سيد علي الذين باركا فكرة انشاء المجلة في مهدها، ودعّما الجهود المبذولة والمساعي المحمودة من أجل اخراجها إلى النور. والشكر موصول إلى كل أسرة قسم التاريخ وإلى اللجنة العلمية للمجلة التي باركت ميلاد هذه المجلة وهي تعمل على انجاحها.

سيجد القارئ في هذا العدد الأولمساهمات علمية قيّمة لجملة من الباحثين جمعت بين التاريخ الحديث والمعاصر، وتاريخ الثورة الجزائرية، إضافة إلى مقالات في التاريخ الوسيط والقديم للجزائر. ونحن نسعى في الأعداد القادمة إلى توسيع المحاور، وتنويع الدراسات على مختلف بقاع الأرض والحقب الزمنية، مستفيدين من أقلام مختلف الباحثين في الدراسات التاريخية على تعدد مشاربهم وثقافاتهم وجنسياتهم ولغاتهم. إذ لا جنسية للعلم ولا قومية للبحث.

من هذا المنبر العلمي نهنئ زملاءنا بقسم التاريخ وأسرة جامعة محمد بوضياف بالمسيلة بهذا المولود العلمي الجديد، والأول بالقسم، سائلين الله تعالى أن يمدّ في عمره وأن يجعله منبرا خادما للعلم والوطن والإنسانية جمعاء.

رئيس التحرير

الدكتور مصطفى عبيد

جرائم التنظير والممارسة في الفعل الاستعماري الفرنسي بالجزائر
بروسبير أونفونتان وألكسي دو طوكفيل أنموذجا

د. مصطفى عبيد. قسم التاريخ، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة.

مقدمة:

ما نعت المؤرخون المحايدون على مختلف جنسياتهم ومدارسهم استعمارا أبشع من نعتهم للاستعمار الفرنسي بالجزائر، الذي فاق بطشه وتجاوزت جرائمه كل الأعراف والقوانين الدولية. والغريب في الاستعمار الفرنسي هو سبق الإصرار والترصد للفعل الإجرامي بالجزائر شعبا وأرضا وحضارة، ذلك أن جرائمه لم تكن عفوية بل مخطط لها من طرف كبراء منظريه. ونأخذ هنا مثالين اثنين وهما عالما الاجتماع الفرنسيين بروسبير أونفونتان (1796 - 1864) وألكسي دو طوكفيل (1805 - 1859). ونعمل على معالجة إشكالية تتمثل في ضبط وإبراز أهم آراء مفكري الاستعمار الفرنسي ومنظّريه الداعية إلى التمكين للفعل الاستعماري الفرنسي بالجزائر. وماهي الأفعال الاستعمارية الإجرامية المترتبة عنها في حق الجزائر أرضا وشعبا، تاريخا وحضارة؟

علاقة المفكّرين بموضوع الدراسة:

عمل كل من أونفونتان ودو طوكفيل في الإدارة الفرنسية بالجزائر، فكان الأول عضوا في اللجنة العلمية لاستكشاف الجزائر العلمي فيما بين 1839 و 1841، فيما كان الثاني عضوا بالبرلمان الفرنسي 1839 – 1849 ونائبا لرئيسه. وكان كلاهما مهتما بالتنظير للاستعمار الفرنسي بالجزائر. فكتب الأول كتابه استعمار الجزائر(Colonisation de l'Algérie)، فيما كتب الثاني كثيرا من المقالات والآراء حول التمكين للاستعمار الفرنسي بالجزائر، وعرضها على البرلمان الفرنسي وهو نائب لرئيسه كما ذكرنا.

وبالنظر إلى ما قام به كل من أونفونتان ودي طوكفيل، فإنه يحق لنا أن نضع على رأس الكوارث الاستعمارية الفرنسية بالجزائر كارثة جرائم التنظير التي أسست للفعل الإجرامي الذي نفذه السياسيون والعسكريون ومن سار في دأبهم.أي أن الأفعال الإجرامية كانت بدعوة وسبق إصرار وترصد من القائمين على التخطيط والتّنظير، ولم تكن فعلا معزولا أو أملته ظروف الحرب كما يعتقد البعض. فهذا أونفونتان يصرح علنا ويدعو بإصرار إلى ضرورة تطبيق أفكاره الواردة في كتابه، وهي كلها جرائم تنظيرية نفذتها الإدارة الاستعمارية. وقد حاولنا كشفها في هذا المقال.

أما دو طوكفيل، فقد جاءت أفكاره كلها أيضا جرائم في حق الجزائر، وسهر على تنفيذها من موقعه في البرلمان، فكان جيش إفريقيا (الجيش الفرنسي بالجزائر)، وقنوات السياسة والإعلام بيادقه لتنفيذ تلك الجرائم، وقد حاولنا كشفها وإبرازها هي الأخرى.

أهم الجرائم: ارتأينا أن نبرز هنا أهم وأبرز تلك الجرائم التي تمثلت في التالي:

1- جريمة الاحتفاظ بالجزائر فرنسية: (أو جريمة الدعوة إلى ضرورة الاحتفاظ بالجزائر فرنسية):

إن أول جريمة استعمارية وقع فيها منظرو الاستعمار بصفة عامة ونموذجا الدراسة هنا (أونفونتان ودو طوكفيل) بصفة خاصة هي جريمة الاصرار على ضرورة بقاء فرنسا في الجزائر في وقت لم يكن قادة جيش الاحتلال قد استقروا بعد على رأي موحد في الاحتفاظ بالجزائر من عدمه. فهذا دو طوكفيل كتب سنة 1841 :"لا أعتقد أنه بإمكان فرنسا التفكير جديا في مغادرة الجزائر. سيكون تركها الجزائر في أعين العالم إعلانا أكيدا عن انحدارها (وتدهورها)...إذا تراجعت إزاء مبادرة حيث لا تواجهها فيها سوى الصعوبات الطبيعية للبلد ومعارضة قبائل همجية صغيرة تسكنها، فستظهر في أعين العالم وقد انحنت أمام عجزها واستسلمت لقلة شجاعتها".[1]

أما أونفونتان فله رأيه الواضح أيضا في هذا، وهو رفضه لأي تراجع من طرف فرنسا عن احتلالها للجزائر، بل وأكثر من ذلك، فقد انتقد كل الأصوات الداعية للتخلي عنها. ودعا سنة 1843 إلى ضرورة الكف عن المناقشات حول موضوع الاحتفاظ بالجزائر من عدمه. ودعا إلى الاحتفاظ بها والشروع في تطبيق أولى أسس الاستعمار الفرنسي بها.[2] بل واعتبرها من أهم الممتلكات الفرنسية على الإطلاق، فكتب:"إن ممتلكاتنا في الجزائر ذات أهمية، فالسيطرة عليها هي بالنسبة لنا شرعية ولا يمكن التخلي عنها، بل ولا يمكن حتى السماح بفتح النقاش سواء بفرنسا أو هنا بالجزائر عن امكانية الاحتفاظ بمقاطعاتنا الإفريقية (يقصد ممتلكات فرنسا في شمال إفريقيا أي الجزائر كما كانت تسميها فرنسا آنذاك). والتي هي لنا على قدم المساواة مع الألزاس واللورين".[3]

وإذا كان أونفونتان قد ساوى بين مكانة الجزائر والألزاس واللورين وهي ذات الثروات الطبيعية الوفيرة وهي قلب فرنسا الطاقوي النابض آنذاك، فإن تقدير مكانة الجزائر عند دو طوكفيل ربما كان أكثر من ذلك بكثير، كيف وهو الذي قال:" الذين يقولون إننا نشتري المزايا التي يمكن أن توفرها لنا الجزائر بتضحيات كبيرة صادقون، لكنهم مخطئون عندما يقلّصون إلى لا شيء تقريبا هذه المزايا. الحقيقة هي أنه لو استطعنا الوصول إلى السيطرة بإحكام

1- ألكسي دو طوكفيل، نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال والاستيطان، ترجمة وتقديم إبراهيم صحراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، 2008، ص 33.

2- *Enfantin,* ***Colonisation de l'Algérie****, Bertrand libraire, Paris, 1843, p 03 – 09.*
وقد كتب أونفونتان ذلك بعد أن لاحظ اتساع دائرة النقاش على مستوى المؤسسات والصحف. فدعا إلى وقف النقاش والالتزام بمبدأ الاحتفاظ بالجزائر واعتبر التخلي عنها وصمة عار في جبين المسيحية أمام كل ما قام به الإخوة بربروس في البحر المتوسط. كما ربط الاحتفاظ بالجزائر بالتكاليف الباهضة التي كلفهم إياها غزو الجزائر. وذلك حتى يكون مبررا لنهب الخزينة والاستيلاء عليها.

3- *Ibid, p 07.*

على شاطئ إفريقيا هذا (كان الفرنسيون آنذاك يطلقون لفظ إفريقيا للدلالة على الجزائر) وامتلكناه بيسر، فإن تأثيرنا في الشؤون العامة للعالم سيكون أكثر قوة وانتشار".[1]

وبناء على ذلك استقر رأي الإدارة الفرنسية بصفة رسمية على قرار الالحاق الذي كانت قد اتخذته في 22 جويلية 1834 ولذا نجد دستور الجمهورية الفرنسية الثانية سنة 1848 يؤكد رسميا " أن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا".

2- جريمة انهاء نفوذ الأعيان والعمل على محاولة تدجينهم:

من أجل أن يستقر الوضع لفرنسا بالجزائر وتقضي فيها على كل مقاومة من شأنها أن تقوم سارعت الإدارة الفرنسية إلى تحطيم الأعيان والأسر الحاكمة بالجزائر والتي تتميز بالجاه والحظوة والمكانة والطاعة عند الشعب الجزائري وهي هنا من الأشراف والمرابطين (معنويا) والمالكة للأرض والثروة والحكم (ماديا). قال دو طوكفيل:" كان الأتراك قد أبعدوا الارستقراطية الدينية العربية عن استعمال السلاح وإدارة الشؤون العامة، وبسرعة رأيناها بعد القضاء عليها تعود كما كانت محارِبة وحاكمة. الأثر الأكثر سرعة والأكيد لغزونا هو إعادة التواجد السياسي للشيوخ وكانوا قد فقدوه. استعادوا سيف محمد لمحاربة الكفار ولم يتأخروا في استعماله لحكم مواطنيهم: هذا أمر كبير ينبغي أن يلفت نظر كل من ينشغل بالجزائر. لقد تركنا أرستقراطية العرب تولد من جديد، ولم يبق لنا إلا أن نستغلها".[2]

بل نشير إلى أكثر من ذلك، فقد وصل الأمر بطوكفيل إلى أن قال:" لن نكون آمنين اطلاقا، ولن يكون لنا أي مستقبل على الشاطئ إن لم نصل إلى فرض احترام سلطتنا في الداخل كيفما كان الحال، أو على الأقل منع العشائر المختلفة التي تسكنه من الاجتماع تحت سلطة قائد واحد".[3]

بفعل هذه الدعوة الطوكفيلية ودعوات المؤمنين بها غيرُه، قضت فرنسا على أسر كانت تحكم (وكان المنصب يعبر عن الجاه معنويا والحكم والثروة ماديا) واستبدلتها بأخرى صنيعة الأيدي الاستعمارية لا يتجاوز المنصب فيها كونه وظيفة. والأمثلة هنا كثيرة جدا، فمن الناحية الإثنية "حل أهل الزواوة وأهل ميزاب في المدن محل الكراغلة والحضر، والاجتماعية حيث زحف البرانية على المدن للتجارة والمعاملات المادية، والفكرية حيث أصبحت المدرسة الفرنسية هي التي تؤثر وتكّون تكوينا عصريا وتفرنس حياة السكان...فقد استعمل الفرنسيون الوسائل الميكيافيلية

1- دو طوكفيل، مصدر سابق، ص 34.

2- نفسه، ص 19، 20.

3- نفسه، ص 41، 42.

في تعاملهم مع المجتمع الجزائري. فجندوا أولا الأجواد وضربوا بهم المقاومة والأشراف، ثم جندوا المرابطين والمغمورين وضربوا بهم الأجواد".[1]

وبفعل ذلك، "فقد تدهورت حالة عائلات كانت قبل 1830 غنية برجوازية، ومن ذلك العائلات التالية: آل يحيى آغا، وآل الكبابطي، وآل الساجي، وآل الجيّار، وآل بن قشوط، وآل عمر القبي، وآل بن سيسني، وآل العمالي، وآل ابن العنابي، ويمكن أن نضيف إليهم آل خوجة وآل ابن مرابط، وآل مصطفى باشا،...".[2] ومن الأعيان كثير كذلك أولئك الذين تحطمت مكانتهم " فهذا حمودة الفكّون (بن شيخ الإسلام) بقسنطينة الذي كانت لعائلته أموال طائلة تضرب بها الأمثال كتب سنة 1852 إلى الحاكم العام راندون يلفت نظره إلى وضع عا ئلته السّيء، وهذا حسن بن الباي السابق لقسنطينة علي إنكليز يطلب أيضا من راندون أن يعيّن له معاشا يعيش به... . ونفس الطّلبات والشكاوى قدمها بعض كبار الأمس أمثال علي بن عيسى (قائد جيش أحمد باي) ومحمد مزوار الشرفاء في مدينة الجزائر ومرابطي وأشراف بجاية.... وزوجَتَيْ أحمد، باي قسنطينة تطلبان سنة 1851 الإنعام عليهما براتب من السلطات الفرنسية".[3]

3- جريمة تشكيل مجتمع أوربي دخيل بالجزائر كقاعدة للاستيطان والاحتلال:

دعا طوكفيل بوضوح تام وبإصرار أيضا رجال الإدارة الاستعمارية إلى ضرورة التعجيل بإقامة مجتمع أوربي بالجزائر يكون الدعامة الأساسية والكبرى لقيام الاحتلال ونجد ذلك في قوله:"ينبغي لنا أن نطرح على أنفسنا سؤالا أولا: هل يجب مباشرة الاستيطان قبل اكمال السيطرة وانتهاء الحرب؟ لن أتردد لحظة في الإجابة: نعم. لا أحد بإمكانه القول متى ستنتهي الحرب، انتظار انتهائها يعني التأجيل اللا محدود للأمر الأساسي. لقد قلت وأكرر أنه ما لم يكن لنا سكان أوربيون في الجزائر، فإننا سنبقى مخيمين على الساحل الإفريقي ولن نستقر هناك. إذن ينبغي أن نجعل الاستيطان والحرب يسيران معا إذا كان ذلك ممكنا".[4]

1- أبو القاسم سعد الله، "نهاية الأعيان أو نهاية الارستقراطية العربية"، بحث منشور بكتابه **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ج 05، ص ص 92 – 114.

2- أبو القاسم سعد الله. **الحركة الوطنية الجزائرية**، ج1 ق1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص 17، 18. لم يبق بمدينة الجزائر من العائلات التي يتجاوز دخلها الستة آلاف فرنك سنة 1891 إلا ستة أفراد. سعد الله، أبحاث، مرجع سابق، ص 92.

3- سعد الله. الحركة ، مرجع سابق، ص 390 – 391. رغم أن إحدى زوجتي أحمد باي هي أخت حمدان بن عثمان خوجة واسمها "خدوجة"، والأخرى وهي بنت محمد بن قانة شيخ العرب بالزيبان وهي "الدايخة"، فكلاهما من عائلتين ثريتين. المرجع نفسه. ص 391. وكذلك: مصطفى عبيد، **الفكر الاستعماري السانسيموني بمصر والجزائر 1833 – 1870**، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 151، 152.

4- دو طوكفيل، مصدر سابق، ص 61.

أما أونفونتان فقد دعا هو الآخر إلى تشجيع الهجرة الأوربية على أن: "تشمل الفلاحين والتجار والصناعيين ورجال العلم والفن من الرجال والنساء".[1]

4- جريمة دعم تحقيق التعايش بين المجتمعين الأوربي والجزائري:

عزم كل من أونفونتان ودو طوكفيل على تحقيق التعايش بين المجتمعين الأوربي المستحدث (المستوطِن) والجزائري الأصلي على أرضه بغية القضاء على روح المقاومة والثورية في أوساط الجزائريين. وعوامل تحقيق ذلك بالجمع بين رأيهما هي كالآتي:

1- مواصلة العسكريين لضرباتهم العسكرية ضد الأهالي. وبث الثكنات العسكرية بين القبائل للترهيب والتخويف.

2- ايفاد الفلاحين الأوربيين ومنحهم الأراضي الخصبة لفلحها والاستقرار بها.

3- ضرورة تعليم اللغة الفرنسية للأهالي وتعليم اللغة العربية للفرنسيين حتى يسهل تأثر الجزائريين بالأوربيين وتأثير الأوربيين على الجزائريين.

4- ضرورة انشاء البلديات، وكذلك الحالة المدنية على النمط الفرنسي. من أجل التحكم في تسجيل المواليد والوفيات وعقود الزواج، والقيام بأعمال الري والاتصالات والصرف الصحي...

5- التظاهر أمام الجزائريين أن الفرنسيين ليسوا خطرا لا على الدين الإسلامي ولا عن أعراضهم وممتلكاتهم.[2]

5- جريمة الإبادة في حق الشعب الجزائري:

دعا دو طوكفيل الإدارة الاستعمارية إلى ضرورة تطبيق الحرب الشاملة، وقد كان على عهد مقاومة الأمير عبد القادر كما هو معلوم. وفي هذا نجد رأيه بوضوح: "لن نقضي على عبد القادر إلا بجعل حياة القبائل المنضوية تحت لوائه لا تطاق فتنتفض عنه. وهذه حقيقة بديهية ينبغي التسليم بها أو ترك هذا الأمر. بالنسبة لي أعتقد أنه ينبغي

---

[1]-*Enfantin, Op. Cit, p 11.*

[2]- Ibid, 130 – 132.

وكذلك دو طوكفيل، مصدر سابق، ص 64 وما بعدها.

اللجوء إلى كل الوسائل التي بإمكانها تدمير القبائل (جمع قبيلة)، لا أستثني سوى تلك التي لا تقبلها الإنسانية أو قانون الأمم".[1]

وإضافة إلى هذا، يمكن أن نضيف إلى هذه الجرائم الممارسة في الفعل الاستعماري الفرنسي بالجزائر والمترتبة عن تنظير هؤلاء المفكرين جرائم أخرى في ميادين عديدة، كانت كلها إبادة مست الإنسان (الإبادة، التهجير، الاغتصاب، الاضطهاد، التمييز العنصري، الاسترقاق)، والأرض (المصادرة، انشاء الملكية الفردية داخل الملكية الجماعية ثم نقلها إلى المعمرين بطرق تسمى قانونية ظلما وتعسفا، حرق المحاصيل، الضرائب على المنتوج والمملوك...)، والثقافة (محاصرة الدين الإسلامي، التنصير، تقويض اللغة العربية، حرق المكتبات...)، والحضارة (التغريب، فصل الجزائر عن الحضارة الشرقية من خلال نشر الكتابات التاريخية المغرضة والمشوهة للتاريخ وللجغرافيا بالجزائر من أن الجزائر بنت لروما وأوربا...مع العمل على نشر ثقافة محاربة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب عموما والجزائر خصوصا وتسميته بتسميات مختلفة كالغزو العربي وغير ذلك من المصطلحات الاستعمارية). وكذا قوانين الحرب وحقوق الإنسان وهي كثيرة.

خاتمة:

واضح إذن أن الجرائم التي ارتكبها جيش الاحتلال (كفعل) في حق الشعب الجزائري من إبادة ومصادرة الأراضي (التي دعا إليها كلا من أونفونتان ودو طوكفيل أيضا) وحرق المحاصيل وبصفة عامة سياسة الأرض المحروقة التي اعتمدها بيجو آنذاك كانت كلها بتنظير من طرف هذين المنظرين وممن حذا حذوهم من أجل اخضاع الجزائر أرضا وشعبا.

1- نفسه، ص 48.

السياسة الإدارية الفرنسية في الجزائر 1830 . 1848

الدكتور حميدي أبو بكر الصديق جامعة محمد بوضياف. المسيلة. الجزائر

كانت السياسة الإدارية الفرنسية في بداية الاحتلال تركز على عملية الإخضاع والسيطرة على الأرض، وفي ظل المقاومة الشرسة شرقا وغربا فقد انتهجت سياسة خاصة من أجل تحقيق أهدافها وكانت تدور حول الإلحاق بفرنسا ، واستحداث أطر إدارية تتحكم من خلالها في حركة الأشخاص ومعرفة كل التحركات . وفي هذا المقام ركزت على النقاط التالية :

. مرحلة الإخضاع العسكري للجزائر: فترة دوبورمون .كلوزيل

2 . مرحلة التردد 1830 . 1834: سياسة اللجان

3 . إنشاء منصب الحاكم العام 22 جويلية 1834

5 . المكاتب العربية 1844

4 . تقسيم الجزائر إلى مقاطعات 1845

5 . دستور 1848 وإلحاق الجزائر

أما من حيث الحكام الذين توالوا على الجزائر من 1830 إلى 1848 والذين يمكن أن نوجزهم في الحكام التالية أسماءهم:

. دوبورمون

.كلوزيل أوت 1830 والذي حكم حوالي ثمانية أشهر (فترة حكمه الأولى.

- بيرتزين: حكم فيفري 1831 (10 أشهر).

- الدوق روفيقو :25ديسمبر 1831 .

- فورول: جويلية 1834.

- ديرلون : 1834 (سنة واحدة).

- كلوز يل (للمرة الثانية) 1835.

- دامريمون : حكم سنة 1873 .
- الماريشال فالييه 1837 – 1841
- بيجو 1841- 1847.

من خلال المتابعة لحكم فرنسا في الجزائر فإنه يقف على أن الفترة الأولى للحكم الفرنسي تميز بفرض الواقع العسكري واحتلال الجزائر وغياب الاستقرار على نظام حكم في الجزائر ، وأحيانا الارتباك في التوفيق بين السلطة العسكرية والمدنية وكثرة اللجان والحلول المقترحة من حين لآخر ، كما تم الاستعانة ببعض المساعدين الإداريين إلى جانب الحكام العسكريين وهذا الوضع مرده إلى الوضع الذي تعيشه فرنسا داخليا من جهة ،ومن جهة أخرى أن طبيعة الاحتلال والإخضاع كانت على يد العسكريين في حين أن الوضع في الجزائر يحتاج إلى تسيير إداري ومالي وقضائي وهو مادعى للاستعانة بمساعدين مدنيين ومن جهة أخرى أيضا كان الأمر بين أخذ ورد بين بسط السلطة لوزارة الحربية والداخلية ،إضافة إلى ضغط الجالية الأوروبية بالجزائر على السلطة الفرنسية في الجزائر لإطلاق يدها والسعي لإيجاد تمثيل لها داخل الجزائر وفرنسا.

وعموما أن السلطة الفرنسية وقعت في التردد والتناقض أحيانا حول شكل الحكم النظام الإداري الذي تسلكه بين العسكري والمدني والخضوع لفرنسا مباشرة أو ذات حكم خاص بها .

وعموما فإن فترة 1830 . 1848 هناك من يطلق عليها مرحلة التجربة وأنه لم تكن لفرنسا سياسة إدارية واضحة تنتهجها في الجزائر ، وأمام هذا التردد والتخوفات المحيطة بها والمقاومة الشرسة من الشعب الجزائري لوحظ أن سياسة لويس فيليب كانت تعتمد على إطلاق اليد للجيش في التصرف الإداري وتحقيق حلم المستعمرة الهادئة ، وبالتالي فإن الجزائر كان التعامل معها على أساس منطقة عسكرية ، أو ميدان حرب 1.

كما اتسمت هذه المرحلة باتخاذ ثلاث إجراءات كبرى هي : إحداث منصب الحاكم العام ، واعتماد سياسة القوة والأرض المحروقة ، ثم إلحاق الجزائر دستوريا بفرنسا.

فترة دوبورمون

وهذه الفترة تميزت بتحقيق عملية الاحتلال العسكري للساحل وقام بتشكيل لجنة لتسيير شؤون الجزائر، وبدو أنها فشلت في تحقيق هدفها وكانت شكلية وأنها فشلت في تحقيق هدفها وكانت شكلية أكثر منها ميدانية أمام سلطة القائد العسكري الذي لم يعمر طويلا وكان في حالة إرباك للتطورات الجديدة في فرنسا ، وحاول الفرنسيون في عهده المحافظة على الجزائر كمستعمرة أمام أطماع بريطانيا .وبقدوم لويس فيليب عزله نهائيا من هذا المنصب.

فترة كلوزيل:

[1] . أبو القاسم سعد الله ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، ط 02 ، ج 02 ، دار الغرب الإسلامي ، 1990 ، ص 91.

ابتداء من 16 أكتوبر 1830، وهو الآخر كانت أولويته بسط السيطرة العسكرية ولكنه استعان بلجنة حكومية جديدة لتسيير أمور إدارته ولها اختصاصات في مجال العدالة، الداخلية، والمالية لكن السلطة الحقيقية في القرار والتسيير كانت بيد القائد العسكري الذي أنشأ عدة أذرع عسكرية لتوطيد حكمه منها: الزواف، والصبايحية ، و رماة إفريقيا وهذا دليل على توجهه العسكري في التوسع ، وهناك من يرى أن حكومة فرنسا تجاهلت تصرفات الجيش في الجزائر حتى لا يعكر عليها الأمور في فرنسا.

مرحلة التردد 1830 ـ 1834:

وهي مرحلة كانت فيها فرنسا منشغلة بمشاكلها في الداخلية ومناوراتها في أوربا فكان الجيش الفرنسي له حرية واسعة في التعامل مع واقع الجزائر ونتيجة للاضطراب الحاصل في تسيير شؤون الجزائر، وهيمنة القادة العسكريين على الحكم، أُصدر مرسوم ملكي يفصل بين الشؤون المدنية والعسكرية 1(1) وإن كانت الكلمة الأخيرة فيه للحاكم العسكري، وفي هذه المرحلة استحدثت إدارة للجزائر على النحو التالي: 1 – المسؤول الإداري والمالي المدني (l'intente civil) : وهو مكلف بالقضايا المالية والموظفين وينسق بين الوزارات في فرنسا وقطاعه في الجزائر ويعين من قبل رئيس مجلس الوزراء.

2- رئيس وحدات الاحتلال في إفريقيا(le commandant en chef)وهو المسؤول عن العمليات العسكرية وحفظ الأمن ، والشرطة ،وهو صاحب الصلاحيات الواسعة .

3 . مجلس الإدارة

ويتكون من رئيس وحدات الاحتلال السابق ، وهو رئيس المجلس في نفس الوقت، ونائبه هو المسؤول الإداري والمالي إضافة إلى مسؤول البحرية والمسؤول العسكري للجيش، وممثل الجمارك ، ومسؤول أملاك الدولة.

إلا أن الهيمنة كانت واضحة وكبيرة للمسؤولين العسكريين وإقصاء الجانب المدني الذي بدأت بعض العناصر تطالب بدوره وعلى رأسها المعمرين وكثرة، الاحتجاجات على سلوك العسكريين لتحقيق مصالحهم ، والمطالبة بضرورة وضع حد لسلطتهم ، وهو مادفع بالحكومة الفرنسية بإرسال لجنة للتحقيق في الأمر في 07 جويلية 1833 سميت باللجنة الإفريقية لدراسة الأوضاع واقتراح الحلول اللازمة .وتوصل هذه اللجنة في 09 نوفمبر1833 إلى أن الحل يكمن في الاحتفاظ بالجزائر تحت إسم " الممتلكات الفرنسية في إفريقي"

لجنة ديكادوس :التي تشكلت في 12 ديسمبر 1833 (19 شخصية مدنية وعسكرية)وكان تقريرها المقدم في 10 مارس 1834 مكرسا لما آلت إليه اللجنة الأولى . واقترحت خلق منصب الحاكم العام للجزائر

[1] ـ مرسوم أول ديسمبر 1831

بصلاحيات واسعة ، وإنشاء مجالس بلدية في الجزائر ووهران وعنابة وإنشاء ميزانية خاصة بالجزائر ، وبهذا يتكرس الحكم العسكري .

وإن كانت هذه اللجنة التي صادقت بأغلبية 17 صوت مقابل 2 قد أوصت بفصل بين سلطة الإدارية المدنية والعسكرية والتنسيق بينهما.

إنشاء منصب الحاكم العام 22 جويلية 1834

وهذا وفق الأمر الرئاسي الذي يعين بموجبه الحاكم العام من طرف مجلس الوزراء باقتراح من وزير الحربية، ويتمتع بصلاحيات كبيرة ويتكفل بالأمن والجباية والعدالة والشؤون العسكرية.وخضوع الجزائر لوزارة الحرب مباشرة . ويعمل على تنفيذ برامجها ومخططاتها المساعدون الثلاث تحت إشراف الحاكم العام (المسؤول الإداري والمدني ، والنائب العام ، والمدير المالي)1.

كما تكونت هيئة مجلس الإدارة الذي يحدد السياسة الفرنسية في الجزائر ويدرس الميزانية والجباية والمالية والجمارك والعبادات والأمن تحت إشراف الحاكم العام الذي يعرض الخطة على وزارة الحربية، وبما أن المجلس يهيمن علية المعمرون الأوربيون فإنهم يوجهونه وفق مصالحهم الاستغلالية.

فقرار 1834 الذي اعتبر الجزائر أرضا فرنسية قسمها إلى ثلاث ولايات ودوائر ، وبلديات وفي نفس الوقت عين أول حاكم عام (دريت دير لون) .

وهذا التعيين في ذاته لحاكم عام مكان قائد عام هو نوع من إضفاء التبعية للسلطة والقوانين الفرنسية وصار النظام الإداري في الجزائر يسير نظريا بقوانين ملكية فرنسية على أساس أن الجزائر أرض فرنسية 2، وهي خطوة نحو الإدماج الذي تسعى فرنسا لفرضه .

المكاتب العربية :

لقد واجه الفرنسيون صعوبات كبيرة في التوسع وبسط السيطرة على الجزائر وامتناع أبناء الجزائر التعاون معهم ، ولذلك قرر روفيقو Rovigo إنشاء هيئة تكون جسرا بين السكان وفرنسا سميت بالديوان العربي مهمتها جمع المعلومات والاعتماد على المترجمين والمختصين في الشؤون العربية للاتصال بزعماء القبائل وتحقيق التهدئة معهم ، وكان أول من ترأس هذه الهيئة :لاموريسير Moriciere الذي كان يجيد اللغة العربية ، وفي 1837 تحول إسم هذه الهيئة إلى إدارة الشؤون العربية ولها نفس المهمة لسابقتها .واستطاعت أن تكشف من نشاطها في أوساط رؤساء القبائل والعملاء بدعوى مبدأ التعاون وتسهيل مهامهم مقابل احترام عاداتهم وتقاليدهم وتوفير الأمن وضمان مصالحهم .

---

[1] عمار بوحوش ، التاريخ السياسي للجزائر ، ط 3 ، دار البصائر ، الجزائر ، 2008 ، ص123.

2 ـ عميراوي حميدة ، السياسة الإدارية الفرنسية في الشرق الجزائري من خلال مشروع لويس بلا نكي ، المصادر ، ع 06 ، محرم 1423 ، مارس 2002 ، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 ، ص 83.

ونظرا للدور الذي قامت به هذه الإدارة قام بوجوPugeaud 1 بتنظيمها وإعطائها صفة رسمية تحت إسم المكاتب العربية التي أنشئت في 1844 وأصبحت من المؤسسات التي تلعب دورا في تسيير أمور البلاد ، وهذه المكاتب العربية تخضع للإدارة العامة للشؤون العربية في العاصمة ، ويشرف على هذه المكاتب شخصيات قادمة من مناصب عسكرية 2 واكتسبوا خبرة ولهم تنظيما محكما استطاعوا أن يقدموا من خلاله تحكما واضحا في شؤون الجزائر .

وقد كانت هذه المكاتب العربية وسيطا بين القيادة الفرنسية وزعماء الأهالي ، ولهذه المكاتب إدارة في كل مقاطعة ، وصنع الضباط والمترجمون الذين يديرونها تغلغلا واسعا بين السكان حتى صارت إدارات محلية للتحكم في السكان ، وقيل أن بيجو3 حاول وضع حد لنفوذهم 4 ، حيث صار الطاقم المكون لهذه المكاتب من جنود ، ومديرين ، ومخبرون وقضاة ومراقبون ومستشارون هم الحكومة الحقيقية في نظر السكان. وكان مفعول هذه المكاتب بشكل مركز على الأرياف ، واعتبر بوجو أن هذه السياسة غير مجدية في تحقيق الاحتلال الكلي ولذلك اعتمد سياسة الاحتلال الشاملة واستعمال الأرض المحروقة في الإخضاع (الرعب العام ،حرق المحاصيل ، حجز النساء والأطفال ، وخنق القبائل في الكهوف)5.وتهدف سياسة بوجو إلى تغليب الأسلوب العسكري وإعطاء فرصة أكثر للقادة العسكريين وفرض المشروع العسكري رسميا لتحقيق هدفه 6. وبالمقابل تراجع في عهده الطرف المدني في التسيير أو التعامل مع الجزائريين.

تقسيم الجزائر إلى مقاطعات

وطيلة هذه المرحلة وإلى غاية 1945 ظلت فرنسا تتردد في نمط الحكم الذي تقيمه في الجزائر وتتخبط بين فكرة اللجان والمساعدين وصلاحيات الحاكم العام .

لكن ابتداء من 1945 كان الأمر الرئاسي الذي ربط الجزائر بالسياسة الإدارية الفرنسية تحت إمرة وزارة الحربية وفق المرسوم الصادر في 18 أفريل 1845 7 وقسم الجزائر إلى 3 مقاطعات : الجزائر ووهران وقسنطينة ،وابتداء من نوفمبر من نفس السنة أصبح للمعمرين حق التمثيل في الجمعية العامة الفرنسية .وتخضع الجزائر لمراسيم

---

1 ـ حكم الجزائر مابين 1841 ـ 1847

2 . أندري بريتان ، وآخرون ، الجزائر بين الماضي والحاضر ، ترجمة اسطنبولي رابح ومنصف عاشور، م . و. ف .م 1984 ، ص 324 .

3 ـ أصبح حاكما عاما منذ 1840 .

4 ـ شارل روبير أجيرون ، تاريخ الجزائر المعاصرة ، ، ط 2 ، د .م. ج ، الجزائر ، 1983 ، ص 40.

5 ـ أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، ط 3 ، ج 2 ، 1983 ، ص 20.

6 ـ نفسه .

7 ـ عميراوي حميدة ، قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث ، دار الهدى ، 2005 ، ص 127.

الرئيس الفرنسي وتعمل وزارة الحربية على تنفيذ التعليمات الخاصة بالجزائر ، وشهدت هذه المرحلة نوع من تحديد الصلاحيات للحاكم العام وخاصة بعد التنظيم الجديد الذي تم تطبيقه على الجزائر والذي نصب ما يسمى مدير الشؤون الأهلية على الجزائر ويشرف على كل من : المدير الإداري ومدير الشؤون الداخلية والأشغال العمومية ، ووكيل الجمهورية ، ومدير الشؤون العربية ومدير المالية والتجارية .

دستور 1848 وإلحاق الجزائر بفرنسا

ومع مرور الزمن فإن نفوذ المعمرين تزايد من خلال السيطرة على توجيه السياسة الفرنسية بما يخدم مصالحهم وتعزز هذا سنة 1848 حين طالبوا بإدماج الجزائر في فرنسا وضرورة تمثيلهم في البرلمان الفرنسي وقد استجاب لهم الدستور الجديد الصادر وفق التغيرات الجديدة بعد الثورة التي حصلت في فرنسا سنة 1848 ونص الدستور على اعتبار الجزائر أرضا فرنسية ، وبالتالي تسري عليها التنظيمات والقوانين السارية في فرنسا [1]

ولا ننسى أنه من السياسة الفرنسية على المستوى المحلي أن أشركت بعض الجزائريين من أجل إخضاع هذه المستعمرة وذلك بتعيينهم كأعيان ومشايخ على المناطق التي لهم نفوذ فيها أمثال حمودة بن الفقون ، وابن الحملاوي وإبن قانة ، وخليفة بن عيسى [2]... وهذا الأسلوب نوع من التنظيم الإداري المحلي الذي من خلاله تراقب تحركات الجزائريين وتحصل الضرائب وإن كان هؤلاء لا يملكون قرارا أو سلطة بقدر ماهم ينفذون السياسة الإدارية الفرنسية.

[1] ـ عمار بوحوش، مرجع سابق، ص 126.

[2] ـ عميراوي حميدة ، مرجع سابق ، ص 128 .

المشاركة الجزائرية في مؤتمر باندونغ 1955
حيثياتها وإنعكاساتها على مسار تدويل المسألة الجزائرية

د / عمر بوضربة قسم التاريخ جامعة محمد بوضياف –المسيلة

يُعزي كثير ممن أرّخوا لأحداث الثورة الجزائرية 1962/1954 أسباب قوة جبهة التحرير الوطني إلى عاملين رئيسيين: أولهما تجذرها الشعبي في الداخل وثانيهما اعتمادها على سياسة الانفتاح على الصعيد الدولي، وهو ما أكسبها في نظر هؤلاء إشعاعها الاستثنائي باعتبارها حركة تحريرية، تشكّل تنظيمها الخارجي من قياديي اللحظة الأولى لميلاد الثورة والذي وجد مأواه في مكاتب المغرب العربي في شارع ثروت في القاهرة، وتّمس طوال سنوات – قبل 1954 وما بعدها– لكي يكون جهازا دبلوماسيا حقيقيا، يعمل للحصول على الأسلحة وإدخالها لأرض الوطن، ويقوم بمهام الإعلام والاتصال بالدول ويقوم بجولات في العواصم المختلفة ويشارك في المؤتمرات الدولية، ويرسل وفدا كل سنة للمشاركة في دورات الجمعية العامة للأمم المتحدة وهذا ابتداء من الدورة الحادية عشر 1956.

ومعروف أن فاتحة المشاركة في المؤتمرات الدولية بالنسبة للجبهة كانت من "باندونغ" في أفريل 1955، والتي أثمرت تعهد بلدان المجموعة الأفروآسيوية بالسعي لتسجيل المسألة الجزائرية ضمن جدول أشغال الجمعية العامة للأمم المتحدة، لكن هل تعتبر جبهة التحرير الوطني الطرف الجزائري الوحيد الذي حضر المؤتمر وبلغ مطالب الشعب ؟ وماهي الانعكاسات الإيجابية للمشاركة الجزائرية في باندونغ على مسار التدويل؟

مشاركة جبهة التحرير الوطني ضمن وفد مغاربي :

ذكر محمد يزيد أحد مهندسي مشاركة جبهة التحرير الوطني في أول مؤتمر على الصعيد الدولي، بأنّ " جبهة التحرير تمكّنت بواسطة ندوة باندونغ،الممثّلة بوفد متكون من آيت أحمد ومحمد يزيد من الدخول بقوة وعظمة في الساحة الدولية وهذا بفضل مساندة مصر الناصرية خاصّة والمجهود الخاص الذي قام به الرئيس جمال عبد الناصر في هذا المجال لتدعيم الثورة الجزائرية على الصعيد الدولي..".[1]

[1] – ينظر إلى: أحمد بن فليس: السياسة الدولية للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، رسالة ماجستير، فرع العلوم السياسية، تحت إشراف د.سليمان الشيخ، جامعة الجزائر، 1985 ، ص 150.

لكن قبل الوصول إلى مؤتمر باندونغ قام الوفد الخارجي لجبهة التحرير1 الوطني بنشاط مكثّف في بلدان جنوب شرقي آسيا، بحيث أوفد مبعوثان إلى تلك المنطقة ركزا نشاطهما على كسب دعم قوى مجموعة كولمبو التي تتشكّل من كل من: برمانيا، سيلان، الهند، أندونيسا وباكستان، وحاول وفد ج.ت. و المكّون من حسين آيت أحمد ومحمد يزيد إقناع رؤساء حكومات هذه البلدان المجتمعين في مدينة بوقور Bogor الاندونيسية في 29 ديسمبر 1954 بالإشارة إلى القضية الجزائرية في البيان الختامي للاجتماع، لكن هذه المساعي باءت بالفشل فقد تحجّج مسئولو الدول الخمس "بأن تتخذ الدول العربية أولا موقفا واضحا تجاه القضية"، لكن بصيصا من الأمل لاح في الأفق بهذه المناسبة حيث قرّر رؤساء حكومات مجموعة كولمبو عقد مؤتمر أفروآسيوي في باندونغ في أفريل1955.

وفي الحين شرعت بعثة جبهة التحرير في التحضير لحضور مؤتمر باندونغ، الذي ستحضره بلدان مستقلة من آسيا وإفريقيا ؛وكان التحضير في اتجاهين:

– تشكيل بعثة شمال إفريقية موّحدة تشارك بصفة عضو ملاحظ.

– القيام بجولة دعائية في أندونيسيا وبرمانيا والهند وباكستان وسيلان ما بين شهري جانفي وأفريل21955، باعتبار أنّ هذه الدول الخمس هي التي تحّملت مسئولية التحضير لأشغال مؤتمر باندونغ3، بهدف التعريف بأبعاد القضية الجزائرية والمغاربية وتقديم وجهة نظر جبهة التحرير بخصوص الحل الذي تراه مناسبا للصراع الجزائري الفرنسي.وذكر فرحات عبّاس أنّ حسين آيت أحمد لعب دورا هاما في تبديد مخاوف كل من الرئيس الهندي نهرو ورئيس الوزراء الصيني شوان لاي والرئيس جمال عبد الناصر، الركائز الثلاث التي ستمكّن جبهة التحرير الوطني من إحراز نصر دبلوماسي كبير على طريق تدويل القضية الجزائرية.4

---

[1] – تشكل الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني في البداية من: محمد خيضر مسؤولا للوفد، أحمد بن بلة مسؤولا عن اللوجيستيك والتسليح، حسين آيت أحمد مكلفا بملف التدويل، وللاستزادة حول وفد جبهة التحرير بالقاهرة يرجى العودة إلى: عمر بوضربة، تطور العمل الدبلوماسي للثورة الجزائرية 1954-1960 ،دار الإرشاد للنشر والتوزيع، الجزائر،2013 و أيضا: محمد خيشان، مهام لوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني بالقاهرة 1947-1957، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف د.شاوش حبّاسي، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر،2001-2002.

[2] – Ed JEUNE ،*Mohammed Harbi:* Les Archives de la révolution Algérienne *pp:173-174.* Paris 1975. AFRIQUE,

[3] – مختار مزراق: حركة عدم الانحياز في العلاقات الدولية (1961-1983)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988، ص 68.

[4] – *Abbas: Ferhat ،Autopsie d'une guerre ،L'aurore ، Éditions Garnier Frères ، Paris, p177. 1981,*

والواقع أنّ الحركات الوطنية الاستقلالية المغاربية شكّلت بعثة موّحدة "بعثة شمال إفريقية" قادها الزعيم الدستوري التونسي صالح بن يوسف1 وعلال الفاسي المغربي وحسين آيت أحمد عن الجزائر، وقد حضروا جلسة اللجنة السياسية المخصصة لقضايا بلدانهم والتي عقدت يوم 21 أفريل21955، وطالب ممثلو الأحزاب المغاربية الثلاثة من خلال مذكّرة موّحدة –مرفقة بملحق عن الجزائر– طالبوا من الدول المشاركة في المؤتمر بأن يدعموا حق الشعب الجزائري والشعبين التونسي والمراكشي في تقرير المصير، كما طالبوا بطرح المسألة الجزائرية في الأمم المتحدة إلى جانب القضيتين المغاربيتين–التونسية والمغربية–بقصد تسجيلها ثم مناقشتها في الجمعية العامة.3

مشاركة الحركة الوطنية الجزائرية"رسالة مصالي الحاج إلى المؤتمرين":

وذكرت بعض المصادر والمراجع بأنّ الوثيقة الجزائرية الخالصة والوحيدة التي قُرئت في المؤتمر هي رسالة أحمد مصالي الحاج حول القضية الجزائرية، والتي تكّفل الشاذلي المكي بنقلها إلى جواهر لال نهرو رئيس أشغال المؤتمر، فقد استغل مصالي العلاقة التاريخية التي ربطته بنهرو منذ 1927 تاريخ أول لقاء بين الشخصيتين في مؤتمر بروكسل، ليطلب منه تأييد القضية الجزائرية في المؤتمر الأفروآسيوي بباندونغ4 وهذا في رسالة وّجهها إليه من إقامته الجبرية بفرنسا (سابل دولون Sable d'olonne)5 ، ثم أبلغه بواسطة صديقه الفرنسي جان روس (Jean Rous) مواقفه، لذلك فإنّ نهرو امتنع عن لقاء كل من حسين آيت أحمد ومحمد يزيد كما رفض منحهما الكلمة في المؤتمر، وفي المقابل سمح بقراءة رسالة مصالي خلال الأشغال والتي تكّفل الشاذلي المكي بنقلها إلى نهرو.

وقد تضّمنت رسالة مصالي6 إلى مؤتمر باندونغ رسما تفصيليا لوضع الجزائر في ظّل السيطرة الاستعمارية الفرنسية، من مصادرة للأملاك وحرمان الجزائريين من الحريات الديمقراطية للدفاع عن حقوقهم ووضع اقتصادي كارثي،والمتمثّل في ارتفاع نسب البطالة الدائمة وانتشار الفقر وسوء التغذية ووضع اجتماعي جد متردي يتميز بانخفاض معدل الدخل الفردي إلى مستويات دنيا ، وبالتالي تراجع المستوى المعيشي بشكل خطير أّدى بالشباب الجزائري إلى الهروب باتجاه المنفى الاختياري بحثا عن لقمة العيش لهم ولأسرهم.

---

[1] – *Mohammed Harbi: Les archives de la révolution Algérienne، Op.cit., p174.*

[2] – أحمد رضوان شرف الدين: جامعة الدول العربية وقضايا تحرير المغرب العربي 1954–1962، رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، معهد الدراسات التاريخية، دائرة الدراسات التاريخية والآثار، جامعة الجزائر، 1983، ص 203.

[3] – *Mohammed Harbi: Les archives ,op cit, p173.*

[4] – *Jacques Simon:* Messali Hadj-par les textes، EDITIONS BOUCHENE, Alger, 2000.
, pp:115-116.

[5] –الرسالة غير مؤّرخة لكن يبدو من خلال مضمونها بأنّها كتبت قبيل ندوة باندونغ بفترة وجيزة، يُنظر في: *Jacques Simon: Ibid, pp: 124-125.*

[6] – عد إلى نص رسالة أحمد مصالي الحاج في : *Ibid,pp:129-130.*

ثم قارن مصالي بين وضع الجزائريين السياسي، الاقتصادي، الاجتماعي والتعليمي بوضع الأقلية الأوربية المتمتِّعة بكلّ الحقوق والمهيمنة إداريا وذات النفوذ الكبير على الشرطة التي تستغلها لصالحها الخاص، بالإضافة إلى هيمنتها الاقتصادية والسياسية، ليخلص إلى طلب " دعم المشكل الجزائري من طرف ندوة باندونغ أمام جميع الهيئات الدولية"، بالإضافة إلى "إدانة الحرب الاستعمارية في الجزائر لوضع حدّ لها وذلك بمباشرة حوار مع الممثلين الحقيقيين للشعب الجزائري من أجل مجلس تأسيسي جزائري منتخب بالاقتراع العام، بدون تمييز عرقي أو ديني، من أجل إعطاء الكلمة للشعب وفق ما نصّ عليه ميثاق هيئة الأمم المتحدة ومبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها"، وقد ختم مصالي الحاج رسالته إلى ندوة باندونغ بتوجيه "تحية أخوية باسم الشعب الجزائري وأمانيه بأن يتمكّن الشعب المستعمر من العيش في حرية واستقلال".1

وقد تمكّن الشاذلي المكي من دخول قاعة المؤتمر ضمن الوفد السوداني الذي كان يرأسه رئيس الوزراء إسماعيل الأزهري الصديق القديم للمكي، رغم تأكيد محمد يزيد بأنّ المكي لم يدخل قاعة المؤتمر برغم تمكّنه من دخول الأراضي الاندونيسية2، فكيف إذن وصلت رسالة مصالي إلى المؤتمر وكيف استطاع المكّي أن يوزّع مذكرته على المؤتمرين؟.3

ووفق هذه المعطيات فإنّه يُمكن القول أنّ مصالي الحاج والحركة الوطنية الجزائرية (M.N.A) لعبا دورا وساهما في تدويل القضية الجزائرية، إذا اعتبرنا أنّ التوصية المتعلّقة بدعم حق الشعب الجزائري في تقرير المصير والاستقلال، ودعم حركات التحرر الصادرة عن ندوة باندونغ4 هي استجابة لدعوة طلب مصالي من دول الكتلة الأفروآسيوية التي تضّمنتها رسالته المؤرخة في 19 مارس 1955، وأنّ ج.ت.و استفادت من ذلك لاحقا بينما لم تستفد منه الحركة الوطنية الجزائرية بزعامة مصالي.

أثر توصيات مؤتمر باندونغ في تطور تدويل المسألة الجزائرية:

تعتبر مجموعة الدول الإفريقية والآسيوية أول بوابة فتحت في طريق تدويل القضية الجزائرية بعد الوطن العربي، من خلال السماح لممثلين عن جبهة التحرير —حسين آيت أحمد ومحمد يزيد–المشاركة في مؤتمرها التأسيسي

---

[1] - Jacques Simon, Ibidem, p130.

[2] – محمد الأمين بلغيث: الجزائر في باندونغ–مذكرة الشاذلي المكّي إلى المؤتمر–الطبعة الأولى ،دار كتاب الغد للنشر و التوزيع ،جيجل، الجزائر، 2007.ص 8.

[3] – حول نص مذكرة الشاذلي المكي إلى مؤتمر باندونغ ينظر: محمد الأمين بلغيث: نفسه، ص ص: 30–82.

[4] – يرى الباحث مختار مزراق بأنّ البيان الختامي لمؤتمر باندونغ لم ينص على بند خاص بدعم وتأييد حركات التحرر الوطني والقومي واكتفى بالإشارة الضمنية، بعكس حركة عدم الانحياز التي أولت أهمية كبيرة للموضوع بإدراجها ُندا خاصا بمساعدة حركات التحرر الوطني، للمزيد ينظر: مختار مزراق: المرجع السابق، ص ص: 217 - 218.

للكتلة الأفروآسيوية بباندونغ في أفريل 1955، وهو ما سيفتح آفاقا رحبة أمام تسوية القضية الجزائرية من خلال إخراجها من ثنائية الصراع الفرنسي الجزائري1 .

ومرد هذا التضامن معاناة معظم دول المجموعة من السيطرة الاستعمارية الغربية، إضافة إلى دور مصر في جلب دعم هذه المجموعة لكفاح جبهة التحرير الوطني بعد تعريفها بها، ويضاف إلى هاذين العاملين عامل ثالث والمتمثّل في الرابطة الدينية التي تجمع الشعب الجزائري المسلم بشعوب آسيوية وإفريقية عديدة تعد قوى لا يستهان بها في مناطقها،مثل أندونسيا في آسيا وغانا في إفريقيا.

لقد ورد في تقرير السياسة العامة الذي قدمه السيد عباس فرحات يوم 1959/06/20 ما يؤكد الدور الفعال لدول هذه المجموعة في دعم نضال الشعب الجزائري: "يجب بأن نظهر بأن هناك شعوبا أخرى تساندنا وتقف إلى جانبنا كالشعب التونسي والمغربي، العرب والآفروآسيويين...".2

وبالنسبة لنتائج المؤتمر في الجانب السياسي فقد تضّمن البيان الختامي للمؤتمر: "المطالبة بتأييد حقوق الإنسان ومبدأ تقرير المصير للشعوب والأمم، وتأييد قضايا الحرية والاستقلال لجميع الشعوب المناضلة، وتأييد حقوق شعب الجزائر وتونس ومراكش في تقرير المصير والاستقلال، وتأييد حق شعب فلسطين، واستنكار التفرقة والتمييز العنصري...".

وحتّىوإن كانت توصيات مؤتمر باندونغ شاملة لقضايا عديدة تهم الدول الإفريقية والآسيوية طرحت أثناء أشغال جلساته، خاصّة فيما تعلّق بمسألة دعم حركات التحّرر وتصفية الاستعمار، إلا أنّ المؤتمر زكّى مشروعية النضال الوطني الجزائري بإقراره حق الشعب الجزائري في تقرير المصير والاستقلال3، وأعطى فرصة ثمينة لجبهة التحرير الوطني للولوج إلى الواجهة الأفروآسيوية ونيل دعم هذه المجموعة من الدول حديثة الاستقلال، وشكّلت توصيات المؤتمر مرجعيّة لعدد كبير من الدول التي نالت استقلالها فيما يتعلّق بسياستها الخارجية الداعمة لحركات التحّرر وفي طليعتها الثورة الجزائرية4، خاصة إذا علمنا بأنّ تسعا و عشرين(29) دولة دعيت لحضور المؤتمر.5

---

[1] – محمد يزيد: مقابلة شخصية، في بيته بحي المرادية،الجزائر 1998/12/24.

[2] – Centre des Archives nationales, Alger, Fond GPRA, MF G004,"Rapport de Politique Générale "Ferhat Abbas, Tunis 20/06/1959.

[3] – مختار مزراق: نفسه، ص 78.

[4] – صالح لميش: مصر وثورة التحرير الجزائرية 1954_1962، بحث مقدّم لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، تحت اشراف: د/خليل عبد الحميد عبد العال ود/فاروق عثمان أباظة، جامعة الإسكندرية، كلية الآداب، قسم التاريخ والآثار، جمهورية مصر العربية، 1988، ص ص: 134-135.

[5] –بينما دُعيت أربع دول لحضور المؤتمر كأعضاء ملاحظين، ينظر: مختار مزراق: المرجع السابق، ص 67.

وكانت من أهم نتائج توصيات مؤتمر باندونغ قيام أربع عشرة دولة من إفريقيا وآسيا [1] بتقديم طلب إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة لبحث القضية الجزائرية في دورتها العاشرة، وذلك بتسجيلها ضمن جدول أعمالها على أساس مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها[2]، وهو ما اعترض عليه الوفد الفرنسي بشدّة مستندا على الفقرة الثانية من المادة السابعة لميثاق الأمم المتحدة والتي تنصّ على "أنّه لا يخول أي حكم من أحكام هذا الميثاق للأمم المتحدة التدخل في الشؤون التي تدخل في الاختصاص الوطني للدولة"، والتحجج الفرنسي مبني على أساس أن الجزائر فرنسية وبالتّالي فالقضية شأن داخلي محض.

ورغم الاعتراض الفرنسي قرّرت الجمعية العامة للأمم المتحدة تقديم طلب المجموعة الأفروآسيوية للتصويت في جلسة لها يوم 30 سبتمبر 1955، وكانت نتيجة التصويت مفاجأة مدوية حيث صوت 28 مندوبا لصالح الطلب مقابل[27] صوتا ضده في حين امتنع 5 أعضاء عن التصويت، لتتم عملية تسجيل القضية الجزائرية في جدول الأعمال، وهو ما أثار سخط الوفد الفرنسي معلنا انسحابه من أشغال الجمعية العامة بدعوى تدخلها في الشؤون الداخلية لبلده.[3]

لكن المجموعة الأفروآسيوية تراجعت عن طلب التسجيل بواسطة تقديم اقتراح من طرف مندوب الهند والذي يقضي بتعليق مناقشة القضية الجزائرية لحسابات تكتيكية، تتعلّق أساسا بتفادي دفع الطرف الفرنسي لاستعمال حق الفيتو على انضمام الأردن وليبيا إلى الهيئة الأممية، لتعاود المجموعة تقديم طلب تسجيل القضية الجزائرية مجددا في الدورة الموالية أي الحادية عشرة، في ظروف شهدت تطورات كانت في صالح المسألة الجزائرية خاصة بعد كسب أصوات إضافية جديدة.[4]

كما قرّر مؤتمر باندونغ إنشاء منظمة عالمية للتضامن بين شعوب آسيا وإفريقيا (Organisation de solidarité des pays d'Asie et d'Afrique)، المنظمة التي تمّ تأسيسها في 27 ديسمبر 1957 بمناسبة انعقاد مؤتمر القاهرة للتضامن الأفروآسيوي، هذا الصرح أكّد على دعم نضال الشعوب المستعمرة في القارتين

---

[1] – الدول الأربع عشرة هي: أفغانستان، بورما، مصر، الهند، أندونيسيا، إيران، العراق، لبنان، ليبيريا، باكستان، المملكة العربية السعودية، سوريا، تايلندا، اليمن (قُرّبة حسب الحروف الأبجدية اللاتينية)،أنظر: محمد علوان: القضية الجزائرية أمام الأمم المتحدة (1957-1958)، ترجمة: علي تابليت، سمير حشاني، عبد العزيز بوكنة، منشورات م.و.د.ب.ح.و.ث .1954/11/01، وزارة المجاهدين، الكرامة للطباعة والنشر، الجزائر،2007،،ص:38.

[2] – عامر رخيلة: "**الحركة الوطنية والتأسيس للديبلوماسية الجزائرية**"، الدبلوماسية الجزائرية من 1830 إلى 1962"–دراسات وبحوث حول تطور الدبلوماسية الجزائرية– طبعة ثانية منقّحة ومزيدة، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007.، ص ص: 102-103. بينما ذكر محمد العربي الزبيري 13 دولة قدّمت الطلب، ينظر: محمد العربي الزبيري: تاريخ الجزائر المعاصر، ج2، ص117.

[3] – عامر رخيلة: نفسه ، ص103.

[4] – عامر رخيلة:المرجع نفسه، ص ص: 103-104.

تطبيقا لمبادئ مؤتمر باندونغ بالإضافة إلىتبنّيه للحياد الإيجابي أو عدم الانحياز وقد أفادت القضية الجزائرية كثيرا من دعم دول هذه المجموعة التي أكّدت في مؤتمراتها مساندة حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره، وبعد قيام الثورة الكوبية وانتصارها سنة 1959 وقيام حركات ثورية في أمريكا اللاتينية، جرى توسيع نطاق المنظمة ليشمل بلدان أمريكا اللاتينية، فصارت المنظمة تحمل اسم منظمة شعوب آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية1، وبالتالي فإنّ دعم القضية الجزائرية امتد إلى دول أمريكا الجنوبية خاصّة كوبا، وهو ما سيكسب الثورة الجزائرية أصواتا إضافية خسرتها فرنسا في الجمعية العامة للأمم المتحدةوسيُحسّن من وضع القضية الجزائرية في المؤسسة الأممية.

رد الفعل الفرنسي :

على إثر الطلب الذي تقدّمت به أربع عشرة دولة إفريقية وآسيوية من دول مؤتمر باندونغ في 26 جويلية 1955 إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة من أجل تسجيل القضية الجزائرية ضمن جدول أعمالها في دورتها العاشرة على أساس حق الشعوب في تقرير مصيرها، احتج المندوب الدائم لفرنسا بالأمم المتحدة معتبرا المسألة متعلّقة بالشأن الداخلي الفرنسي ولا يحق للأمم المتحدة التدخل في الشؤون الداخلية لفرنسا2، فقرّر المندوب الفرنسي مقاطعة الجلسات بخصوص أحقية تسجيل القضية الجزائرية من عدمه والتي دامت ثلاث جلسات، كما عمدت فرنسا بالتنسيق مع حلفائها من دول أمريكا اللاتينية بالخصوص إلى تقديم مشروع قرار لذات الموضوع ومضاد لمشروع القرار الذي تقدمت به المجموعة الأفروآسيوية، وهو الأمر الذي يمكن إدراجه ضمن الحرب المضادة في الأمم المتحدة كرد فعل على التقدم الذي أحرزته ج.ت.و في الهيئة الدولية.

ورغم المساندة الكبيرة التي تلقّتها فرنسا في الجمعية العامة إلا أنّ جبهة التحرير حقّقت أوّل نصر دبلوماسي في هذه الهيئة الدولية الكبرى، حيث تحصّلت في تصويت 30 سبتمبر 1955 على أغلبية بسيطة 28صوتا مقابل 27 صوتا، لصالح مشروع القرار الذي تقدّمت به الدول الأفروآسيوية، في حين رفضت الجمعية العامّة القرار الذي تقدّمت به كتلة الدول اللاتينية، وفي ذات اليوم قرّرت الجمعية العامة إدراج القضية الجزائرية في جدول أعمالها، فقام مندوب فرنسا بتهديد الجمعية العامة بقوله: "..فحكومتي ترفض قبول أي تدخل للأمم المتحدة..ويعتبر باطلا ولاغيا لما قد توصي به الجمعية العامة في هذه القضية"، وفي اليوم الموالي أي 1 أكتوبر 1955 قرّر الوفد الفرنسي

---

[1] – عقدت منظّمة التضامن بين شعوب آسيا وإفريقيا عدّة مؤتمرات أولها المؤتمر التأسيسي في القاهرة ما بين 1957/12/26 إلى 1958/01/01، والمؤتمر الثاني في كوناكري الغينية سنة 1960، واحتضنت تنزانيا المؤتمر الثالث سنة 1963، والرابع في غانا سنة 1965 والخامس في القاهرة سنة 1972. للمزيد عد إلى: خليل أحمد خليل: معجم المصطلحات السياسية والدبلوماسية–عربي–فرنسي–إنجليزي–سلسلة المعاجم العلمية(10)، ط1، دارالفكر اللبناني، بيروت، لبنان،1999.، ص ص: 179–180.

[2] – *C.A.N: G.P.R.A, M.A.E, Boite N°05, Dos 08, Rap: La question Algérienne et l'O.N.U., 01 Décembre 1960, p02.*

الانسحاب من الجمعية العامة ولم يعد إلى أشغالها إلا في 25 نوفمبر 1955بعدما تمّ تأجيل مناقشة القضية الجزائرية.1

لقد أّهت مناورات الوفد الفرنسي عن طريق المقاطعة والانسحاب من المناقشات إلى تراجع بعض البلدان عن دعمها لتسجيل القضية في الدورة العاشرة، بالإضافة إلى أن رد الفعل الفرنسي العنيف دفع بعض الدول الإفريقية والآسيوية إلى التخوف من إمكانية اعتراض فرنسا وحلفائها على انضمام بعض الدول حديثة الاستقلال إلى حظيرة الأمم المتحدة، انتقاما من مناقشة القضية الجزائرية، لذا فقد فضّلت المجموعة الأفروآسيوية ترك إمكانية مناقشة القضية في الدورة الحادية عشرة.2

حاولت فرنسا رفض تسجيل القضية الجزائرية في الأمم المتحدة بالاعتماد على ميثاق الهيئة ذاتها، فاعتبرت القضية داخلية والهيئة الدولية غير مخّولة بتسجيلها ودراستها وذلك بالاعتماد على مضمون المادة الثانية في فقرتها السابعة من ميثاق الأمم المتحدة، وقد ذهب مندوب فرنسا إلى أنه" يمنع على الأمم المتحدة مناقشة الشؤون الداخلية لفرنسا، مادامت الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا، ومادام الجزائريون من جميع الأجناس والعقائد مواطنون فرنسيون... إن جميع الدول التي كان لها تأثير دولي قد اعترفت بحق فرنسا في ضم الجزائر منذ القرن التاسع عشر..لا توجد أّمة جزائرية لها كيان منفصل عن الأّمة الفرنسية".3

وذهبت الحكومة الفرنسية إلى التشّدد في موقفها أكثر حين قّررت سحب وفدها الدائم في الأمم المتحدة وعدم المشاركة بعد ذلك في دورة الجمعية العامة المخصّصة لمناقشة المشكلة الجزائرية باعتبار أن هذا الأمر يعد انتهاكا واضحا وصارخا لميثاق هيئة الأمم المتحدة.

أمام التقّدم الذي أحرزته دبلوماسية ج.ت.و في الدورة العاشرة للجمعية العامة للأمم المتحدة لم تيأس الحكومة الفرنسية من كسب المعركة الدبلوماسية، فلجأت إلى أساليب المراوغة لكسب الرأي العام العالمي وكسب المزيد من الوقت لإخماد نار الثورة المتأجّجة في الجزائر، ومن ضمن هذه الأساليب ازدواجية الخطاب فهي مثلا من جهة تصّرح للهند ومصر— الدولتان الفاعلتان في الكتلة الأفروآسيوية–بأنّها تريد التفاوض وتسعى إليه، كما حاولت خداع الرأي العام الدولي باستعمال بعض المصطلحات التي توحي بنيتها في الحل السلمي من ذلك مثلا "السلم والمفاوضات"4، ومن جهة أخرى تصّرح بأنّ الجزائر مقاطعة فرنسية، ويشكّل اختطاف قادة الوفد الخارجي للجبهة خيضر، بن بلّة، بوضياف، آيت أحمد ذروة التناقض في الخطاب الدبلوماسي الفرنسي، على إثر عملية قرصنة جوية

---

[1] – محمد علوان: القضية الجزائرية أمام الأمم المتحدة (1957–1958)، ترجمة: علي تابليت، سمير حشاني، عبد العزيز بوكنة، منشورات م.و.د.ب.ح.و.ث.1954/11/01، وزارة المجاهدين، الكرامة للطباعة والنشر، الجزائر،2007، ص ص: 56–58.

[2] – أحمد بن فليس: المرجع السابق، ص ص: 340–343.

[3] – المرجع نفسه، ص 343.

[4] – *CAN: GPRA, boite5, dos: 8, doc: MAE "La question Algérienne et l'ONU", 1/12/1960, p2.*

يوم22 أكتوبر 1956،بما أن هذه السابقة جاءت بعد أشهر من بدء الحكومة الفرنسية بزعامة الحزب الاشتراكي الفرنسي في إجراء مجموعة من الاتصالات مع ممثلي ج.ت.و في كل من القاهرة وروما ثم بلغراد.1

هذا ما دفع بممثل ج.ت.و في نيويورك محمد يزيد يوم 26 أكتوبر 1956 لإدانة هذا السلوك المنافي للأعراف الدولية، كما قام بكشف أمر الاتصالات السرية مع بيير كومين Pierre Commin لتأكيد عدم وفاء الفرنسيين لوعودهم بحّل المشكل بالطرق السلمية والتأكيد على ازدواجية خطابهم وسوء نواياهم.2

وعلى إثر تسجيل القضية الجزائرية في جدول أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة في الدورة الحادية عشر في سبتمبر 1956 قام وزير الخارجية الفرنسي أنطوان بيناي Antoine Pinay بالانسحاب والامتناع عن المشاركة في جلسات المناقشة، وقد نجحت مناورته هذه بحيث تراجعت العديد من البعثات عن مواقفها المؤيدة لج.ت.و بدعوى ضرورة تفادي حرمان الهيئة الأممية من تعاون فرنسا، وهو ما دفع البعثة الفرنسية بالعودة إلى مكانها بالقاعة، لكن هذه المناورة لم تغير واقع الحال لأن القضية الجزائرية سجّلت بأغلبية في الدورة الحادية عشر وستسجّل حضورها بشكل منتظم في جلسات الدورات القادمة إلى غاية استقلال الجزائر.3

بعد فتح النقاش حول القضية الجزائرية من طرف الجمعية العامة للأمم المتحدة لأول مرة في فيفري 1957 في إطار الدورة الحادية عشر؛ ظلّت الحكومة الفرنسية تؤكّد على عدم أهلية منظمة الأمم المتحدة وتحتج على تدخلها في شأن داخلي للدولة الفرنسية، كما تحدّثت البعثة الفرنسية في الجمعية العامة لذات المنظمة عن السياسة الفرنسية في الجزائر وخاصة ما يتعلق بمشروع "القانون الإطار" "La loi cadre"، ووعود بسلام قريب وذلك كلّه من أجل تطمين الرأي العام العالمي الذي أبدى قلقه من تصاعد حدّة المواجهة في الجزائر، وهو ما دفع المجموعة الأفروآسيوية عند إيداعها لطلب التسجيل في الدورة الموالية –1957– إلى الإشارة بأنّ: "منظمة الأمم المتحدة لم تسجّل مؤشرات لأيِّ تطور كان باتجاه تجسيد أهداف التوصية".4

خاتمة:

وفي ختام هذه الدراسة المتواضعة حول المشاركة الجزائرية في المؤتمر التأسيسي للكتلة الأفروآسيوية بباندونغ أفريل 1955 وانعكاساتها نخلص إلى تأكيد النتائج التالية:

---

1 - *Rédha Malek: L'Algérie à Évian, Op.cit, p: 29.*

2 - *Idem, p29*

3 - *Ferhat Abbas: Autopsie d'une guerre, Op.cit, pp : 177-178*

4 – المقصود التوصية النهائية لدورة 1956 والتي ورد فيها: الأمل في تعاون يُفضي إلى حل سلمي وديمقراطي وعادل يتُّم التوصل إليه في إطار الوسائل المتوافقة مع مبادئ ميثاق الأمم المتحدة": *C.A.N: G.P.R.A, M.A.E, B:05, Dos: 08, Op.Cit, p3.*

–شاركت جبهة التحرير الوطني في أشغال اللجنة السياسية لمؤتمر باندونغ ضمن وفد مغاربي مشترك، ومثلها كل من حسين آيت أحمد ومحمد يزيد، اللذان ساهما برفع مطالب الشعب الجزائري من خلال مذكرة مغاربية مشتركة وأعدا ملحقا خاصا عن المسألة الجزائرية.

– شاركت الحركة الوطنية الجزائرية MNA في المؤتمر من خلال قراءة نص رسالة مصالي الحاج إلى المؤتمرين، بعدما استطاع الشاذلي المكي إيصال الرسالة إلى رفيق مصالي في النضال والزعيم الهندي جواهر لال نهرو الذي كان يعطي الأولوية في التعامل مع مصالي وحركته على حساب الجبهة.

– أن المشاركة الجزائرية أثمرت توصية هامة تخص حق الشعب الجزائري في تقرير المصير والتعهد بالسعي لتسجيل المسألة الجزائرية ضمن جدول أشغال الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها العاشرة(1955).

– تمخض عن كسب تأييد الكتلة الأفروآسيوية تطور عملية تدويل المسألة الجزائرية في هيئة الأمم المتحدة، فحتى ولو لم تسجل في الدورة العاشرة إلا أن ذلك سمح لها من تحقيق نصر دبلوماسي أولي تلاه الانتصار الحقيقي بتسجيلها ثم مناقشتها في الدورة الحادية عشر(1956) وأصبحت مناقشتها دوريا كل سنة الى غاية دورة 1961.

قراءة نقدية لكتاب أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف

أ.د. خير الدين شترة / قسم التاريخ– جامعة المسيلة

تمهيد:

لم تكن النهضة الجزائرية الحديثة التي أعلنت عن نفسها بقوة بعد العقد الثالث من القرن العشرين وليدة لحظتها بل كانت امتدادًا لجهود حثيثة وأعمال مخلصة دؤوبة لكنها صامتة، لثلة من علماء الجزائر الأبرار الذين أبى عليهم ضميرهم الديني والوطني أن يتخلوا عن واجبهم الرسالي في تنوير الأذهان وبثّ العلم والوعي على الرغم من الضغوط الاستعمارية الخانقة، وتردي الواقع الجزائري إلى أسفل الدركات، وعربدت الساسة الفرنسيين الذين كانوا على يقين من أنهم قاب قوسين أو أدنى من إلحاق الجزائري إلحاقًا كلياً وأبدياً بفرنسا. وأبو القاسم الحفناوي واحد من هذه الشموع التي كانت تُضيء في صبر وصمت لترسل أشعتها الخافتة وسط طبقات الظلام الدامس، وكتابه "تعريف الخلف برجال السلف" بادرة جريئة، عبَّر من خلالها عن الهاجس الذي كان يسكن الفئة الجزائرية القليلة ذات الثقافة العربية الإسلامية أمام تيار الفرنسة الطاغي يقابله جهل سادر وغفلة تامة لدى الأهالي. هذه الدراسة ترمي إلى التعريف بهذا الكتاب "تعريف الخلف برجال السلف" من جوانبه الحضارية والتاريخية والأدبية.

ويمكن القول أن الكتابة التاريخية في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي كانت تُشكل وسيلة من وسائل الكفاح الوطني ضد العدو الفرنسي المستعمر وضد من شّوه ماضي الجزائر، وذلك لأنها كانت ترمي إلى شيء هام وهو الوجود القومي والنزعة الوطنية، وقد أكمل الرسالة من بعد هؤلاء السابقين (الحفناوي وأضرابه) عدد آخر من

الجزائريين فكان من بينهم الشيخ مبارك الميلي والمدني والجيلالي، إن هؤلاء الرواد حاولوا حفظ تاريخ الأمة وصيانة هويتها الإسلامية والعربية رغم ضعف الإمكانيات ورغم طغيان الدعاية الاستعمارية المضادة لهذا الاتجاه.

1. نسبة الكتاب إلى صاحبه:

أبو القاسم محمد الحفناوي من الذين عاشوا في النصف الثاني من القرن 19م والنصف الأول من القرن 20م، درس في عدّة أماكن وتولى تدريس الذي كان معظمه بالجامع الكبير في الجزائر العاصمة ابتداءً من سنة 1314هـ/1897م، كما تولى مهمة الإفتاء المالكي بنفس المدينة ابتداءً من سنة 1344هـ/1925م وقد عُرف بأثر هام اشتهر شهرة واسعة هو كتابه تعريف الخلف برجال السلف الذي كان من الجهود الجيّدة، أفاد الدارسين والباحثين ولا يزال من المراجع الهامة في ثقافتنا الوطنية العربية والإسلامية.

صدرت الطبعة الأولى من الجزء الأول في حياة المؤلف عن مطبعة فونتانة الشرقية بالجزائر سنة 1324هـ /1906م، وعن نفس المطبعة صدر الجزء الثاني عام1326هـ/1908م كما طُبع الكتاب في تونس بمكتبة الشيخ خير الدين في حدود سنة 1339هـ/1920م، وقد وقع تصويره في السبعينيات في بيروت دون تنقيح أو إضافة، ثم صدر الكتاب بطبعة حديثة تضمنت تصحيحات وتعليقات سنة 1392هـ/1982م عن مؤسسة الرسالة في بيروت بالتعاون مع المكتبة العتيقة في تونس، وصدرت الطبعة الثانية عنهما أكثر تنقيحًا من الأولى سنة 1405هـ/1985م، ثم صدر الكتاب من جديد ولكن هذه المرة في دار نشر جزائرية هي دار موفم سنة 1428هـ/2007م، مع مقدمة قصيرة للكتاب وصاحبه، ولا أدري على أي النسخ تم الاعتماد في طبع الكتاب من جديد هل على النسخ الورقية الأصلية أم على النسخ المصّورة.

وقد ورد في رسالة من قطاف بن أحمد بن عثمان إلى الشيخ الحفناوي مؤرخة في 14 سبتمبر سنة 1935م ذكراً لسعر الكتاب خلال هذه الفترة حيث قال له: «نعم سيدي إنني اشتريت كتاب القسم الثاني[من] كتاب تعريف الخلف برجال السلف من الجزائر من تأليفك بسبعة دورو»[1]. أما عن نسبة الكتاب إلى صاحبه فقد أجمع كل الذين ترجموا للشيخ الحفناوي وذكروا مؤلفاته في نسبة هذا الكتاب إلى الشيخ ولم يختلفوا في اسمه، ومن خلال صفحة الواجهة لنسخة الكتاب المطبوع يتضح جلياً أنه يُنسب إلى «الشيخ أبي القاسم الحفناوي بن الشيخ بن أبي القاسم الديسي بن سيدي إبراهيم الغول عامله الله بلطفه(آمين)».

كما ورد في الصفحة الثامنة منه العبارة التالية «...وإذا شرحت عذري للمطلعين الكرام فليكن اسم هذا المجموع بهذا اللفظ "تعريف الخلف برجال السلف"»[2]. كما أن جملة الوثائق والرسائل والنشرات والدوريات كلها تثبت نسبة الكتاب بهذه الصيغة إلى الشيخ.ومن خلال ما سبق، لا يمكنني إلا أن أعتبر وبناءً على ما ذكرته المصادر والمراجع أن ما صّرح به الشيخ في مقدمة وخاتمة الكتاب بالإضافة إلى ما تضمنته بعض المقتطفات في ثنايا الكتاب دليلاً كافيًا على أن الكتاب من تأليف الشيخ الحفناوي.

إن الصيغة العامة للعنوان توحي للقارئ بأن المؤلف إنما يهدف من خلاله إلى الترجمة لمشاهير أهل العلم والفكر والثقافة الذين ذاع صيتهم في العهود الماضية، وكان لهم أثر واضح في مجتمعاتهم، وهو عنوان عام لا يُحدد الفترة الزمنية التي سيُغطيها، ولا المرحلة التاريخية التي سيتم التركيز على أعلامها كما أنه – في الوقت ذاته– لا يشير إلى منطقة جغرافية محددة بعينها، حيث لا نفهم منه؛ من هم السلف الذين سيترجم لهم، وإلى أي بلاد ينتمون، وهي أمور قد تنبّه إليها من سبقه، كما هو الحال بالنسبة لابن مريم المديوني الذي أوضح في كتابه «البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان» أن تراجمه ستشمل الشخصيات العلمية والدينية التي نبغت واشتهرت بتلمسان، وأبي العباس الغبريني الذي كان أكثر دقة عندما بيّن بجلاء في كتابه «عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية» أنه سيترجم للعلماء الذين عاشوا خلال القرن السابع الهجري، وحدّد أنه سيخص منهم أولئك الذين عرفتهم منطقة بجاية فقط.

وفيما يتعلق بمتغيرات العنوان يمكن التسجيل بأن الحفناوي صاغ عنوانه على طريقة القدماء الذين يعمدون في تأليفاتهم إلى ربط موضوع الكتاب بعبارة تناسبه في الإيقاع الموسيقي، ليأتي مسجوعاً خفيفاً على اللسان، سريع الحفظ في الأذهان على منوال طائفة كبيرة من المؤلفات القديمة مثل «أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض» للمقَّري و«بروق المباسم في ترجمة محمد بن أبي القاسم» لابن عزوز، و«الياقوتة المصونة في صلحاء بونة» لأحمد بن قاسم البوني وغيرها[3]، وهذا بدل أن تُعبِّر هذه العناوين ضمن متغيراتها عن إشكالية الموضوع وأبعاده الموضوعية والزمنية والتقنية، والطريقة التي اعتمدها الحفناوي في صياغة العنوان تجّسد مرحلة من مراحل الانحطاط الأدبي والفكري في العالم الإسلامي أين تجّسدت غلبة الشكلية والصياغة السجعية المثقلة بالمجاملات في الألقاب والأسماء في مقدماتها وبالذاتية والشخصانية في مضمونها وبالروحانية في خواتمها.

2. دوافع تأليف الكتاب:

لقد كانت بداية تأليفه للكتاب ترجع أولاً إلى ارتباطه بالتراث وكتب الطبقات التي قرأها وهو طالب في مرحلة التتلمذ ثم أخذ منها وهو موظف سواءً لنفسه كمحرر في "المبشر" أو للمستعربين الفرنسيين الذي كان يساعدهم على فهم التراث العربي الإسلامي والترجمة منه ما تقتضيه المصالح الفرنسية. وتأكد احتضانه لفكرة الكتاب منذ بدأ في مساعدة ديبون وكوبولاني في كتابهما عن الطرق الصوفية، فقد كان مضطًرا إلى الرجوع إلى المصادر العربية والإسلامية القديمة والحديثة لاستخراج التراجم والأخبار والمعارف العامة للجريدة والكتاب، وربما لم يخطر في باله أول الأمر وضع قاموس لعلماء الجزائر وصلحائها كما فعل بعد ذلك، ولكنه بدون شك جمع مواد غزيرة من قراءاته الكثيرة وصنّفها واحتفظ بها لوقت الحاجة وقد حان وقتها في عهد "جونار"، كما كان الحفناوي قد تعلَّم الكثير –كما قال– عن شيخه "آرنو" الذي كان رئيسًا لتحرير المبشر[4].

وكان ديبون وكوبولاني–كما مرَّ معنا– قد اعترفا بفضله في مساعدتهما على توثيق مؤلفهما حول الطرق الصوفية[5]، وقد عرفنا صلته بكل من آرنو، وميرانت، ولوسياني، ويذهب سعد الدين بن أبي شنب إلى أن الحفناوي

كان يجمع خلال ذلك البطاقات عن كل عالم، وكان يستعين ببعض المعاصرين من موظفين سامين، ومن مرابطين وعلماء دين وأصدقاء، ثم أن السلطات الفرنسية قد سّهلت له الاتصال بالمغرب الأقصى وخزائنه، فحصل عن طريق الاستكتاب على تراجم، وكانت هذه أحياناً تنتزع انتزاعاً من أصولها المخطوطة بدل أن تُنسخ، كما شاهد ذلك الأستاذ أبو القاسم سعد الله بنفسه عن دراسته لمخطوطة أبوراس في المغرب[6].

كما ساعدته السلطات الفرنسية على نشر الكتاب نفسه على حسابها يوم أصبح جاهزًا، وكان ذلك في عهد الحاكم العام "شارل جونار"، الذي نّوه به الحفناوي في مقدمة كتابه، وأورد أبياته الشهيرة التي نُقشت عند مدخل المدرسة الثعالبية، فقد قال عن "جونار": «أنه اهتم بمسلمي الجزائر، وأحيا آثارهم وحاول أخذهم في طريق التقدم العصري لكي تجمع الجزائر بين عصر الشرق القديم وبحر الغرب الجديد»[7]، وكذلك شكر الحفناوي (الحكومة) على طبع «لا يُسر من أبناء وطننا وديننا من معارف الاعتبار ومآثر الاختبار»[8].ويبدو أن تزكية الوسط الثقافي الفرنسي بالعاصمة من رجال المدرسة الثعالبية ومحرري جريدة "المبشر" من مستعربين وفرنسيين للنشاط الفكري والصحفي للحفناوي قد دفع هذا الأخير إلى إصدار هذا السَفر، خصوصًا أنه لم يُقحم نفسه في دائرة القضايا التاريخية والسياسية التي تمس بفرنسا وطبيعة وجودها بالجزائر، وهو ما زاد من حظوظ إصدار المجلد الثاني من هذا العمل.

لقد حاول الحفناوي من خلالهذا الكتاب إبراز المساهمة الجيّدة لعلماء الجزائر ومثقفيها وبعض زملائهم في المغرب العربي والسودان الغربي ممن كانت لهم مساهماتهم الثقافية في أمتهم، فجّسدوا بذلك حضورهم الحضاري في المسيرة التاريخية للثقافة العربية الإسلامية، تجسَّد ذلك في(419 شخصية) عّرف بها الحفناوي في كتابه من إبراز مكانة الجزائر الثقافية ودور رجالها عبر القرون فشمل ذلك كل ما استطاع الوصول إليه منذ القرون الأولى للحضارة العربية الإسلامية حتى أيامه.

إلى جانب كل هذه الدوافع المباشرة، يمكننا أن نضيف الرغبة الذاتية للمؤلف؛ فالحفناوي كان كثير الاطلاع، واسع الحفظ، دفعه حبه للعلم لأن يغادر مسقط رأسه قصد الاستقرار في مدينة كبيرة حتى يتسنى له العثور على كنوزالعلم وأمهات المصادر، ويلتقي العلماء الذين بإمكانهم أن يوسعوا مداركه ويفتحون أمامه أبوابًا لم يلجها من قبل، فوقع اختياره علىالجزائر العاصمة، كما كان مترجمًا شغوفاً بالتأليف والتدوين، ويبدو أن اختياره لهذا النوع من الكتابة أي الترجمة للمشاهير من العلماء والصالحين قد جاء ثمرةً لإعجابه الكبير بكتاب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة، والذي جمع فيه مؤلفه أعدادًا هامة من أسماء المؤلفات، وترجم أيضًا لطائفة كبيرة من أصحابها، حيث ذكر أنه قرأه مرات عديدة بشغف زائد[9]، لما فيه من إشارات بليغة إلى اتساع ميدان العلوم، وهمّة العلماء في تحصيلها، وقوة عزائمهم في التأليف والتدوين.

3. **محتوى الكتاب «الوصف العام»:**

لقد اشتهر العلماء المسلمون بكتابة التراجم حتى برعوا فيها دون غيرهم بشهادة الباحثين الأجانب، وكانويعدون هذا الفرع من المعرفة في باب التاريخ، رغم أن العناية بالتراجم أو بالرجال كما كانوا يُعبرون، انطلقت من العناية بأهل الحديث ومعرفة الصادق من السفيه، وباب التراجم باب واسع في حدذاته إذ تناوله الكتّاب من حيث الاختصاص كالفقهاء والقضاة والشعراء...إلخ، أو من حيث الزمان فيذكرون رجال قرن معين...إلخ، وقد يتناولون الأعيان عبر العصور، أو علماء قطر بعينه...إلخ. فالتراجم قد تكون أيضًا شاملة للزمان مع المكان، وقد تكون محلية ومحددة في الزمان والمكان[10]. ويبدو أن كتاب الحفناوي في الترجمة هي طريقة الكتّاب الأقدَمين بلا شك، فهي عبارة عن سرد مع وصف لحياة المترجَم له، يعمد فيها كثيراً إلى السجع الممل أحياناً، مما يجعل طريقته بعيدة عن المنهج العلمي للبحث التاريخي، فهو يأخذ الأخبار من كتب سابقيه، يقلِّد تارةً حرفيًا ويقتبس منها أخرى دون نقد أو تعليق، أغلب التراجم التي جاء بها كانت منقولة نقلاً حرفياً. ويمكن القول أنه ذهب مذهب بعض كتّاب السيَر الأولين الذين كانوا يركزون اهتمامهم على نقل الأخبار فقط[11]، وعليه لم يراع قواعد البحث الحديثة والأغراض التاريخية في عصرنا.

كما حرِص الحفناوي على ذكر مصادره حرصاً شديداً، وهو شيء أساسي في كتابة التراجم، وكان يرى أن صحة الخبر وكذبه تقع على كاهل صاحب المصدر، وهذا الموقف شبيه بموقف العلماء العرب في العصور الوسطى، أما إذا شك في الرواية فإنه كان يستعمل اصطلاح "الله أعلم" وهو تعبير يدل على التحفظ أو عدم الجزم بالرأي[12].

لقد رأى الحفناوي أن يُقسم سفره هذا إلى قسمين: القسم الأول خصصه لترجمة الأعلام الذين وجد أسمائهم (50 شخصية) منقوشة في قباب المدرسة الثعالبية، وأضاف إليهم علماً آخر. أما القسم الثاني فقد خصصه لتراجم من علماء القطر الجزائري، ومن الأقطار الأخرى كالسودان الغربي والمغرب وتونس والأندلس، وبلغ عددهم 369 ترجمة تتفاوت بين الإمعان في ذكر سيرهم وأعمالهم وبين الاختصار والتجاوز والسطحية، وقد شملت تراجمه كل المشاهير سواء أكانوا علماء أم فقهاء أم أدباء أم قضاة أم صوفية وشيوخ زوايا وحتى بعض السياسيين، ولم يكتف بتراجم القدماء بل ترجم أيضاً للجيل الذي تلاه ولبعض المعاصرين له..

الجزء الأول: تم طبعه سنة 1324هـ/1906م. جاء في صفحة الواجهة ما يلي من الأعلى إلى الأسفل. ولاية عموم الجزائر، ثم هلال وعليه نجمة (ترمز لهوية الكتاب الإسلامية)، ثم عنوان الكتاب (تعريف الخلف برجال السلف)، ثم ذكر لصاحب الكتاب مع نسبه (أبي القاسم محمد الحفناوي بن الشيخ بن أبي القاسم الديسي بن سيدي إبراهيم الغول عامله الله بلطفه آمين)، ثم في أسفل الصفحة جاءت سنة نشر الكتاب(سنة 1324هـ-1906م)، ثم مكان طبعه(طبع بمطبعة بيير فونتانة الشرقية في الجزائر)، ثم تلتها صورة أخرى لصفحة الواجهة (بورق عادي) تتضمن نفس المعلومات المدّونة في النسخة الورقية الصلبة السابقة (لونها أحمر مائل إلى الاصفرار).

أ- **المقدمة**: ثم جاءت صفحة المقدمة أو التمهيد أو المدخل بالرسم التالي:مبنى هندسي مزيّن بشموع متلألأة، عليه قباب يعلوها هلال ونجمة وكأنه يرمز إلى الشكل الهندسي للمدرسة الثعالبية، تضمن بداخله العبارة

التالية: بسم الله الرحمان الرحيم، في أعلاها: الصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم في أدنى هذا الرسم. ثم استهل مقدمته بعبارة الحمد لله والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم (الحمد لله على نواله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله؛ أما بعد)، وقد قسم مقدمته إلى ثمانية أقسام (06 صفحات).

– **الديباجة:** وتضمنت: دور القطر الجزائري في طلب العلم ونشره، وإخراج علماء نافسوا أقرانهم في الأقطار الأخرى إلى عالم الجيل الحاضر كي يقتفوا آثارهم ويقتدوا بقدوتهم «فالظاهر أن القطر الجزائري قد اجتهد...فلهجت بذكرهم أقلامه على ألسنة خلقه».

– نكران الأجيال اللاحقة(الخلف) لجهود العلماء الجزائريين السابقين رغم نبوغهم وتفوقهم وكثرة تآليفهم «هذه أسماؤهم وتراجمهم..مشتهرة فيهما اشتهار مؤلفيها عند كل طالب علم وفي كل كتاب».

- **دوافع التأليف:** وتضمنت:

– دور الوالي العام "جونار" في إحياء التراث الإسلامي بالجزائر وإمعانه في التعاطف مع مسلمي الجزائر«ولما آلت ولاية القطر الجزائري... ومدار كل مدينة في العالم».

– دور الثقافة الأوروبية والوعي الغربي الحديث المهتم بإحياء تراث أسلافه واستنباط معارفهم في النهوض والارتقاء. فكأنه يقول أنه استمد من خبراتهم وتجاربهم كي يساهم في النهوض بالأمة الجزائرية «ولم يصر الغرب إلى ما صار إليه في التاريخ الجديد إلا بالتلمذة لأهل العلم...فضلاً عن إخضاع الصياصي، والأخذ بجميع النواصي».

– دور المدرسة الثعالبية في تنوير الأمة الجزائرية، ليبدأ بعدها في وصفها، مع التركيز على انشغال القائمين على بنائها وعلى إخراجها وفق الطابع الأندلسي الإسلامي. كما أورد الأبيات الشعرية التي هي من تأليفه والموجودة عند مدخل المدرسة، ثم تحدَّث عن ترتيب البيوت وتفصيل القاعات ونقش الجدران، والقباب الخمسة التي دّون فيها أسماء 50 َلَما جزائرياً وهم المترجم لهم في الجزء الأول«فإذا دخلها وجال في أكنافها..وترتيب الأسماء في القباب سنوي، وترتيبها هنا هجائي وهي أسماء المترجمين في القسم الأول».

- **مصادر ومراجع الكتاب:** حيث ذكر أهم المصادر والمراجع المعتمدة بدون تصنيف مسبق أو ترتيبي خضع لرؤية بيبليوغرافية « في القسم الأول من هذا الكتاب الجامع لما تيّسر نقله.. وسلوة الأنفاس».

- **الشكر:** حيث تقدم بالشكر للحكومة العامة في الجزائر على دعمها، كما أسداه إلى كل من ساعده في هذا التأليف، وذكر بعضاً منهم مرفوقاً بمن أعانه من كتب ووثائق «وشكرا لحكومتنا الجزائرية... وعن جميع عباد الله الصالحين».

- **خطة الكتاب:** «هذا الكتاب قسمان: أولهما في تراجم العلماء المكتوبة أسماؤهم في المدرسة الثعالبية، وثانيهما: في تراجم غيرهم من علماالبر ّ الجزائري، وما يليه من الأقطار كالسودان ونحوه..».

- **منهج الكتاب:** وقد وضعه في صيغة تنبيه إلى القارئ«أذكر تحت كل اسم عالم.ودعتني إليه الضرورة».

●**نقد المصادر السابقة:**«وقد اجتنب النقل من «البستان» و«عنوان الدراية» لما في نسختيهما لدىّ..ويا ليتهم يُتحفون عالم العلم بالذّخائر المكنونة في الخزائن المغربية لإحيائها وإحياء أهلها ».

ب. مضمون الجزء الأول:

من ص10 إلى ص 201، تناول الحفناوي بالترجمة، تراجم العلماء المدّونة أسماؤهم في قباب المدرسة الثعالبية، وكان الحصر محدوداً بخمسين(50) عالماً، لكن إذا ركزنا في تعدادهم نجدهم واحد وخمسون عالماً.. وهذا بعد إضافة أحدهم حيث لم يتسنى لي التدقيق في القباب حتى أعثر على اسم العالم الذي أضافه وهو ليس مدّون في قباب المدرسة، وللأسف نجد كل الدراسات التي تناولت بالبحث أو التعليق على كتاب الحفناوي لم تنتبه إلى هذا الخطأ وبنت موقفها على ما أورده الحفناوي في مقدمته.

ومن محتويات المضمون أنه كان يذكر في معظم من ترجم لهم المصدر المأخوذ منه تحت اسم المترجم له مباشرةً مرفوقاً بكلمة(من) أو (عن) لكن في كثير من الأحيان يُدعم ترجمته بمصادر أخرى يشير إليها في ثنايا الترجمة مرفوقة بكلمة (قال) أو (يقول) وفي حالتين فقط من (51) ً اً يذكر اسم العلَم مرفقًا بعبارة (لم أطلع عليه) أو (لم أقف على ترجمته).ويحاول بعدها الحفناوي جاهداً أن يأتي باسمه كاملاً بما يعرف، أو بأثر من آثاره (كراماته، أو قصيدة شعرية منسوبة إليه، أو قيلت في حقه، أو ذكر إحدى مآثره وآثاره، أو ما قيل فيه). ما يمكن تسجيله أيضاً فيما يتعلق بمحتوى الجزء الأول هو أن الحفناوي قد اقتصر على مصادر معدودة، رغم أنه كان بإمكانه التوسع في غيرها بهدف التثبت والدقة، وهذه المصادر المعدودة على قلتها هي في نظره مصادر لا يرقى إليها الشك أو الزلل، مما دعاه إلى التجاوز عمداً على المصادر الأخرى التي يملكها كونه اشتم فيها الخطأ وعدم الدقة أو المبالغة في الوصف أو رواج التصحيف في كثير من صفحاتها.

وفي ترجمته لكل الأعلام الذين قام بترتيبهم ترتيبا هجائياً يختم عادة اسم الشهرة لديه بإلحاق موطنه الأصلي أو مسقط رأسه بلقبه على شاكلة: (المشّدالي أو الغرناطي أو التنسي أو المازوني أو التادلسي)وأحيانًا أخرى يلحق باسمه الأول مذهبه أو كنيته التي اشتهر بها فقط على شاكلة: (الثعالبي، أو الوغليسي أو المنقلاتي أو الشاوي...) وفي مرات قليلة ينسبه صراحة إلى مذهبه والتيار الذي ينتمي إليه على منوال: (التوحيدي..) والأمر نفسه على مضمون الجزء الثاني.

عمومًا فإن عمله في القسم الأول قام على الواقعية والشمولية في آن واحد، حيث اعتمد على أصل الرواية وصحة السند أكثر من الرواية نفسها، وهذه كانت عادة مؤرخي العصور الأولى من أتباع مدرسة المدينة ومدرسة الشام الذين كان يهمهم صحة الراوي (السند) أكثر من صحة الرواية، التي هي في العادة لا يعقّب عليها عندهم رغم ما تحتويه من مبالغات تتنافى مع العقل والمنطق والشرع حتى!!

ت – الخاتمة: كما تضمَّن القسم الأول أيضًا بعد ختام تراجم الأعلام الواردة فيه ثبتًا للمحتويات أدرج فيه أسماء الأعلام المرتبة هجائياً مع أرقام صفحاتها، ثم تلته قائمة للكلمات والجمل الواردة خطأً مع صوابها.

1. **الجزء الثاني**: تم طبعه سنة 1326هـ/1908م.

وتضمن 624 صفحة، بما فيها مقدمة العمل وخاتمته، وفهرس المحتويات مع قائمة بالكلمات والجمل الواردة خطأً مع صوابها. جاءت صفحة الواجهة بنفس الشكل والصيغة التي كتبت بها واجهة الجزء الأول مع تعديل في تسمية الجزء وسنة النشر.

أ- المقدمة: وقّسمها إلى عنصرين هما:

- **الديباجة**:وجاءت بنفس صيغة ديباجة الجزء الأول تقريباً حيث جاء فيها: «الحمد لله وحده، بسم الله الرحمن الرحيم، الصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين».
- **مصادر ومراجع الكتاب**: كما ذكر الحفناوي في مقدمة هذا الجزء المصادر والمراجع الجديدة، بالإضافة إلى ما سبقكما نبّه إلى تغيير طفيف في تقنية الإحالة، ذلك أنه وعَرِض ذكر المصدر المنقول منه في بداية الترجمة فإنه آثر ذكره هذه المرة في آخر الترجمة.كما نبّه أيضًا فيما يتعلق بالشق التقني لمصادره، أنه سيعتمد أكثر وبخلاف القسم الأول على المراسلات والاتصال المباشر، كون أغلب المترجم لهم في القسم الثاني من معاصريه أو من القريبين لعصره، «وبعد فلماّ كان القسم الأول..الخاص بالمقيَّدين من علماء البرّ الجزائري في المدرسة الثعالبيةقياماً بوظيفة القلم الذي علّم الله به الإنسان ما لم يعلم، ولم ينخدعوا لخنّاس الجِنّة والناس فأذكره منسوباً إليهم».

ب- مضمون الجزء الثاني:

تضمن القسم الثاني ذكراً لـ369 علَماً، خصوصية هذا القسم هو أنه لم يتقيّد كما القسم السابق بعلماء البرّ الجزائري فقط بل أضاف إليهم جملة من علماء الأقطار الأخرى سواءً بالمولد والنشأة أو بالإنتاج والعلاقات والتكوين كالمغرب والأندلس والسودان الغربي. والملاحظ في تراجم هذا القسم هو أنه ليس كسابقه حيث أمعن في إيراد مسقط الرأس عقب ذكر الاسم الأول للمترجم له على شاكلة: القسنطيني، البجائي، التلمساني، التازي، الزواوي، الوهراني، الجزائري، الندرومي، البسكري، العباسي الحنيفي، القلعي، المستغانمي، التنبكتي، الحرشاوي...

ومن المميّزات الأخرى التي تكررت كثيراً في هذا القسم هو ذكر الآيات والأدعية المأثورة خصوصًا منها المتأثرة بالأوراد الصوفية في آخر كل ترجمة فمن الآيات مثلاً: (ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ) ومن الأدعية المأثورة «رزقنا الله بركة أوليائه وجعلنا من خواص الأصفياء بفضله»، «أصلحه الله وكان له ولذريته ولياً ونصيراً آمين، آمين، آمين والحمد لله رب العالمين» «توفي رحمه الله وطيّب ثراه وأنالنا من الجنة بركته ورضاه»...

ت- الخاتمة: وتضمنت قسمان:

- **دعاء الختم**: وكان من عادة مؤلفي العصور السابقة أنه عندما ينتهي من عمل تأليفي تكون آخر أسطر هذا العمل دعاءً له ولنسله ولعامة المسلمين وخاصتهم، وهو ما فعله الحفناوي في خاتمة القسم الثاني، حيث ختم عمله بختم عمله بختم سيدي أبي عمران موسى بن عيسى المازوني، تبركاً به وتوسلاً بدعائه المستجاب إن شاء الله، «وهذا آخر ما قصدنا إليه يعني من الرجال، نفعنا الله بجميعهم...وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين».

تحديد تاريخ نهاية العمل:«سنة 1326هـ/1908م، من هجرة مولانا محمد بن عبد الله رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أفضل الصلاة وأزكى التسليم». كما تضمن القسم الثاني أيضاً بعد ختام تراجم الأعلام الوارد فيه، ثبتاً للمحتويات أدرج فيه أسماء الأعلام المرتبة هجائياً مع أرقام صفحاتها، ثم تلته قائمة بالكلمات والجمل الواردة خطئاً في القسم الثاني مرفقة بالصفحة والسطر مع تحديد صوابها.

وبهذا يكون الحفناوي قد ذهب مذهب المؤرخين الأوائل الذين كانوا يجعلون أكبر همّهم هو نقل الأخبار فقط، ولهذا نجده لا يراعي قواعد البحث الحديثة، ولا أغراض التاريخ المعروفة، فاقتصر على جمع ما كان مشتتاً منشوراً في كتب تاريخية عديدة يصعب في غالب الأحيان على القراء الوصول إليها، فلو لم تكن للحفناوي سوى هذه المزية لاستحق الثناء عليها، ولكنه أضاف إلى ذلك عدة معلومات عن عائلته وعن مؤسسي الزوايا ومشايخهم بفوائد لا مثيل لها، إذا كان تقييد الأخبار في زمانه بضاعة نادرة، فبفضله بلغتنا أخبار استخرجها من الوثائق العائلية التي أطلعه عليها بعض الأدباء من أصدقائه[13]. فعلى الرغم من جهله أساليب البحث العلمي فقد أنقذ لنا الحفناوي شيئاً غير قليل مما يتعلق بتاريخ الثقافة العربية بالجزائر في القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر، فمّما لاشك فيه أن أفضل عمل قام به الحفناوي بل أعظم مزاياه على العلم كما قال بن أبي شنب هو «تقييده تراجم رجال عرفهم طيلة حياته»[14].

4. مصادر الكتاب:

لقد اجتهد الحفناوي في جمع قائمة طويلة من مصادر التراث المهمة لإعداد تراجمه، واختار منها تلك التي خلّدت آثار علماء الجزائر، وسجّلت حياتهم وحفظت تواريخ ميلادهم ووفاتهم، ورسمت لنا صورة عن مختلف العصور التي عاشوا فيها، وما تميزت به في النواحي العلمية والاقتصادية والسياسية، وقد أشار في مقدمته إلى أنه بذل جهوداً كبيرة في جمع هذه المصادر، وسعى إلى الحصول عليها بشتى الطرق، مشيراً إلى ما صادفه من صعوبات أثناء ذلك، وخاصة من أصحاب المخطوطات الذين رفضوا إمداده بنسخ منها لاعتزازهم بها وخوفهم من ضياعها. وأهم المصادر التي استقى منها الحفناوي مادة كتابه وقد رتبناها بحسب حجم وتعداد ورودها في كتابه نذكر: «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» لأحمد بابا التنبكتي(ت1036هـ-1926م)الذي يُعد مرجعاً هاماً جدًا في التاريخ العام لشمال وغرب إفريقيا والأندلس ودراسة قيّمة للحالة الفكرية والاجتماعية والسياسية للقرن العاشر والحادي عشر الهجري[15]لذلك كان اعتماده عليه كبيراً.

كما استقى معلومات جمّة من كتاب «البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان» لابن مريم المديوني، والذي توفّي لمائة واثنين وثمانين عالماً وولياً ما ولدوا بتلمسان أو عاشوا بها، بالإضافة إلى كتاب «عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية» لأبي العباس الغبريني(ت714هـ-1312م)، الذي يضم تراجم مئة وأربعين من العلماء والمؤرخين والأدباء والشعراء من مشاهير أعلام الجزائر وتونس والمغرب والأندلس[16]، .. وعليه يمكن ترتيب مصادره التي اعتمد عليها في تأليف كتابه إلى أربعة أنواع هي:

أ- **الكتب المطبوعة والمخطوطة**:وهي التي حاز عليها اقتناءً أو إعارة، ومن مصادره المطبوعة والمخطوطة في القسم الأول نذكر: أحمد بابا التنبكتي، وكتابيه: «نيل الابتهاج بتطريز الديباج»، و«كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج»، والجبرتي وكتابه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار». والحضرمي في «مشيخته»، وحلولو، في «شرح المختصر». وابن الخطيب أبي العباس بن حسن بن علي و«كتاب الوفيات». وابن خلدون، «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر». وابن خلدون ابن زكرياء يحي، «بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد». وابن خلكان أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد، «فوات الوفيات». وابن خلكان أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد، وابن صَعد التلمساني، في كتابيه،«النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب». و« روضة النسرين في مناقب الأربعة الصالحين»والعَبدري التونسي، «الإكليل»..... ومن مصادر الجزء الثاني (بالإضافة إلى ما اعتمد عليه في القسم الأول): بن أبي حجلة أحمد التلمساني، «مغناطيس النّر النفيس». وابن الأحمر أبو الوليد إسماعيل في كتابيه: «الفهرسة». و« روضة النسرين في دولة بني مرين». والأمير عبد القادر، «ذكرى العاقل وتنبيه الغافل». وبن عمار الجزائري أبو العباس سيدي أحمد، «نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب». والبقي أبو جعفر، «مختصر الإحاطة». وبيرم الخامس محمد بن مصطفى، «صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار».....[17].

ب. **المراسلات**: استعمل الحفناوي أسلوب المراسلة أيضًا للاستفسار عن مشاهير المناطق البعيدة التي لم يتمكن من زيارتها، حتى يثبت قائمة علمائها وفقهائها وأدبائها في كتابه.. وكانت صيغة الرسالة عامة وليست موجهة بشكل خاص من أجل ترجمة علم خاص ومن أمثلة مراسلاته ما ورد عليه من رسائل من مفتي مستغانم الذي قدَّم له ترجمة معزوز البحري المستغانمي[18]، ورسائل قاضي تلمسان آنذاك أبو مدين شعيب بن علي بن عبد الله الذي زوده بكتاب «عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس» وبعث إليه بتراجم لعدة علماء[19]..

ت. **الاتصالات الشخصية الخاصة**: واعتمد الحفناوي على هذا النوع من المصادر خصوصًا عندما كان يقع في ترجمة غامضة أو مشكلة طارئة، فكان المقربين منه أو من يعرفهم عن قرب يفيده بها، وفي الغالب استعمل هذا النوع في ترجمة أفراد عائلته: كجده إبراهيم الغول وأخوه المدني ووالده بن عروس، أو أيضًا منطقته كعبد الرحمان الديسي والمازري والصديق الديسي. وقد كانت هذه الاتصالات إما بالمراسلة العادية أو بالمقابلة الشخصية.

ث. **رصيده المعرفي واجتهاداته:**

وقد اعتمد أيضًا على رصيده المعرفي واجتهاداته الخا صة عندما يْعدم المعلومة في المصادر السابقة.. وقد ذكر الحفناوي أنه وجد صعوبات جمّ ة في الحصول عليها قائلاً: «ولم أعثر على هذه الجملة من كتب التاريخ بعد البحث الطويل في مضانه ومحاولة مساجن المؤلفات بكل حيلة ووسيلة»[20]. ومن التراجم التي ذكرها بالاسم فقط، ثم أعمل الاجتهاد من ذاكراته في ترجمتها لانعدام المصادر المكتوبة والشفوية عنها أثناء تحريره للكتاب: عبد الرحمان الأخضري، محمد بن أحمد بن مريم المديوني، وعلي بن أحمد الشريف بن مالك الجزائري، هذا الأخير الذي اعتمد له على قصيدته التي يحفظها. ورغم كل هذه المصادر النفيسة والمراجع النادرة والمحاولات المستميتة في جمعها من مضانها يأتي في آخر مقدمته ليبرر عجزه عن الإتيان بعمل كامل ومن ثم الإحاطة بكل التراجم ليقول: «ولم أعثر على غير هذه الجملة من كتب التاريخ بعد البحث الطويل في مضانه ومحاولة مساجن المؤلفات بكل حيلة ووسيلة؛ لأن المس تحوذين عليها يفضلون بقاءها ذخيرة للأَوَضة على إفادة طالبيها بها واستفادتهم منها، ولا يبالون بما وراء ذلك، زاعمين أنهم باستعارتها فقدوا منها كتباً نفيسة عزيزة الوجود، نسأل الله توفيقنا وإياهم لما فيه رضاه، لهذا السبب لم أقف على تراجم علماء أشاهر كا لّرماصي والأخضري وغيرهما، ولا يسعني تجاوزهم فأذكرهم بما أعلمه، وإن قلَّ فعذراً يا أهل الإطلاع وطول الباع، ....»[21].

5. منهج الحفناوي في تأليف الكتاب:

يقع الكتاب في مجلد يضم قسمين اثنين يختلفان من حيث الحجم، أولهما خاص بتراجم العلماء الموجودة أسمائهم في المدرسة الثعالبية التي تأسست سنة 1322هـ/1904م وهم خمسون شخصية مع إضافة علم آخر على ما ذكرنا سابقًا في المحتوى غطى التعريف بها في مائتي صفحة، أما القسم الثاني فيضم ما عداهم من علماء البر الجزائري وما يليه من الأقطار الأخرى كتونس والمغرب والأندلس والسودان الغربي. وقد تضّمن هذا القسم التعريف بتسع وستون وثلاث مئة شخصية، ورد التعريف بهم في نحو ست مئة صفحة، ذات ترقيم منفصل عن الترقيم في القسم الأول.

ولا يعثر الدارس على السبب الوجيه الذي حدا بالمؤلف إلى تقسيم كتابه على هذا الشكل سوى حرصه على أن يُفرد العلماء الذين وجد قائمتهم في قباب المدرسة الثعالبية بقسم خاص، ويخصص باقي الكتاب للشخصيات التي اجتهد بنفسه في جمعها وترتيبها، لأن التقسيم على الشكل الذي لجأ إليه المؤلف لا يخضع لأي معيار زمني أو جغرافي ولا يستند إلى أي طريقة منهجية في الترتيب. ويمكننا تسجيل بعض الملاحظات والخصائص التي يتسم بها منهج المؤلف في إخراج الكتاب:

● **ترتيب الأسماء:** ما يُلفت النظر أن الأسماء موضوع التعريف لم تُرتب ترتيباً علمياً دقيقاً، فلم يُرتب الأعلام حسب العصور أو الأماكن، حتى أنه لم يلتزم بترتيب معجمي مضبوط، فوقع في الخلط وعدم التنظيم. هذا الخلط يتضح مثلاً في الأسماء التي تبدأ بالعين أو القاف أو بالميم وهي ترِد بعد الأسماء التي تبدأ بالألف لكنها تتقدم الأسماء التي تبدأ بـ(ابن)ولعل من أسباب ذلك هو طبيعة الأسماء التي قد ترد في أكثر من صيغة بناءً على اللقب العائلي أو النسبة إلى المنطقة أو البطن أو العرق (كالشاوي) أو المذهب(التوحيدي) أو اسم الشهرة.

● **منهجه في جمع المادة وتصنيفها:** قام أبو القاسم الحفناوي من خلال عمله بجمع بيانات ومعلومات موثّقة، وأحياناً رقمية تحصّل عليها بطرائق مختلفة ومتعددة وهي بيانات ومعلومات أساسية، كونها من الأعداد المجّمعة لتجي شكل جداول إحصائية بالإشارة إلى متغيرات معيّنة فيرقى هذا العمل إلى مستوى النظرية من خلال الربط بين أجزائها أو مقارنتها أو تقويمها، وهذا ما يحصل في الوقت المعاصر في مجال البحث العلمي الرصين.

● **منهجه في تركيب المادة ونقدها:** من مميزات منهج الحفناوي في هذا الكتاب هو التزامه بالأمانة العلمية وعدم التصرف فيها بالزيادة أو النقصان، وكذا توخي العرض المحايد لها، مع الإحالة على المصادر الأصلية التي أخذ منها، مهما كان حجم المقتبس منها، وتجده دوماً يحدد بداية الاقتباس بعبارة «حدثني....»وينبّه إلى انتهائه بعبارة (انتهى أو أ.هـ). وفي ذلك يقول: «هذا ما وجدته في كتب من أشرت إليهم في المقدمة، وكله منقول منها بالحرف، ولمأتصرف فيه بزيادة أو نقص إلا قليلاً، والقليل الزائد نسبته إلى قائله إن كان منقولاً وقد أدرجت تراجم بعضهم في هذا المجموع، وفي المدرسة الثعالبية تذكارًا وشكرًا»[22]. ويذكر الحفناوي للتدليل على أمانته العلمية أنه كان يعاني من التصحيح والتثبت عندما ذكر ترجمة المديوني قصيدة لابن الخطيب: «وقد قاسيت من النصب في تصحيح هذه الصفحات المنقولة من نسخة «البستان»، ما إن مثله ليعجز عنه الضعيف مثلي ولكني استعنت بالله تعالى في تصويب ما حرَّفه المحرفون، عفا الله عنَّا وعنهم»[23]. وهناك دلائل كثيرة على أمانة الحفناوي في تركيب ونقد المادة الخبرية التي أتى بها، ومن مميزات منهجه عدم التزام التسلسل التاريخي، حيث لا يتوخى المؤلف التسلسل التاريخي في الاستفادة من المصادر وهو ما يسمى بتنظيمالمصادر التاريخية تنظيمًا كرونولوجيًا[24] فلا يرتب المراجع التي يقتبس منها تراجمه ابتداءً من الأقدم ثم الذي يليه وهكذا؛ بل إنه كثيرًا ما يقلب الوضع فيبدأ بالمرجع الأحدث ثم يعود لينقل عن الذي سبقه ثم عن الأقدم دون أن يرى في ذلك إخلالاً بقواعد الكتابة التاريخية، كما فعل حينما ترجم لأحمد بابا التنبكتي، حيث اقتبس ما كتبه عنه القادري في «نشر المثاني» وهو من أهل القرن الثامن عشر الميلادي، ثم عاد لينقل ما جاء في كتاب اليفرني وهو من كتّاب القرن السابع عشر، وكذلك الحال حينما ترجم لابن قنفذ القسنطيني حيث بدأ بذكر المعلومات التي وجدها في «البستان» لابن مريم وهو من أهل القرن السادس عشر الميلادي، ثم أتبعها بما كتبه عنه أحمد بابا التنبكتي في «نيل الابتهاج»، وهو من أهل القرن الخامس عشر.

كما أن هناك تباين بيّن واختلاف كبير بين أحجام التراجم، فبعضها يستغرق صفحات عديدة قد تتجاوز العشرة كما هو الحال في ترجمة أحمد بن أبي حجلة التلمساني، وسعيد بن أحمد المقَّري، وبن الشريف التلمساني

ومحمد بن عبد الرحمان الأزهري وغيرهم، وبعضها الآخر لا يتعدى سطًرا أو سطرين مثل ترجمة علي بن محمد الصنهاجي ومحمد الحفصي القسنطيني وأحمد بن قاسم العقباني وغيرهم. وهناك من التراجم من يكتفي فيها بذكر الاسم فقط دون أية معلومات أخرى، بل إنه في بعض الحالات يورد اسم المترجم له مجرًدا عن أية بيانات، ويتبعه بقصيدة يقول إنها من نظمه، وإنه لم يجد له من الآثار سوى هذه الأبيات.

ويكتفي في أحيان أخرى بإثبات قائمة طويلة لعلماء منطقة معينة دون شرح أو بيان، كما فعل مع أعيان مدينة الأغواط وأعيان منطقة غريس، ومع قائمة العلماء الجزائريين التي زوده بها الشيخ علي بن الحاج موسى قيّم الروضة الثعالبية، وهي تحتوي بالإضافة إلى أسماء بعض مشاهير العلماء طائفة من المفاتي الحنفية والمالكية الذين تولوا منصب الإفتاء بمدينة الجزائر[25]. ولعل في هذا التباين في أحجام التراجم، وفي اعتذار المؤلف عن قلّة المعلومات أو انعدامها، وفي إصراره على إثبات هذه الأسماء في متن الكتاب؛ ما يدل على الجهود الجبارة التي بذلها ليجمع شتات ما تفرق من أعلام الجزائر، ويدل عليهم ولو كان ذلك بذكر الاسم فقط حتى لا يضيع ذكر هذا العالم أو ذاك، فربما جاء بعده من هو أقدر على جمع المصادر التي لم يتمكن من العثور عليها فيُكمل ما نقص منها، وقد أشار إلى ذلك في مقدمته فقال: «لهذا السبب(أي ندرة المصادر) لم أقف على تراجم علماء أشاهر كالرماصي والأخضري وغيرهما، ولا يسعني تجاوزهم فأذكرهم بما أعلمه وإن قلّ، فعذراً يا أهل الإطلاع وطول الباع عذًرا لمن لم يساعده الحال على ذكر آباء، أحياء في الأوراق، أموات في الآفاق»[26].

● **ولائه المفرط للطرقية ومبادئها (تفكيًرا وكتابة)**:ومما نلاحظه على كتابه استعمال السجع المفرط مع بساطة في الأسلوب، ووضوح الأفكار وغزارة المعارف خصوصًا الأدبية وقوة الحجة؛ غير أن شواهده كثيرة وطويلة، كما أن ولائه المفرط للطرق الصوفية ومبادئها وشيوخها كان بارزاً في ثنايا كتابه وهو ما أفقد من حيث منهجية الكتابة والبحث روح النقد والاستنتاج[27]. فهو يغرق في ذكر الكرامات الخارقة التي تصل حد المعجزة من غير تمييز عقلي أو منطقي، بل أنك تجد كرامة واحدة تُنسب إلى كم من شيخ، ككرامة الحديث إلى الحيوانات التي نسبها في ذات المؤلّف إلى عدد من الشخصيات المترجمة من غير تمحيص، ومنها أيضًا حادثة معاقبة الشيخ لأحد الأسود فهذه لوحدها نسبها في كتابه إلى ثلاثة شيوخ مترجم لهم في الكتاب وصاغها بنفس الأسلوب واللغة تقريباً مع تغيير في اسم صاحب الكرامة، ومنها أيضًا حادثة السفر إلى مكة جواً عن طريق إحدى جناحي برنوس الشيخ الولّي، فهذه الأخرى نسبها إلى شيخين من المترجم لهم.

إذا التمسنا له العذر في عدم قدرته على التصرف في هذه النصوص بالحذف، فإنه كان بإمكانه أن يُعلّق في المتن أو يُنبه في الهامش إلى خطأ ما ذهب إليه القدماء من اعتقاد النفع والضر في الشيوخ، وما يترتب عن ذلك من فساد في العقيدة وإشراك بالله[28]. غير أن الذيهبدو لنا أن الحفناوي نفسه كان مصدقًا لكل ذلك، مؤمنًا به، وقلبه ينطوي على رهبة كبيرة من سطوة هؤلاء الأولياء ونفوذهم الروحي، ولديه اعتقاد جازم في أعماقه بقدرتهم على التصرف في الكائنات، وتعطيل النواميس الطبيعية وتجاوزها ويدل على ذلك ما دوَّنه حين زار مدينة بجاية وتحدَّث

بكثير من الإجلال عن وليّها الصالح أحمد بن معمر البجائي الذي يقول عنه: «من زار بجاية ولم يزره لم يذهب بشيء منها والعياذ بالله... فالحذر الحذر، والأدب الأدب»[29]، والأمر نفسه عن رجال النخلة المدفونين في مسجد الخمسين[30]، كما كان لا ينسى أن يعقب دائماً على كرامات الأولياء بقوله: «نفعنا الله بهم-آمين».

- **لغته وبيانه في الكتابة:**

إن كتاب «تعريف الخلف برجال السلف» يُعد من كنوز اللغة العربية في الجزائر. فعلاوة على ترجمة علماء أجلاّء وأولياء صالحين فضلاء، فقد عرض المؤلف عمل هؤلاء الأولياء والعلماء وذكر جهوده المضنية في الحفاظ على جماليات اللغة العربية، وهو بذلك حقَّق ثلاث غايات في غاية واحدة، كما أن هذا الكتاب يحمل في طياته أسماء وعناوين مئات الكتب والمصنفات في شتى أنواع العلوم الإنسانية والدينية وغيرها، ولم يقف المؤلف عند أسماء هذه الكتب بل غاص في ثنايا نصوصها، كما حافظ هذا الكتاب في مضمونه على لغتنا العربية، حيث حرص مؤلفه على إبراز التراكيب الجميلة والنادرة للغتنا العربية التي قلّما نجد لها نظيراً في اللغات الأخرى.

فأسلوب المؤلف في الكتابة سهل، واضح، صحيح التراكيب، لا يعمد فيه صاحبه إلى السجع إلا في حالات قليلة، مع اعتناء بانتقاء الألفاظ المناسبة، وعدم الإكثار من المقاطع المسجوعة إلا بقدر ما تتطلبه الحاجة، ويبدو ذلك بشكل جلي في مقدمة الكتاب، وفي بعض التعليقات التي يثبتها في ثنايا التراجم. أما ما يزخر به الكتاب من الأساليب القديمة التي تتخذ من السجع منوالاً للتعبير فإنها-في معظمها- اقتباسات ونقول حرفية عن المصادر التي اعتمد عليها كما أشرنا إلى ذلك سابقًا.

ومن حيث الخطابة والبيان فإن الحفناوي لم يُفارق مقومات الخطابة في تقديم الأعلام والمؤلفات «الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين وعلى آله وأصحابه والتابعين» وقد كان حبّه خالصًا لله تعالى وليس لمصلحة شخصية، أو ينتظر عطاءً أو جزاءً فنراه يقول: «الأحب في ذات الله تعالى»، وبدايات المؤلف وتقديمه لتراجمه تنّم عن أدب جّم ودراية كبيرة بمعجم الألفاظ وتكشف لنا مدى قدرة المؤلف على التنوع بتراكيب الجمل القصيرة والطويلة، وكيف يشتق من اللفظ الواحد أكثر من لفظ.

الاستشهادات:

- **القرآن الكريم:** الشيخ الحفناوي كثير الاستشهاد بآي القرآن الكريم ولا غرو فكلام الله تعالى في المرتبة العليا من حيث قوة الاحتجاج على صحة قول العربي، فلهذا جاء كتابه طافحًا بعدد كبير من الآيات القرآنية الكريمة التي قمنا في إطار التعليق والتحقيق بتخريجها، وقد بلغ مجموع الآيات المستشهد بها **59** آية كريمة (**القسم الأول:** 11 آية- **القسم الثاني:** 48 آية)
- **الحديث النبوي الشريف:** كما احتوى كتاب الحفناوي على مجموعة كبيرة من أحاديث رسول الله ρ، 32 حديثاً (**القسم الأول:** 10 أحاديث نبوية شريفة- **القسم الثاني:**22حديثاً نبوياً شريفاً).

▪ **الشعر العربي**: الشيخ الحفناوي كان في (تعريفه) كثير الاستشهاد بالشعر العربي وأفرد له صفحات طوال ضمن تراجمه، ومن كثرتها تحس وكأن كتابه عبارة عن ديوان شعر، بل حتى أن القصائد الشعرية كانت المنقذ له في عدد من التراجم التي شحَّت فيها المعلومات. ويمكن التنبيه إلى مسألة سلبية في هذا الباب وهي أن الشيخ الحفناوي في كثير من استشهاداته الشعرية كان لا يجتهد في نسبها إلى أصحابها وقائليها على الرغم من أن معظمهم ليس مجهولاً، وكان أقل استشهاداته الشعرية بيت أو بيتين وأكثرها بلغ (258 بيتاً شعرياً) عندما ترجم لمحمد بن خميس التلمساني[31]. ثم يليه ما ورد في ترجمة محمد بن علي آبهلول المجاجي(130 بيتاً)، ثم يليه ما ورد في ترجمة والده بن عروس (120 بيتاً)، ثم يليه ما ورد في ترجمة سيدي الغزالي (110 بيتاً) (**القسم الأول**:338 بيتاً شعرياً– **القسم الثاني**: 2159 بيتاً شعرياً).

▪ **الحكم والأمثال والأقوال السائرة**:إن موسوعية الشيخ الحفناوي سواءً في اللغة العربية أو التراث العربي القديم وحتى الموروث الشعبي الجزائري الأصيل، سمحت له بأن يمسك بزمام إيراد الحِكَم والأمثال والأقوال، وأن يسردها في أوانها مع اقتباس وجه الاعتبار منها، فالحفناوي كان حفَّاظًا لأقوال العلماء وآرائهم ومواقفهم وحتى نوادرهم وقصصهم وكراماتهم..لهذا نجد أن كتابه جاء يعُج عجاً بها، واستند إليها في تقوية أحكامه وتعضيد آرائه وإقناع مخالفيه، وهو في كل ذلك يستميت في نسبها إلى قائليها حتى يعطيها قوة الإقناع والبرهان.

7. نقد الكتاب:

كان الحفناوي كلما يُخاطَب "بصاحب كتاب تعريف الخلف" إلا ويرد على مخاطبيه "بل أنا جامعه"[32]، مما يدل أن الحفناوي لم يرد من كتابه هذا إلا تجميع ما خشي أن يزول ويندثر، والواقع أنه لم يكن يكتب تاريخه في تراجمه، حتى نحاكمه بقسوة على منهجه، كما فعل سعد الدين بن أبي شنب: «إن التاريخ علم لم يتقدم عنده، وإنه كان يسير على خطى مؤرخي العصور الوسطى»[33]. فإن كان بن أبي شنب يعني بذلك كتب التراجم فهو مصيب في دعواه، وإن كان يعني كتابة التاريخ فالأمر هنا مختلف، حقيقة إن الحفناوي قد ذكر الخرافات لبعض من ترجم لهم، وأكثر من الشعر أحياناً وتوقف عند نقد المصادر وعدم ترتيبها. ولكن لا حرج على الحفناوي أن يصبح كتابه كتاب أدب بدل أن يكون كتاب تاريخ لأن الترجمة كانت وما تزال تجمع بين الحقلين (الأدب والتاريخ) إضافة إلى علوم أخرى، وتعريف الخلف له ميزة بارزة انفرد بها، وهي أنه ظهر في وقت لم يتقدمه عمل آخر، ثم أنه ظل على أهميته إلى الآن، فإن المؤلفات التي ظهرت بعده كلها تقريباً تتخذه مرجعاً، ولعل ذلك راجع أيضًا إلى شموله لكافة العصور ونُقوله العديدة من مؤلفات ووثائق تعتبر الآن في حكم المفقودة.

كما أن لغة الكتاب جاءت سهلة فلا يجد قارئه عناءً في الوصول إلى المعنى المراد، وتداخل المعلومات أحياناً ووجود الخرافة في الكتاب يشفع له ما يقدمه من مادة ذات قيمة كبيرة، ورغم أن النية – نية الإدارة الفرنسية– كانت عندئذ هي المحافظة على طابع الجزائر الإسلامية– الفرنسية فإن النتيجة كانت عكس ما توقعوه. فقد بعث تعريف الخلف في النفوس الحميّة الوطنية، والغيرة على التراث، والاعتزاز بالآباء والأجداد، ويمكن اعتبار ظهوره

صفحة جديدة في اليقظة والشعور بالذات السياسية، سيّما في الوقت الذي كانت فيه مدرسة النخبة المتفرنسة تدعو إلى الاندماج الكلي في فرنسا، والتخلص من كل روابط الماضي.

- **توظيفه لعبارات التهليل والسجع**: من مثل: «أدام الله بهجتك، وحرس من كل مكروه مهجتك»، «العلامة المحقق الحافظ، والبحر الجامع المتدفّق اللافظ»، «له بركات ظاهرة وأموال باهرة، وأسرار مشتهرة...» وهي كثيرة، وهذا يدل على الرصيد المعرفي واللغوي الذي يحمله فكر الحفناوي من مسايرة الوضع اللغوي الذي كان سائدًا في عصره؛ حيث يطغى أسلوب التهليل والسجع خاصة في الافتتاحيات أو في المقدمات أو في المراثي والمدائح. ومحصلة القول: إن أسلوب الحفناوي كان ينطلق بلغة العصر، وهذا بعدما تمثّلها وصّورها ونقلها في أمثلتها الواقعية، وكأنك تقرأ أساليب أو مصطلحات القرن التاسع عشر، ويتمثل ذلك في توظيفه عبارات: نزيل وهران، دفين تلمسان، خاتمة الصالحين، والفرنسوية، دفين نفطة، العلامة الفهامة الولي الهمام... [34].

- **استعماله ا.هـ في نهاية القول المقتبس**: وهذا يعني أن النص المعتمد عليه لم يتجاوز هذا النقل، فأبى أن يتصرف بالزيادة أو بالنقص، ويدخل هذا العمل في الأمانة العلمية التي نوصي بها طلابنا في الاقتباس الحرفي الذي لا يجب أن يخضع للتصّرف مهما خالف رأي الباحث. ومن ثم يجوز للباحث أن ينتقد النص المقتبس أو يصحح ما يراه خاطئًا أو زائدًا بوضعه بين معكوفتين[ ].

- **منهجه البيبليوغرافي**: إن هذا العمل يدخل في ميدان السيرة Biographie وليس السيرة الذاتية Autobiographie فهو لم يتكلم عن حياته أبدًا إلا في إشارات هامشية مباشرة، أو باستنتاجها من محتوى يتحدث فيه عن بعض أفراد عائلته، أو أهل بلدته، أو بعض أصدقائه...، كما يختلف عن المذكرات أو اليوميات، رغم أنه تحّدث عن حياة بعض أفراد أسرته، وغرضه في ذلك إحياء سيرة شخصيات قريته؛ وبالخصوص أهله الذين قدّموا خدمات معتبرة للعلم، وبهذا العمل نرى الحفناوي يكتب في الجنس الأدبي لقصّ ترجمات الأشخاص، يسمى فن السير، أو فن ترجمة السير[35]، وتتعلق مراجع هذه الأعمال بالعودة إلى المصادر والدلائل مكتوبة كانت أو شفاهية أم مصّورة، أو اعتمادًا على الذاكرة.

إن طريقة الحفناوي في الترجمة كانت تشبه إلى حد بعيد بعد حذف السند عنها طريقة الأقدمين، فهي عبارة عن سرد مع وصف لحياة المترجم له، يعمد فيها كثيرًا إلى السجع الممل أحيانًا، مما يجعل طريقته بعيدة عن المنهج العلمي في البحث والدراسة فهو يقتبس الأخبار من كتب سابقيه تارة بالنقل الحرفي من دون أي تصرف أو تعديل، وتارة أخرى بتصرف طفيف كالاختصار وهي حالة قليلة الحدوث فنجد عبارة ملخصًا من [الورتيلاني أو المشرفي أو الجبرتي] خصوصًا في القسم الثاني[36]، وكم هي الحالات كثيرة التي يورد فيها أخبارًا ومعلوماتاً تتناقض مع العقل والمنطق أو يسرد أحداثًا لا توافقها الحقيقة التاريخية. ورغم ذلك لا يتدخل فيها سواء بالتنبيه لها أو التحفظ منها وتعديلها. ويحدث أن تكون الرواية نفسها لفظًا ومعنى، مما يجعل القارئ يحس أن الحفناوي يكّدس فقط من دون تمحيص أو مراجعة.

ومما يؤاخذ عليه منهجيـًا بالإضافة إلى ما سبق هو أنه كان في الأغلب لا ينتقد ولا يُعلق على الأخبار التي يأتي بها، وإن كانت تتضمن في ثناياها حتى شركًا وكفرًا بالله، كتلك الشهادات التي يصف بها المريدون مقدميهم المترجم لهم. فقد نعتوهم بالعصمة والشفاعة وغيرها من صفات الأنبياء والملائكة فقط، وحتى وإن صدقنا حكم الأستاذ أبو القاسم سعد الله فيه بأن الحفناوي ككايفعل ذلك تقية لا قناعة بها، فإنه منهجيـًا لا يمكن تقبُّل مثل هذه الخزعبلات بالعقل والمنطق قبل الشرع والعقيدة، ومن المعجزات التي نسبها أو أكد بروايته لها نسبتها إلى المترجم له، هو أن العالم سيدي يحي العبدلي دفين بجاية استطاع أن يُحّي ثوراً بعد أن كان قطعـًا متناثرة من العظام، وبهذا يمكن القول بأن الأسطورة لم تجد لديه أي نقد يذكر[37].

كما يؤاخذ عليه أيضًا الذكر المبالغ فيه للأشعار في كثير من التراجم خصوصاً إذا كانت لا تخدم الغرض المقصود منها فأحياناً يحس القارئ وكأن الحفناوي يدس قصائده التي يحفظها حشواً أو استعراضًا ولاسيما تلك التي قيلت في المناسبات العامة ويتكرر ذلك خصوصًا في القسم الثاني من الكتاب، فتجده يسرد كل ما جُمع بين يديه واستدركته حافظته الشعرية، وهو ما جعل أحد المهتمين به يقول: «إن كثرة ذكره لها تكاد تجعل من هذا الكتاب التاريخي موسوعة أدبية وشعرية».

ومن عيوب هذا العمل المنجز هو التكرار وإيراد ذات الرواية في كم من موضع، بل حتى ذكر ترجمة واحدة لشخصيتين مثلما ورد في القسم الثاني من الكتاب عند ترجمة محمد بن محمد التنبكتي[38]، وكذا الشيخ محمد بن محمد التنبكتي الآخر[39]، ومحمد بن محمود الوانوغي[40]، والعجيب أن ترجمتهما تّم اقتباسها من مصدر واحد وهو «كفاية المحتاج لمعرفة ما ليس في الديباج» لأحمد بابا التنبكتي، كما ورد في عدد كبير من التراجم تكرار متعمد لعدة قصص وطرف وقصائد شعرية أو روايات من الأثر.. وقد نجد لذلك مبرًرا للشيخ الحفناوي، فربما كثرة انشغالاته (التحرير الصحفي والتدريس والتأليف والترجمة..) أو ابتعاده عن تدوين كتابه فترة طويلة جعله يفقد التركيز وبالتالي يُكرر المعلومات السابقة مع سهو في نسبة مصدر هذه الروايات إلى أصحابها، كما يُعاب عليه أيضًا استناده إلى أحاديث ضعيفة السند ولم يُكلف نفسه حتى من التثبت من بعضها هل هي أحاديث نبوية شريف أم قول مأثور مثل قوله: أن رسول الله ρ قال: «إذا رأى العالم منكراً ولم يغيّر فعليه لعنة الله»[41]، وهو قول لم أجد له أي سند في كل كتب الصحاح أو عند رواة الحديث.

كما يتميز كتابه بكثرة الاستطراد والإسهاب في نقل المعلومات المتوفرة عن شخصية ما حتى تخرج عن الغاية، ويذهب المؤلف إلى التفصيل في أحداث ومواضيع لا علاقة لها بحياة المترجم له، وقد ينقل من مصدرين مختلفين معلومات متشابهة بحيث نجد المادة نفسها مكررة غير أنها مأخوذة من مراجع متنوعة، وفي هذا الإطار تأتي القصائد الكثيرة والطويلةالأوردها المؤلف في كتابه، والتي كثيرًا ما تكون بعيدة الصلة عن موضوع الترجمة، وتُعد ظاهرة بارزة لدى الكتاب مثل قصائد الغزل التي نقلها لمحمد بن أحمد الجزائري[42]، وسبع قصائد كاملة لابن خميس أقلها تبلغ أبياتها 12بيتـًا، وأطولها تجاوزت تسعة وسبعين بيتاً[43]، وقصيدة لسعيد قدورة في رثاء شيخه محمد بن علي أبهلول

المجاجي بلغت أربعة وخمسين بيتاً، أتبعها بقصيدة أخرى في الزهد لمحمد بن علي المجاجي ابن المترجم له بلغت اثنين وثلاثين بيتاً[44].

ومن مظاهر هذا الاستطراد أنه كان يفرد لها حيزاً معتبراً داخل الترجمة، وفي كثير من الأحيان يكون محتوى هذا الحيّز لا علاقة له بالشخص المترَجم له، وفي كل مرة يُطلق عليها تسمية معينة على شاكلة (فائدة، طرفة، انعطاف، تنبيه، لطيفة). كما تضمَّن كتابه عبارات مكررة في طول الكتاب بجزئيه، شكّلت لازمة أكيدة في نهاية كل ترجمة أو فقرة على منوال (ولولا الإطالة لذكرت).

ومن عيوب هذا العمل أيضاً عدم التثبت من معلوماته التاريخية حتى وإن تناقضت مع معلومات أخرى كان قد سردها في ترجمة أخرى.. فقد ذكر في القسم الثاني من كتابه أن محمد بن علي أبهلول قد توفي سنة 1002هـ[45]. وهو في نظرنا خطأ على حسب ما تم ذكره في عدد من المصادر الموثوقة كـ«كعبة الطائفين» لابن سليمان[46] وكثيراً ما كان الحفناوي يُخصص صفحات عديدة لفقيه أو أديب ترجم له، وفي نفس الوقت نراه يُفرد سطًرا أو سطرين لمترجم يليه، وإذا أخذنا من باب التبرير له يمكن القول:أن ذلك ربما يعود إلى أهمية الشخصية التي يُترجم لها في نظره، أو لغزارة المعلومات التي وجدها عنه، مما يجعلنا في النهاية نخمن أن الحفناوي في أسفاره لم يكن يملك قائمة اسمية منفردة لكل من يريد الترجمة له، والأمر نفسه فيما يتعلق بمراسلاته ومقابلاته، بل أنه قام بتجميع الكتب والمؤلفات والتراجم أولاً ثم انعزل فيكتابتها رغم أن المنهج البحثي في العلوم الإنسانية يُقر غير ذلك، أو يمكن القول أن الحفناوي كان في عجلة من أمره في استصدار القسم الثاني لأن هذا التفاوت لم نلحظه بشكل كبير إلا في القسم الثاني، خصوصًا إذا علمنا أنه في نفس الوقت الذي انشغل فيه بتحرير هذا الجزء كان يعيش انشغالات أخرى شكّلت مرحلة الأوج في حياته العلمية والتأليفية، حيث أصدر اشتراكًا خلال تلك الفترة بالذات مع جان ميرانت الترجمة العربية لكتاب الطبيب العسكري "دركل" «الخبر المنتشر»يُضاف إليها مهامه الأخرى في جريدة "المبشر" والمدرسة الشرعية والجامع الكبير.

إن الكتاب دراسة وصفية تاريخية صادقة دالة على رسوخ علم الحفناوي واتساع نبوغه، فقد كان ثقة مأموناً على ما قيّد وروى، ونَقل وضَبط، فهو عمل موسوعي متخصص يُعدّ من أمهات المصادر التي يحتفي بها تراثنا، إلا أنه لا نعدم عمله النقصان ولذا نجد غياب صفة الخيال الأدبي، على أن أمثال هذه الأعمال لا تخرج من ظاهرة الأدب، فتراجم السيّر أو السيرة الذاتية بصفة عامة تقرب إلى الخيال وإلى الرواية؛ حيث لم نَر الترجمة تتحرك وفق أبعاد فوتوغرافية، بل نقرأ أحاديث المقّربين أو الأصحاب في صور لها البعد السطحي المعروف الذي يفهمه العام والخاص، فغاب الرمز والتواصل الجمالي وهذا الناقص في هذا العمل، ووفق الذي قلته أرى العمل بنية مغلقة في اتجاه سرد حدث، فهو لا يمتد في المستقبل، ويمكن أن يعد البعض هذا العمل مدّونة تاريخية لا غير[47].

لقد خاض الشيخ الحفناوي في صناعة غير متقدمة في عصره، لكنه حاول أن يقلّد السلف من أمثال: بن هشام، بن خلكان، المقّري،..وغيرهم من جمّاع السير، فكان في كثير من الأحيان مصوًرا لا مجدًدا، تابعاً لا

مبدعاً، فعمله الجيد كان يمكن أن يوضع في إطار عصره، بحرفية جديدة تبعده عن التقليد، وذلك من خلال النقد لمساوئ القول ومحاسنه، ووضع القاموس على شكل معجم تعريفي للأعلام يدخل به صناعة المعاجم Lexicographie حيث كان البحث المعجمي متطوّرا بعض الشيء، ومع قلّة الزاد نعذر الشيخ، فيكفيه أنه قدّم عملاً تأسيسياً رغم ما يشوبه من نقائص يمكن استدراكها من قبل الباحثين المعاصرين وكذلك نجد في كل علم ما هو متقدم أو ضعيف أو قوي...

ونجد عدم التمييز الدقيق بين Biographie والسيرة الذاتية Autobiographie وبين كتابة المذكراتMémoires واليوميات Journals ، ويفترض أن تظهر العلاقات القائمة بينهما، والفروق التي تفصلها، ومن ذلك أن يكون هناك انتقاء للأحداث، ويتعامل مع السير Biographie التي تعبّر عن مجتمع متحرك، فيحاول البحث عن هوية داخلية للمجتمع، يؤطرها الجانب الإنساني، رغم ما يمكن أن نقّر به بأن السيرة أحياناًتتداخل مع التاريخ، ولكن التاريخ يتميّز بأنه يتكلم عن مؤسسات وحضارات ومجتمعات، فالأنا لا تمثل إلا نقطة صغيرة في البحر الكبير.

وفي الختام يمكن القول أن منهج الحفناوي في تأليف الكتاب ارتكز على جملة أساسيات هي:

●غياب النقد والتحليل، فكأنك تقرأ مرويات واقعية دون إضافة وتحليل، ومن صفات أدب السير أن يتعرض ناقلها لبعض النقد بعد الوصف، وأن يكون سرده ميالاً إلى التشويق.

●غياب المنهج العلمي الصارم الذي يتطلب التهميش والتثبّت والإسناد، وهذا ما لم يظهر خاصة في القسم الثاني، على اعتبار أن القسم الأول وثّقه جيّدًا.

●العفوية في بعض النقول، والانطباع الذاتي والسرد السطحي للأحداث وفق مرويات شعبية، في غياب الدليل الملموس للذين نَقل عنهم، وعدم العمل بقضية كان القدامى يستعملونها وهي: مسألة الجرح والتعديل في شروط الراوي، لأن بعض الأحداث هي أقوال شعبية يراد بها الطعن، فنقلها الشيخ دون التحرّج منها.

●اعتمد الحفناوي طوال تراجمه على خطة منهجية واحدة، تبدأ بذكر المولد وتاريخه ثم الوفاة، ثم ذكر نشأته العلمية المؤلفات وسمعة المترَجم له أو وظائفه، ثم قراءاته وشيوخه، ثم مذهبه وعاداته وبعض أخباره ثم يختمها بأهم ما قيل فيه طال أم قُصر.

●ومما يلاحظ في كتابه هذا هو أن الحفناوي حاول جاهداً أن لا يتورط في القضايا السياسية والدينية المتعارضة مع توجهات النظام الاستعماري القائم حينها، والراجح أن ذلك كان بتوجيهات دقيقة وصارمة من الإدارة الفرنسية، وأقرب ممثل لها يعلم بأمر هذا الكتاب كان هو شيخه "آرنو". فهذه التوجيهات –إن صحت هذه الرواية–فرضت أسماء معينة دون غيرها حتى تتم لهم الترجمة، جعلت الحفناوي يُهمل بعض الشخصيات العلمية والسياسية المهمة في تاريخ الجزائر الحديثة، وحتى وإن حاول الحفناوي ذكر بعضها فإنه تحاشى ذكر ما كان بينها وبين الإدارة الاستعمارية، ورد فعل هذه الأخيرة عليه، وراح يذكر جوانب أخرى في حياة المترجم له، متجاوزًا

الحديث عن مصطلحات الثورة والمقاومة كما حدث في ترجمته للأمير عبد القادر. أين كانت تراجمه في الأغلب قصيرة.

●أن الحفناوي كان يمتلك ثروة مصدرية هائلة توفرت له قبل تأليف الكتاب، لكن عدم امتلاكه لمنهج علمي محدد في البحث والتركيب أحال كتابه إلى هذه الصورة من العيوب المنهجية. أما من حيث اللغة المدونة.. فنجد أن الحفناوي وبالنظر إلى رصيده اللغوي الضخم وجد فرصته في هذا الكتاب، فراح يستعرض هذا الرصيد. وبصرف النظر عن الفائدة اللغوية الكبيرة التي أتاحها لأهل اللغة والنحو، فإنه من الناحية المنهجية أحال الكتاب إلى جملة من الاستطرادات والمبالغات سواء في الوصف أو التقريظ.

●إن الحفناوي لم يذكر الترجمة مجردة عن أحداث عصرها، ذلك أننا نستطيع أن نعثر في تراجمه على مجموعة من الأخبار التاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية المتعلقة بالجزائر (المغرب الأوسط) بصفة عامة وبعض المدن والبلدات التي وُلد أو نشأ أو تعلم فيها المُتَرجم لهم، ناهيك عن أنه يُعطيك صورة مكبرة عن الحالة التعليمية والإصدارات التأليفية والمعاهد والزوايا التعليمية الظروف الدينية والروحية...كما أن النماذج الشعرية والنثرية التي وظفها الحفناوي في كتابه تعتبر ثروة لغوية ونحوية وبلاغية ليست بالهيّنة، حافظ عليها ومنع عنها الاندثار والزوال.

● إن الحفناوي بكتابه أعطى الصورة الجلية للحياة العقلية للجزائر عبر عصور مترامية.

وفي الأخير يمكن القول أن الحفناوي حاول قدر المستطاع رغم كل ارتباطاته العلمية والمهنية أن يُخرج عملاً ضخمًا وأن يأتي على أغلب رجال السلف في الجزائر، لكن العوامل نفسها مع ضيق وقته أصلاً جعلت هذا العمل يغرق في أخطاء منهجية وتقنية عديدة.

الهوامش:

1. وثيقة حصلنا عليها من الأستاذ المدني بن عبد الرحمان.
2. الحفناوي (أبو القاسم)، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، مطبعة بيير فونتانة، الجزائر، 1908م، ص8.
3. زرمان (محمد)، أبو القاسم الحفناوي وكتابه: تعريف الخلف برجال السلف، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع28، ملحق ديسمبر 2001م، عمادة البحث العلمي- الجامعة الأردنية، الأردن، 1997م.«رسالة خاصة وليس من المجلة الأصل»..
4. سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، دار البصائر، الجزائر، 2009م ص 580.
5. Dépond et coppolani :les confréries religieuses musulmanes, Jourdan 1893 ; p27
6. سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي،ج7، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2007م ، ص432.
7. الحفناوي، المصدر السابق، ج1، ص6.
8. نفسه، ج1، ص6.

9. الجيلالي (عبد الرحمن) ، تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م ، ج4، ص427.

10. سعد الله (أبو القاسم)، بحوث في تاريخ العربي الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003 م ، ص 77.

11. سعد الدين بن أبي شنب، النهضة العربية بالجزائر في نصف الأول من القرن 14هـ"، مجلة كلية الآداب، ع1، الجزائر: 1964،، ص49.

12. بقطاش خديجة،"أبو القاسم الحفناوي وكتابه تعريف الخلف برجال السلف"، الأصالة، س6، ع51، الجزائر: نوفمبر 1977، ص55.

13. بن قينة(عمر)، صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر: 1993م ، ص 130.

14. بن أبي شنب،" النهضة"، ص. ص(49-50).

15. التنبكتي، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ط1، 1989، ص20.

16. الغبريني، عنوان الدراية، تح. عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط2، 1979، ص8.

17. للتوسع في بقية مصادر الحفناوي في تأليف كتابه راجع:-تحقيقنا للكتاب: الصادر عن دار كردادة، الجزائر، 2011م.

18. الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص 582.

19. نفسه، ج2، ص 568

20. نفسه.

21. نفسه، ج1، ص6.

22. الحفناوي، المصدر السابق، ج1، ص 201.

23. نفسه، ج1، ص 153.

24. ابن أبي شنب(سعد الدين)، "نبذة عن بعض المؤرخين العرب المحدثين للجزائر"، المجلة الإفريقية، 1956، ص 478.

25. الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص ص(476-477).

26. نفسه، ج1، ص 9.

27. الجيلالي، المصدر السابق، ج4، ص 432.

28. زرمان، المرجع السابق.

29. الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص 83.
30. نفسه، ص 84.
31. الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص.ص(366-387).
32. المدني (أحمد توفيق)، حياة كفاح (مذكرات)،ج2، (1905–1925)، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1976م ص 76.
33. ابن أبي شنب، "النهضة"، ص51.
34. نفسه.
35. جبور عبد النور، المعجم الأدبي، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، 1984، ص 134.
36. ابن أبي شنب، النهضة، ص 49.
37. بن أبي شنب، "النهضة"، ص. ص(478-479). الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص589.
38. نفسه، ج2، ص 508.
39. نفسه، ج2، ص 510.
40. نفسه، ج2، ص 512.
41. نفسه، ج2، ص 79.
42. نفسه، ج2، ص 357.
43. نفسه، ج2، ص. ص (379-383).
44. نفسه، ج2، ص. ص(442- 448).
45. نفسه ، ج2، ص 432. راجع أيضا: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 359. نويهض (عادل): معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980م ، ص286.
46. نفسه، ج2، ص 111.
47. بلعيد (صالح)، الشيخ الحفناوي وكتابه، ندوة وطنية حول الشيخ الحفناوي، الديس: 2006/07/4.

مظاهرات 11 مارس ومجزرة 13 مارس 1962 بالمنقّر– الطيبات من خلال شهادات صانعيها.

أ. جمال البوص. قسم التاريخ. جامعة محمد. بوضياف بالمسيلة

تمهيد:

تعتبر المظاهرات الشعبية أحد أهم الوسائل الثورية التي جابهت بها الثورة الجزائرية سياسة و مخططات الجنرال شارل ديغول. واستطاعت الثورة بهذا الأسلوب النضالي إفشال مشروعه لفصل الصحراء عن الوطن الجزائري وكان لسكانها موقف مشرف في التمسك بالوحدة الترابية للجزائر رغم الإغراءات الفرنسية وضمن هذا الإطار تندرج مظاهرات الصحراء الجزائرية خاصة مظاهرتي 27 فيفري 1962 و13 مارس 1962 بورقلة والطيبات التي قابلها المستعمر بوحشية منقطعة النظير.

الأهمية الإستراتيجية للصحراء الجزائرية لدى الاستعمار الفرنسي:

عرف صاحب تاج العروس الصحراء وصاحب لسان العرب الصحراء بأنها "الأرض المستوية في لين و غلظ دون القف" أو الفضاء الواسع الذي لا نبات فيه "مثل ظَهْرِ الدّابَّةِ الأَجْلَدِ لَيْسَ بِهَا شَجَرٌ وَلَا إِكَامٌ وَلَا جِبَالٌ، مَلْسَاءُ

«[1] والصحراء بيئة متنوعة سواء من حيث تشكيلها الجيولوجي والتضاريسي أو من حيث تنوعها النباتي والحيواني يتميز مناخها بالحدة و القساوة فهو شديد البرودة شتاءا وشديد الحرارة صيفا مما انعكس كل هذا التنوع والتباين على الجانب البشري والذي هو بدوره مزيج من العناصر البشرية كالعرب والبربر التي امتزجت ثقافيا بفعل العامل الديني والتاريخي.

بدأ الاهتمام الأوروبي بالصحراء عموما منذ محاولة اكتشاف أغوارها من خلال رحلات المغامرين الأوروبيين ثم البعثات الاستكشافية للعسكرية الفرنسية أبرزها بعثة الكولونيل فلاتر1859[2] وكان الهدف من وراء تزايد الاهتمام الفرنسي بهذه البعثات هو التعرف على طبيعة الصحراء ونمط معيشة وثقافة سكانها تمهيدا للسيطرة عليهم وبسط نفوذها الاستعماري في أفريقيا[3].

يتمتع به هذا الإقليم الشاسع والذي يشكل 80% من مساحة الجزائر بمؤهلات اقتصادية متنوعة وضخمة يأتي على رأسها المياه والتمورو الثروات المعدنية و الطاقوية الهائلة التي بدأ التنقيب عنها منذ 1941 وازدادت أهمية الصحراء بعد اكتشاف المستعمر آبار النفط في منطقة حاسي مسعود سنة 1959م حيث كانت الشركات الفرنسية تستخرج منه 04 مليون طن من البترول[4] الرمل كما تزخر الصحراء خصوصا الجنوب الشرقي منها بكميات هائلة من المياه الجوفية يمكن أن تروي 30 ألف هكتار وتمكن من زراعة 3.6 مليون نخلة [5] وازداد اهتمام الفرنسي بالصحراء بعد وصول شارل ديغول إلى السلطة الذي أراد الاحتفاظ بها لتعوض خسائر الاقتصاد الفرنسي المنهار قوة الثورة الجزائرية[6] .

كانت وادي سوف تنتظر المساهمة في تفجير الثورة ليلة الفاتح من نوفمبر على أتم استعدادا لهذا الواجب الوطني المقدس لكن العقيد مصطفى بن بولعيد ألغى عملية وادي سوف حتى لا ينكشف أمر قافلة محملة بالسلاح قادمة

---

[1] مرتضى الزَّبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس مجموعة من المحققين دار الهداية ج 12 ص 286

ابن منظور : لسان العرب، دار صادر، بيروت 1993 ج 4 ص 443

[2] إسملعيل العربي: الثحراء الكبرى وشواطئها منشورات المرسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1983 ص

[3] إبراهيم سعيود:قراءة في كتاب الصحراء الكبرى وشواطئها للكاتب والمؤرخ إسماعيل العربي، مجلة الواحات للبحوث والدراسات العدد 15 لسنة 2011 ص 74

[4] ريموند فيرون :صحراء الجزائر الكبرى دار المنشورات القومية مصر 1966 ص 85 و فيلم وثائقي من الأرشيف الفرنسي يوثق لزيارة ديغول إلى حاسي مسعود سنة 1960 تحدث فيه المعلق التلفزيوني عن كمية البترول المستخرجة من حقول حاسي مسعود ملحق مع هذه المداخلة

[5] جريدة المجاهد الصادرة يوم 1992/04/10

[6] الهادي احمد درواز : المنظومة اللوجستية بالولاية السادسة التاريخية دار هومة الجزائر 2012 ص ص 125-126

من الحدود الشرقية[1] ومع ذلك فقد ساهمت الصحراء الجزائرية في تمويل الثورة عند انطلاقتها بمبلغ عشرة مليون فرنك فرنسي سنة 1956 [2]

التعريف بمنطقة الطيبات وظروف انخراطها في الثورة التحريرية:

منطقة صحراوية تحيط بها الكثبان الرملية من كل الجهات وتنتشر بها الواحات تقع بين منطقتي وادي ريغ ووادي سوف يعبرها الطريق الوطني رقم 16 حيث تنتشر معظم قراها بمحاذاة هذا الطريق تتشكل من ثلاث بلديات بلديتان نشأتا بموجب التقسيم الإداري الوطني لسنة 1984هما بلدية المنقر وبلدية بن ناصر أما بلدية الطيبات الأم فقد نشأت بموجب التقسيم الإداري لسنة 1974وكانت تتبع ولاية الواحات ثم ولاية ورقلة فيما بعد وكان المجاهد أحمد بن محمد السائح أول رئيس بلدية لها .

تتربع منطقة الطيبات على مساحة تقدر بـ15.554 كلم^2 وقدر تعداد سكانها حاليا بـ 44683 ساكن حسب إحصاء سنة 2008 تأسست مدينة الطيبات بعد القرن 17 ميلادي على يد كل من الولي الصالح سيدي محمد بن السايح بن محمد السائح وصديقه بن أعبيد بعد أن اشتكى الولي الصالح لصديقه مضايقة بني جلاب حكام تقرت له في منطقة خضرة بين جامعة و ومرارة فاقترح عليه بن أعبيد تحويل إقامته إلى هذه المنطقة قائلاَ له " هلم بنا إلى منطقة أعرفها فيها العشب والغزال وأبيرات طيبات" ومنها اشتق اسم الطيبات لعذوبة[3] مائها حسب الروايات الشعبية وكانت منطقة قفارا خالية من السكان وقد ورد في التراث الشعبي انه قال أبيات شعرية شعبية عند تأسيسها:

يارب يا العالم يا الخبير يالي لا تخفاك خوافي
أجعل اولادها مطامير خوابي للضعافي
أجعل أولادها معامير يشربوا من الماء الصافي
والظالم من للغير لا تسكنوا في كنافي
طيروا كيما طار الطير ولوكانوا عرف من أعرافي

---

[1] نفسه ص 101

[2] شلي أمال: التنظيم العسكري في الثورة التحريرية الجزائرية رسالة ماجستير نوقشت في قسم التاريخ جامعة العقيد الحاج لخضر باتنة السنة الجامعية 2006/2005 ص 349

[3] عبد القادر موهوبي السائحي: ومضات تاريخية واجتماعية لمدن وادريغ وميزاب وورقلة والطيبات والعلية والحجيرة دار البصائر الجزائر 2013 ص ص 90-95 نشير إلى أن هذا الكتاب يندرج ضمن الكتابات الهاوية وهي مهمة بالنسبة للمؤرخ عندما تنعدم المصادر

وقد مر العياشي في رحلته إلى الحج في القرن الحادي عشر هجري السابع عشر ميلادي من ورقلة نحو وادي سوف مرورا بوادي ريغ وحتما كان سيمر بالمنطقة لكنه لم يذكرها في رحلته المعروفة بماء الموائد أو الرحلة العياشية[1] أما صاحب الصروف في تاريخ الصحراء وسوف لم يذكر اسم الطيبات إلا عند تطرقه لثورة الشريف بوشوشة الذي عبر المنطقة إلى وادي سوف سنة 1871 م قادما من ورقلة ولم يذكر صاحب الصروف أية معلومة تخص الطيبات[2]

من خلال شهادة العلمي صحراوي المدعو بن عويطة[3] كانت منطقة الطيبات إبان العهد الاستعماري تتبع إداريا و عسكريا منطقة تقرت وقد أقامت فيها سلطات الاستعمار مركز لصاص كان وقت المظاهرة تحت قيادة الملازم جان وكان هذا المكتب بتبع قوة C.S.P.O.R أي الكتيبة الصحراوية لوادي ريغ وحسب شهادة الفدائي علي بن أحمد دحدي المدعو علي البكوش[4] كانت الطيبات تتبع القسمة 80 والتي تظم المنطقة الممتدة من المغير إلى تقرت وكان يشرف عليها الشهيد احمد بن شعبان حتى أواخر 1959 ثم خلفه الشهيد نصرات حشاني حتى استشهاده سنة 1961 ثم تولى قيادتها الشهيد قتال عبد الرحمان بن محمد من منطقة المسيلة حتى خريف سنة 1961 ثم خلفه المجاهد المرحوم حامدي عثمان المدعو عثمان الشراك من منطقة أولاد جلال بسكرة الذي قاد المنظمة السياسية في منطقة وادي ريغ حتى الاستقلال وتجمع كل شهادات المجاهدين والمواطنين أن المسؤول السياسي لمنطقة هو المجاهد بالطاهر أحمد بن محمد السايح أما المسؤول العسكري للمنطقة فهو المجاهد دحدي علي المدعو علي البكوش أما جهة النقر فكانت تحت مسؤولية المجاهد أشتيوي محمد المدعو الضابط .

تهيكل سكان الطيبات في الثورة منذ بداية 1959 عن طريق المجاهد أحمد بن محمد السايح الذي احتك مع الثوار في الصحراء عندما كان يبحث عن جمل ضائع له حيث وجد مجموعة من الثوار يلقون القبض على مجموعة من القومية فأقنعهم بضرورة العفو عنهم فوافقوا ومنذ ذلك الحين أصبح في اتصال مباشر معهم حتى انخرط في الثورة مع

---

[1] عبد الله بن محمد العياشي:الرحلة العياشية تح د سعيد الفاضلي ود سليمان القرشي دار السويدي أبو ضبي 2006 ص ص 123-120

عبد الله بن محمد بن أبي بكر بين يوسف بن موسى العياشي المعروف بأبي سالم العياشي ولد بسجلماسه بالمغرب الأقصى يوم 29 شعبان 1037 هـ الموافق لـ 4 ماي 1628 م قام برحلة حج برا من سجلماسه إلى مكة المكرمة ذهابا وإيابا عابرا صحراء الجزائر توفي يوم 18ذو القعدة1090 هـ 1679 م أنظر الرحلة العياشية ص 29

[2] إبراهيم العوامر:الصروف في تاريخ الصحراء وسوف منشورات دار ثالة الجزائر 2007 ص 318

[3] مقابلة أجريت معه بصفته مواطن شاهد عيان متعاطف مع الثورة بمنزله يوم 1 نوفمبر 2009 بالنقر دائرة الطيبات

صحراوي العلمي بن سليمان ولد بالطيبات خلال 1920 توفي سنة 2011

[4] مقابلة أجريت مع المجاهد في بيته بحي سكرة بلدية بن ناصر دائرة الطيبات يوم 06 أفريل 2014

دحدي علي بن أحمد المدعو البكوش من مواليد الطيبات خلال 1929 إنخرط في الثورة التحريرية خريف سنة 1959 تدرج في الرتب الثورية حتى أصبح قبيل الاستقلال فدائي مسؤول فوج مازال على قيد الحياة

الشهيد علي بن النوي والمجاهد صندالي محمد من عرش المحاميد وهم فرع من قبيلة أولاد السائح حسب شهادة المجاهد أجديع اجديع[1]

الإطار التاريخي لمظاهرات 13 مارس 1962 بالمنقر.

تندرج هذه المظاهرات الشعبية حسب ما أجمعت عليه شهادات صانعي الحدث ضمن سلسلت الردود الشعبية على مشروع تقسيم الجزائر الذي طرحه شارل ديغول في مفاوضات إفيان الأولى حيث طرحت فكرة منح حكم ذاتي لشمال الجزائر وإبقاء الجنوب تحت السيادة الفرنسية عاملين في ذات الوقت على كسب ود السكان المحليين مستغلين نفوذ المشايخ والأعيان ورؤساء القبائل الصحراوية مثل مشروع حمزة بن بوبكر نائب عمالة الواحات لإقامة الجمهورية الصحراوية التي تظم الواحات والساورة ولهذا الفرض عقد بن بوبكر ثلاثة اجتماعات في كل من الأغواط و الجزائر وورقلة لترغيب السكان بدعم المشروع ولما أفشلت الثورة مشروع الجمهورية الصحراوية عملت سلطات الاحتلال الفرنسي على ترهيب السكان من خلال رفع الضرائب والتضييق على التجار خاصة بعد فشل ميشال دوبري في إستمالة شيخ عقال التوارق الحاج أخموخ سنو 1960[2]

ولما فشل هذا الطرح الفرنسي بعد مظاهرات 11 ديسمبر 1961 جاء ديغول بطرح تقسيمي جديد يقوم على اعتبار الصحراء الجزائرية بحر تتقاسم السيادة عليه كل الدول المطلة عليه وتتشارك في استغلال ثرواته ورد المفاوض الجزائري كريم بلقاسم على هذا الطرح قائلا : " لقد تعلمنا في مادة الجغرافيا في مدارسكم أن اللون الأصفر يشير إلى اليابس فكيف أصبح يشير إلى البحر " وتمسكت الثورة بمبدأ وحدة الشعب والتراب الجزائري .

وضمن هذا الإطار كان أول رد مزلزل للثورة على مثل هذا الهراء الفرنسي الداعم لمشروع تقسيم الجزائر إعلان الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية يوم الخامس من جويلية 1961 يوما وطنيا ضد سياسة التقسيم من خلال تنظيم إظرابا عاما شمل كامل التراب الوطني نجح بنسبة 100% ثم جاء الرد من قبل أبناء الصحراء أنفسهم بمظاهرات في كل من بسكرة الجلفة الأغواط وغرداية 1960 -1961[3] وورقلة عبر مظاهرات 27 فبراير 1962 التي كانت رد شعبي على الزيارة التي قام بها نائب وزير المستعمرات في الحكومة الفرنسية لمنطقة واحات ورقلة لإقناع سكان المنطقة وأعيانها بالطرح الفرنسي وإيجاد ورقة ضغط شعبي على المفاوض الجزائري وقد أكد لي المجاهد إجديع إجديع أن نفرا من أبناء المنطقة السذج تم نقلهم إلى ورقلة لاستقبال هذا المسؤول الفرنسي الرفيع وقد

---

[1] أجريت المقابلة معه في بيته بحي الرمال ثلاثة بدائرة تقرت يوم 9 مارس 2011

أجديع أجديع بن لخضر ولد بالطيبات خلال 1932 انخرط في الثورة سنة 1958 بصفة مسبل ثم مسؤول المكتب المالي للمنظمة السياسية بالطيبات وكان أحد المخططين للمظاهرة توفي بتقرت سنة 2012

[2] الهادي احمد درواز : المرجع السابق ص ص 127-128

[3] المرجع نفسه ص 133

أطعموهم الدجاج لكن الثورة كانت له بالمرصاد فقد تم إرسال أمر كتابي لجميع قادة النواحي التابعة لمنطقة الواحات عبر الرسالة الخطية التي تلقاها المجاهد الملازم محمد شنوفي والمجاهد عبد المشري بومادة تأمرهم بتجنيد سكان المنطقة في مظاهرة شعبية تنطلق بمجرد أن تطأ قدم هذا المسؤول الفرنسي أرض مطار ورقلة العسكري وفعلا تم ذلك بدقة متناهية حيث تجمع المتظاهرون في ساحة السوق القديم بورقلة وانطلقت المظاهرات باتجاه سوق الحجر وكان شعار المظاهرة لا لتقسيم الجزائر نعم لوحدة الشعب والتراب الجزائري الثورة هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الجزائري ثم وقعت مشادات عنيفة بين المتظاهرين وقوات الجيش الفرنسي حيث استخدمت القوة المفرطة ضد المتظاهرين السلميين من غازات مسيلة للدموع والضرب بالهراوات و الرصاص لتفريقهم فسقط على إثرها خمسة شهداء على رأسهم الشهيد الشطي الوكال وعدد كبير من الجرحى وبلغ صوت الشعب الجزائري من أبناء الواحات مسامع المسؤول الفرنسي القادم للمنطقة فغادرها في نفس الطائرة التي أقلته في رحلة القدوم دون أن يتعدى حدود مطار ورقلة وألغي إجتماع ضباط فرنسا الذي كان يهدف إلى وضع خطة سياسية تكسب بها فرنسا تأييد سكان الصحراء فإنقلب السحر على الساحر [1].

ثم تكرر نفس المشهد في منطقة تقرت يوم 7 مارس 1962 حيث انطلقت مظاهرة عارمة من أغلب أحياء تقرت وصلت إلى سوق تقرت (قرب مبنى الأروقة الجزائرية حاليا) دون وقوع جرحى أو سقوط شهداء.

وقد كان لهذه المظاهرات وقع سيئ على الجنرال ديغول وأخلطت له كل أوراقه السياسية ووضعته في موقف محرج عبر عنه مستشاره " بارناردتريكو الذي تجرأ على مصارحته بما يجري في الجزائر وما ترتب عنه من عواقب وخيمة بالنسبة لمشعب الفرنسي، أما عن الجزائر، فقد توقف تريكو طويلاً عن المظاهرات الشعبية التي نظمتها جبهة التحرير الوطني بمناسبتي الفاتح والخامس من شهر جويلية سنة واحد وستين وتسعمائة وألف، وقدم شروحا وافية عن اللافتات والشعارات التي كانت كلها تنادي بوحدة الشعب ووحدة التراب الوطني، وتعبر عن مساندة الجماهير لسياسة الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ، وتطالب بالتفاوض معها على أساس الاستقلال لكامل الوطن بما في ذلك الصحراء . ولم ينسى المستشار تذكير الجنرال بأن تلك المظاهرات قد كلفت الشعب الجزائري حوالي مئة قتيل وأزيد من أربعمائة جريح ، كما أنهى إلى مسامعه تصاعد العمل العسكري والفدائي الذي تقوم به جبهة التحرير الوطني التي أصبحت بالفعل تسيطر على كافة التراب الجزائري."[2]

وقائع مظاهرات 13 مارس 1962 من خلال شهادات صانعيها

لقد شرعت في جمع الشهادات التاريخية حول وقائع هده المظاهرة ابتداء من يوم 23 مارس 2010 حيث وضعت قائمة بأسماء من علمت أنهم شاركوا في المظاهرة ثم بدأت في إجراء مقابلات مباشرة معهم في منازلهم كل واحد

---

[1] احميدة عميراوي : بحوث تاريخية، دار البعث قسنطينة 2001 (د،ط) ص ص 183-189

[2] العربي الزبيري:تاريخ الجزائر المعاصر (1954-1962) منشورات إتحاد الكتاب العرب مكتبة الأسد دمشق 200 ج 2 ص 166

على حدى سواء أكانوا مجاهدين أو مواطنين ثم قرأت عليهم شهاداتهم قبل توقيعها رسميا في بلدية المنقر التي قدمت لي كل المساعدة خاصة عضوي المجلس البلدي علي قرميط وناصر عياشي والسائق شهباني لخضر .

تجمع شهادات المجاهدين المسؤولين خاصة المجاهدين علي البكوش وإجديع إجديع أن مظاهرات 13 مارس 1962 تم تنظيمها استجابة لأمر شفوي صدر عن الملازم محمد الطاهر شنوفي القائد بالناحية الرابعة من الولاية السادسة إلى المسؤول السياسي لمنطقة وادي ريغ المجاهد حامدي عثمان المدعو ثوريا عثمان الشراك بحضور المسؤول السياسي لمنطقة الطيبات أحمد بن محمد السائح و بحضور المجاهد علي البكوش في الزاوية التجانية بتماسين والتي كانت مركزا سريا للثورة حيث تضمن الأمر الثوري ضرورة تنظيم مظاهرة شعبية تشمل كل نواحي الطيبات تكون بمثابة رد مزلزل من الشعب الجزائري خاصة أهل الصحراء على مشروع ديغول التقسيمي والتأكيد على وحدة التراب الوطني والالتفاف حول جبهة التحرير الوطني والحكومة المؤقته .

بعد تلقي المسؤول السياسي لنطقة الطيبات أحمد بن محمد السائح الأمر الثوري نظم اجتماعا طارئا يوم 09 مارس وليلة 10 مارس 1962 في منطقة البحري بالنقر حضره إشتيوي محمد المدعو الضابط وإجديع إجديع المسؤول المالي وعلي البكوش المسؤول العسكري والمجاهدين رحماني محمد وعليات البشير والصغير بن معمر منصوري وقماري معمر غنادرة في منزل المسبل أحميدة مسماري حيث تم التخطيط لمسار المظاهرة حيث تقرر أن تنطلق من سوق النقر يوم 11 مارس 1962 وتنتهي عند ضريح الولي الصالح سيدي محمد السايح بالطيبات مرورا بالخبنة على ان يلتحق بخط المسيرة كل من سكان منطقتي بن ناصر والدليليعي على ان تكون مسيرة سلمية وشعبية يستثنى من المشاركة الوجوه المعروفة لدى الاستعمار أو عملائه وفي الليل عقد اجتماع في منزل المجاهد أحمد بن معمر غندير بحضور كل من المجاهد لمنطقة النقر وجديع جديع المسؤول المالي وإشتيوي محمود والعلمي صحراوي وبوعسرية بوعسرية ومحمد لباقي ولباقي عبد الباقي[1] أعظاء المنظمة السياسية في منطقة الطيبات حيث قرر قادة الثورة المجتمعون في منطقة النقر إبلاغ كافة نواحي الطيبات بموعد المظاهرة من خلال إرسال المسبلين وأعوان الاتصال الذين ابلغوا الأمر على وجه السرعة لكافة مناطق الطيبات على وجه الخصوص منطقة الدليليعي ومنطقة بن ناصر ومنطقة الطيبات المركز .

تجمع شهادات المجاهدين والمواطنين أن المظاهرة انطلقت من النقر يوم 11 مارس 1962 في حدود الساعة التاسعة صباحاً وتجمع المتظاهرون من كل نواحي الطيبات عند مفترق الطرق النقر الدليليعي بن ناصر حيث كانت هذه المنطقة بمثابة نقطة تجميع للمتظاهرين والذين كان عددهم يتراوح بين 200 حسب شهادة المجاهد اجديع أجديع و 300 حسب شهادة المواطن العلمي صحراوي و 500 متظاهر حسب شهادة أحمد أجديعي المدعوا

[1] أحد المعطوبين في مجزرة 13 مارس 1962

بالهزيل [1]أغلبهم رجال وفيهم حتى بعض النسوة من هن السيدة مبروكة م وساوي والدة المجاهد علي البكوش ثم عاودت المسيرة انطلاقتها باتجاه الطيبات على وقع البارود والزغاريد والأناشيد الوطنية مثل: نشيد قسما وشعب الجزائر مسلم وإخواني لا تنساو شوهداكم وحمل الراية الوطنية فقط وكانت مظاهرة سلمية شارك فيه المجاهدون بزيهم المدني دون حمل سلاح وكانوا هم من يقوم بتأطير وتنظيم المظاهرة أما القادة فقد توجه بعضهم إلى برحمون شرقي الدليليعي وبعضهم شارك في المظاهرة كالمجاهد أشتيوي المدعو الضابط وأجديع أجديع رحمهما الله والمجاهد علي دحدي المدعو علي البكوش وأخوه العيد وأحمد بالديار وغيرهم.

تجمع الشهادات أن طائرة هيلكوبتر استكشافية حلقت على ارتفاع منخفض كانت تراقب المتظاهرين المتقدمين نحو الطيبات والتي وصلوها سيرا على الأقدام في حدود الساعة الحادية عشر صباحا قاطعين مسافة 12 كيلو متر إلى أن وصلوا ضريح الولي الصالح سيدي محمد بن أحمد السايح ، وتجمعوا حوله بشكل دائري تحت مراقبة جنود مكتب لصاص والقومية مرددين نفس الهتافات والشعارات الوطنية وذكر المجاهد جديع جديع أن المجاهد أشتيوي الضابط طمأن الملازم جان قائد مركز لصاص في منزل سيدي أحمد بن الصديق شيخ زاوية الطيبات[2] أنه لن يحدث له شيء سيئ ولن يتأذى أحد لأن الملازم كان خائفا جدا وكان يصيح لا أريد أن أموت ثم اتفقا على الفصل بين المتظاهرين و جنود لصاص و بعض الحركى بواسطة حبل لمنع الاحتكاك بين الطرفين واستمرت المظاهرة لغاية الساعة الواحدة زوالا ثم رجع المتظاهرون إلى مساكنهم ومداشرهم دون وقوع أي اشتباكات أو عنف من الطرفين لأن القوة العسكرية الفرنسية المتواجدة بمركز لصاص الطيبات كانت قليلة جدا ومعظمهم من الحركى وذكر المجاهد أجديع أجديع والمواطن العلمي صحراوي رحمهما الله وأكد ذلك المجاهدين بشير الدقعة[3] والعيد رابحي[4]

---

[1] مقابلة أجريت معه في مسكنه بالمنقر يوم 24 مارس 2010

جديعي أحمد بن محمد المدعو بالهزيل ولد بالطيبات خلال سنة 1933 وكان مواطن متعاطف مع الثورة أستغل منزله بالقواشيش كمركز إتصال للثوار مازال على قيد الحياة

[2] شيخ زاوية سيدي بن الصديق وهي زاوية عريقة تتبع الزاوية التجانية في تماسين تأسست خلال القرن 17 ميلادي حسب الروايات الشفوية أسسها أحفاد مؤسس مدينة الطيبات وقد لعبت هذه الزاوية دورا مشرفا أثناء الثورة .

[3] مقابلة تمت معه بفناء المسجد العتيق بالنقر يوم 23 مارس 2010

الدقعة بشير بن أحمد ولد بالطيبات خلال 1940 مجاهد مكلف بالاتصال بالمنظمة السياسية بالطيبات أعتقل بعد الجزرة بيوم ونقل إلى معتقل دار الدوب بقي فيه 15 يوما تحت الاستنطاق لإجباره على الاعتراف بمكان تواجد أخوه الشهيد علي الدقعة مازال على قيد الحياة

[4] أجريت مقابلة معه بمنزله الكائن بحي النقر الغربي يوم 24 مارس 2010

رابحي العيد بن أحمد من مواليد الطيبات خلال 1937 مجاهد مكلف بالاتصال والتموين معطوب في مجزرة 13 مارس 1962 مايزال على قيد الحياة

أنه في هذا اليوم تم إعتقال المناضل أحمد بالديار في طريق عودته من طرف إحدى دوريات لصاص وجدوا معه سلاح فردي من نوع مقرون وإنتهت المظاهرة سلمية كما بدأت سلمية .

يذكر العلمي عويطة أن يوم 12 مارس 1962 عمت سكان النقر مشاعر وطنية جياشة جعلت المواطنين لا يشعرون بالخوف من جنود المستعمر لدرجة أن المجاهد احمد بن معمر غندير المدعو بدة بن معمر رحمه الله هدد الملازم جان قائد مكتب لاصاص الطيبات ب400 مجاهد جزائري سيقاتلون فرنسا عندما طلب هذا الملازم من سكان النقر عدم عرقلة عمل شركة فرنسية كانت تقوم بمد طريق بين الوادي وتقرت فالملازم أخذ تهديدات أحمد بن معمر غندير على محمل الجد خصوصا وأنه شاهد المظاهرة الشعبية العارمة أمام مكتبه في الطيبات فخابر السلطات بذلك وذكر لي المواطن صحراوي محمد الصالح أنه بعد المظاهرة بيوم كان متواجد بمدينة ورقلة للعمل شاهد قوة ضخمة قادمة من الأغواط فلما سأل عن وجهتها قيل له متجهة صوب بلادك.

أما المواطن بوعسرية محمد لخضر المدعو قنيبري ذكر انه كان في هذا اليوم في مدينة جامعة فلما قدم وثائقه لأحد الحواجز العسكرية وعلموا انه من مواليد الطيبات شددوا معه التفتيش ومنعوه من الذهاب إلى مدينة تقرت مما يعني ان السلطات الفرنسية قد اعتبرت الطيبات منطقة عسكرية مغلقة ترقبا لعملية عسكرية ضخمة.

تجمع اغلب الشهادات أنه في هذا اليوم لم يشهد أي شكل من أشكال التظاهر سوى بعض التجمعات الصغيرة هنا وهناك تتحدث عن مظاهرة الأمس والحماس الوطني والاستقلال والثورة وجبهة التحرير وغيرها من المعاني الوطنية الجياشة.

مجزرة 13 مارس 1962 والبربرية الفرنسية:

تجمع كل شهادات المجاهدين والمواطنين في منطقة النقر أنه في الصباح الباكر من هذا اليوم المشؤوم الأسود قبيل طلوع الشمس بين الساعة السادسة والثامنة صباحا قدمت قوة عسكرية ضخمة من الفرقة الصحراوية لوادي ريغ المعروفة اختصارا c.s.p.o.r إلى المنطقة من طريق تقرت مكونة من عشرين شاحنة نوع G.M.C محملة بالجنود وثلاثة دبابات واحدة توجهت صوب حي لباقي أقصى الغرب والثانية صوب حي المحامدة في الجنوب والثالثة باتجاه حي العور في الشرق مع خمسة طائرات طوافة وطائرة استكشاف من نوع ميراج وحسب شهادة المجاهد عزالي لخضر المدعو عزاب[1] فإنه شاهد عربة جيب استطلاعية وبدون إنذار أطلقت النار على المواطن محمد بن البشير لعور رحمه الله فأصابته برصاصة في قدمه وكان أول مصاب أما المواطن بوعسرية أحمد[2] رحمه الله ذكر انه لما بدأ إطلاق

---

[1] عزالي لخضر وكان لقبه قبل تغيير اللقب العائلي جغل ولد بالطيبات خلال 1938 انخرط في الثورة سنة 1961 حسب شهادة من وزارة الدفاع الوطني كعون اتصال في المنظمة السياسية ثم جندي في الجيش الوطني الشعبي في 1962 كان من بين المعتقلين في معتقل دار الدوب يوم مجزرة 13 مارس 1962

[2] اجريت معه المقابلة يوم 01 نوفمبر 2009 بمقر سكناه بحي العسارة النقر الشرقي

النار كان الناس يصرخون بصيحات التكبير و شاهد طائرة تنقض على الشهيد صالح غندير وجنودا يقفون حوله وهو ملقى على الأرض فلما غادروا جاءت أمه فزغردت على رأسه وغطته بشاشه وذهبت وكان مصابا بعدد كبير من الرصاص وبعض طعنات الجنود. ونفس الأم أصيب ابنها المجاهد العايش غندير برصاص في كتفه وساقه ذهبت مسرعة لتحمله إلى الطبيب الشعبي بن إبراهيم عبيد لمداواته حسب شهادة ابنها[1].

وحسب شهادة المجاهد ين اجديع أجديع والعيد رابحي إن قوة من القوات المشاركة في العملية إستهدفت منزلا في حي القصاصة وهو منزل الشهيد محمد خيراني الذي سقط نتيجة إصابته برصاص قناص حركي معروف في المنطقة من طائرة هيليكوبتر الذي تناول فيه المجاهدون العشاء ثم غادروه إلى أميه الوصيف بعد أن ألقوا القبض على بعض القومية وجردوهم من السلاح وزيهم الرسمي كانت هذه القوة تطلق النار على أي هدف متحرك كما أصيب المجاهد العيد رابحي وأحمد مخدمي[2] الذي بقرت بطنه ونجا من الموت بأعجوبة .

أما في حي النواورة والنقر الغربي وحسب شهادة السيدين نواري عبد الرزاق وغويني محمد المدعو السعيد[3] وكان عمره تسعة سنوات فإن المدفعية أطلقت نيرانها صوب هذا الحي وكانت طائرة طوافة أصابت كل من الشهداء نواري محمد الزروق وكان شيخ كبير في السن والشهيد محمد مايو والشهيد لخضر بوقصة.

تجمع كل الشهادات أن الجنود الفرنسيين كانوا يعتقلون السكان ويجمعونهم في السوق نياما على بطونهم ثم نقلوا كل المعتقلين في منطقة النقطة الكيلومترية 27 بإتجاه مدينة تقرت وهناك تم الفرز من طرق ضباط الجيش الفرنسي والحركى فأطلق سراح البعض ونقل البعض الأخر إلى معتقل دار الدوب أو دار الشيخ في مدينة تقرت[4] وحسب شهادة المواطن محمد الصالح غندير[5] وكان شابا في عمر 19 سنة فإن جنود وضباط المعتقل استقبلوهم بالضرب

بوعسرية أحمد بن محمد الصديق ولد بالطيبات خلال 1942 مواطن شاهد عيان أول من رأى سقوط الشهيد صالح غندير بعد مغادرة القوات الفرنسية المكان توفي سنة 2011 قبل توقيع شهادته بصفة رسمية

[1] أجريت المقابلة معه يوم 01 نوفمبر 2009 بمنزله بالنقر الوسط

غندير العايش بن محمد ولد بالطيبات خلال 1936 انخرط في الثورة سنة 1961 كضابط اتصال بالمنظمة السياسية أصيب في المجزرة برصاصتين وكتب الله له النجاة ومازال على قيد الحياة

[2] أحد المعطوبين في مجزرة 13 مارس 1962

[3] كانا صبيين مدركين عند وقوع المظاهرو والمجزرة

[4] دار الدوب doop أو دار الشيخ كما يسميها الأهالي مركز تعذيب سري تابع للكتيبة الصحراوية لوادي ريغ المعروفة اختصارا بـ c.s.p.o.r يقع في وسط مدينة تقرت قرب المسجد العتيق بقصبة مستاوة العريقة أيضا يتم فيه استنطاق المجاهدين وترهيب المواطنين الذين يجلبون إليه من كامل منطقة وادي ريغ ووادي سوف يمارس التعذيب فيه جنود وضباط هذه فرقة c.s.p.o.r سيئة الصيت اندثرت معظم معالمه يوجد على أرضه نصب تذكاري مخلد لأرتاح الشهداء الذين سقطوا فيه.

[5] أجريت المقابلة معه بمنزله بحي غنادرة بالنقر الشرقي يوم 23 مارس 2010

ونزع الملابس ثم استنطقوهم لبعض الوقت ثم أطلقوا سراحهم أما المجاهد لخضر عزالي المدعو عزاب يذكر أن تعذيبا شديدا مورس على المجاهدين المعروفين لدى الاستعمار من إهانة و ضرب وصعق بالكهرباء في مناطق حساسة من الجسم على أرضية مبللة والتخويف بالكلاب البوليسية وغيرها من أساليب التعذيب الجهنمية ونعود لقصة المجاهد أحمد غندير مع الملازم جان وينتشر بين سكان النقر عبارة شهيرة تعرف بفكها يا بدة بن معمر يرددها حتى الأطفال دون علم كمثل دون علمهم بمضربها والسبب أن سكان النقر لما اعتقلوا في المنطقة الكيلومترية 27 في الطريق الوطني رقم 16 باتجاه تقرت وكان أحمد غندير ضمن المعتقلين على رأسه جندي فرنسي يصوب نحوه بندقية فكانوا يلومونه على عنتريته الزائدة أمام الملازم جان قائد مكتب لصاص بالطيبات بترديد هذه العبارة من باب الفكاهة وهذا يبين قوه هذا الشعب الذي يقابل الشدائد والصعاب بالضحك والتنكيت .

وحسب شهادة المواطنين العلمي صحراوي وأحمد بوعسرية غادرت معظم القوات الفرنسية النقر في حدود الساعة الثالثة مساءا ولم تبقى إلا قوة صغيرة وبعد صلاد العصر تم نقل الشهداء من مسجد حي القصاصة إلى المقبرة القبلية بالنقر[1] حيث تم تجريدهم من ملابسهم وما لا يجوز دفنه مع الشهيد ثم صلى عليهم إمام المسجد العتيق بالنقر الشيخ محمد رحمه الله ودفنوا في قبور متسلسلة تحت نظر القوات الفرنسية وتكفلت مجموعة من المتطوعين بنقل الجرحى إلى مستشفى تقرت وهكذا أسدل الستار عن مجزرة نكراء اقترفتها القوات الفرنسية ضد أبرياء عزل من السلاح دون ان يحاسب مقترفوها على غرار جرائم المستعمر الفرنسي المرتكبة في كامل ربوع الوطن .وبلمظاهرات 27 فيفري و7 و13 مارس 1962 أسمعت الجماهير الجزائرية في الصحراء صوتها معلنة تمسكها بجزائر موحدة شعبا وترابا مفندة مزاعم ساسة فرنسا في الأمم المتحدة بان سكان صحراء مؤيدون لطرحها ومشاريعها وأكتشف العالم أن كل ما سوقت له فرنسا الاستعمارية مزيف وعار عن الصحة مدعمة موقف المفاوض الجزائري في مفاوضات إيفيان .

نتائج الدراسة:

01- تكتسي الصحراء الجزائرية أهمية بالغة جداً ضمن الإستراتيجية الاستعمارية الفرنسية لما تملكه من موارد متنوعة وهذا يفسر تشبث فرنسا بالصحراء حتى آخر لحظة.

02- تشكل مدينة الطيبات خلال القرن 17 ميلادي على يد الولي الصالح سيدي محمد بن محمد السايح

03- الطيبات منطقة عسكرية يسيرها ملازم فرنسي عبر مكتب شيخ العرب ثم لصاص

04- انخراط منطقة الطيبات في الثورة بداية من سنة 1952 على يد المجاهد أحمد بن محمد السايح.

---

[1] تم نقل رفات الشهداء من المقبرة القبلية بالنقر إلى مقبرة الشهداء بحي 27 سنة 2005 بحضور السلكات المحلية وممثل عن وزارة المجاهدين

غندير محمد الصالح بن محمد من مواليد الطيبات خلال 1943 مواطن شاهد عيان كان من بين المعتقلين المرحلين إلى دار الشيخ

05- الطيبات تتبع القسمة 80 ضمن هيكلة الثورة الجزائرية

06- اقتصر نشاط منطقة الطيبات إبان الثورة على الدعم اللوجيستي للثوار وجمع الاشتراكات

07- تندرج مظاهرات 11 مارس ومجزرة 13 مارس 1962 ضمن الحراك الثوري الذي شهدته ولاية الواحات بدءا من 27 فيفري 19612 استجابة لأمر الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية باعتبار يوم 05 جويلية 1961 يوم وطني ضد التقسيم وسياسة ديغول الرامية لفصل الصحراء عن الجزائر.

08- مظاهرات 11 مارس بالطيبات كانت استجابة لنفس الأم الثوري الذي تلقته منطقة ورقلة.

09- الاستجابة الواسعة لسكان الطيبات تلبية لنداء الثورة بالرغم من صعوبات التنقل وشظف العيش.

10- ارتكاب قوات الكتيبة الصحراوية لوادي ريغ والقوات الدعم القادمة من الأغواط مجزرة شنيعة ضد السكان العزل يوم 13 مارس 1962 مستعملة قوات وأسلحة لا تستخدم إلا في مواجهة الجيوش.

11- تمكن سكان الصحراء بالتفافهم حول الثورة والحكومة المؤقتة من حماية الوحدة الترابية للجزائر من مخططات التقسيم والفصل التي كان يسعى إليها ديغول عبر المناورات السياسية والمفاوضات.

12- تعتبر مظاهرات 11 مارس 1962 ومجزرة 13 مارس 1962 بالنقر بأخر حدث جماهيري شهدته الثورة الجزائرية في أقل من أسبوع قبل وقف إطلاق النار في 19 مارس 1962 .

13- يمكن اعتبار مجازر27 فيفري بورقلة و 13 مارس بالطيبات جرائم حرب وجرائم ضد الانسانية والمطالبة بمعاقبة مرتكبيها وفق القانون الدولي الذي يعتبر هذه الجرائم لا تسقط بالتقادم.

14- ضرورة اعتبار هذه المظاهرات والمجازر مناسبات وطنية وإدراجها ضمن المقرر الدراسي للتلاميذ في مادة التاريخ الوطني.

خاتمة:

تعتبر مظاهرات 11 مارس ومجزرة 13 مارس 1962 يوما فاصلا في تاريخ الثورة بمنطقة الطيبات وكانت آخر حدث في الثورة التحريرية المظفرة إذ يأتي قبيل أسبوع واحد من وقف إطلاق النار .

قائمة بأسماء الشهداء حسب السجل الرسمي لبلدية النقر:

الرقم	اسم ولقب الشهيد	تاريخ ومكان ميلاده	تاريخ استشهاده
01	بالة محمد الصغير	خلال 1944 بالطيبات	13 مارس 1962
02	بوقصة الأخضر	خلال 1878 بالطيبات	13 مارس 1962
03	جدو خليفـة	خلال 1943 بالطيبات	13 مارس 1962

04	خورارة العايش	خلال 1943 بالطيبات	13 مارس 1962
05	خورارة بشير	خلال 1935 بالطيبات	15 مارس 1962
06	خيراني محمد	خلال 1926 بالطيبات	13 مارس 1962
07	شوية عليي	خلال 1917 بالطيبات	13 مارس 1962
08	غنديـر صالح	خلال 1940 بالطيبات	13 مارس 1962
09	مايـو محمد	خلال 1920 بالطيبات	13 مارس 1962
10	نـواري محمد	خلال 1903 بالطيبات	15 مارس 1962
11	نواري محمد الزروق	خلال 1913 بالطيبات	15 مارس 1962

قائمة بأسماء بعض الجرحي والمعطوبين:

الرقم	اسم ولقب الجريح أو المعطوب	تاريخ ومكان ميلاده	مكان إصابته
01	محمد البشير الأعور	خلال 1935 الطيبات	رصاصة على مستوى القدم
02	العايش بن محمد غندير	خلال 1936 بالطيبات	رصاصة في الكتف وأخرى في الفخذ
03	العيد بن أحمد رابحي	خلال 1937 بالطيبات	رصاصتين في الذراع الأيسر
04	أحمد مخدمي	خلال 1951 بالطيبات	بقر بطنه برصاصة
05	عبد الباقي لباقي		أصيب بكسر في رجله

المجاهد القائد السياسي سي أحمد بن محمد السايح بالطاهر الذي أعطى الأمر الشفوي لسكان الطيبات بتنظيم مظاهرات يوم 13 مارس 1962.

جرائم التعذيب الاستعماري خلال ثورة التحرير الجزائرية والقوانين الدولية

الأستاذ: نورالدين مقدر قسم التاريخ جامعة المسيلة

استعملت السلطات الفرنسية ضمن أساليبها للقضاء على ثورة التحرير الجزائرية أسلوب التعذيب، والذي يعد من أخطر الوسائل التي استخدمت ضد الشعب الجزائري، حيث لم يكد يسلم أحد منه. وتعتبر السجون والمعتقلات ومقرات الوحدات العسكرية الفرنسية القلاع الرئيسية التي تشهد على ذلك، حيث انتشرت مراكز التعذيب في كل قرية ودشرة وحي في الجزائر خلال الثورة التحريرية.

أما الإشكالية المطروحة فتندرج إشكالية هذا المقال حول انتهاكات فرنسا لحقوق الإنسان في الجزائر، وقيامها بجرائم منها التعذيب في المعتقلات والمراكز التي أنشئت خلال الثورة التحريرية، أمام نفيها لتلك الجرائم، بل ذهبت إلى أكثر من ذلك بإصدارها قانون تمجيد الاستعمار في 23 فيفري 2005 وتتفرع هذه الإشكالية على عدة تساؤلات منها:

– ما هو التعذيب من المنظور القانوني؟

– هل ما قامت به فرنسا خلال الثورة التحريرية من تعذيب في الجزائر يرقى إلى مستوى جرائم يعاقب عليها القانون الدولي؟ وما هي الأدلة المادية على ذلك؟

وسنتطرق في هذا المقال إلى: التعذيب من منظور القانون الدولي والخرقات الفرنسية في حق الشعب الجزائري من خلال:

– قانون المحكمة العسكرية الدولية بنورنبورغ 1945.

– بيان حقوق الإنسان 10 ديسمبر 1948.

– اتفاقية جنيف الثالثة الخاصة بأسرى الحرب 1949.

– اتفاقية جنيف الرابعة الخاصة بحماية المدنيين في حالة الحرب 1949.

– اتفاقية عدم تقادم جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية 1968.

وبناء على تلك القوانين يمكن تكييف الجرائم التي ارتكبتها فرنسا في الجزائر منذ الاحتلال إلى أربعة أنواع هي:

– جريمة ضد السلم. – جريمة ضد الإنسانية.– جريمة حرب. – جريمة إرهابية.

وسنبرز الكثير من الأدلة المادية على تلك الجرائم التي ارتكبت في حق الشعب الجزائري.

التعذيب هو استعمال العنف الجسدي أو المعنوي ضد الأشخاص لغرض الحصول على معلومات أو بغرض انتقامي[1]. أو هو أي عمل ينتج عنه ألما أو عذابا شديدا جسديا كان أو عقليا، يلحق عمدًا بشخص ما، أو

[1] – ب بوعلام، " التعذيب خلال الثورة الجزائرية "، **مجلة الجيش**، العدد 460، نوفمبر 2001 ، ص 05.

العقوبة القاصية اللاإنسانية أو المهينة[1]. أو هو ما يلحق بشخص ما بقصد الحصول من هذا الشخص على معلومات أو اعتراف أو معاقبته على عمل ارتكبه، أو ينسب إليه؛ لأنه ارتكبه هو أو شخص ثان أو تخويفه أو إرغامه وعندما يلحق هذا الألم أو العذاب لأي سبب من الأسباب أو يحرض عليه أو يوافق أو يُسكت عنه موظف رسمي أو شخص آخر يعرف بصفته الرسمية[2].

وإذا كان التعذيب كأسلوب منتشر الاستعمال في الحروب القديمة كأداة شرعية يسمح بها القانون ولا ينكرها العرف، حيث عرف ا لتاريخ الأوربي في العصور الوسطى صوًرا بشعة من التعذيب هَوتْ بالإنسان إلى الحضيض فصار كالبهيمة الوحشية القذرة.[3]

وفي منتصف القرن التاسع عشر بدأت تظهر قوانين خاصة بالحروب وتمنع ما يسيء للإنسان ويضر به.

ظهور قوانين الحروب الدولية:

صدرت قوانين واتفاقيات دولية حول الحروب منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأهمها:

1-تصريح باريس 1856:

أول معاهدة جماعية تتضمن تنظيما دوليا بشان المحاربين والتي ألغيت بموجبها القرصنة كما تضمنت أمورا أخرى[4].

2- اتفاقية جنيف الأولي 1864:

اتفاقية لتحسين حال جرحى الجيوش في الميدان المعتمدة في 22 أوت 1864، وتعتبر أول اتفاقية تضمنت حماية الجرحى والمرضى وتخفيف حدة معاناة المحاربين أثناء الحرب[5].

3- مشروع مؤتمر بروكسل 1874:

وقد تضمن المشروع القضايا السياسية التالية:

* وجوب احترام الأطراف المتحاربة للمعتقدات الدينية والشرف والحياة والملكية للسكان المدنيين.

* ضرورة توجيه العمليات العسكرية ضد القوات المسلحة وليس ضد السكان المدنيين و أولئك الذين القوا بسلاحهم.

* الالتزام باحترام المواطنين والسكان المدنيين الموجودين في الأراضي المحتلة وعدم التعرض لهم أو الاعتداء على ممتلكاتهم الخاصة وغيرهما من القضايا الأخرى[1].

---

[1] – أحميدة عميراوي، **موضوعات من تاريخ الجزائر السياسي**، دار الهدى، عين مليلة، 2004، ص 111.

[2] – خالد رمزي البزايغة، **جرائم الحرب الفقه الإسلامي والقانون الدولي**، ط1، دار النفائس، الأردن، 2007، ص160.

[3] – محمد الصالح الصديق، " من جرائم فرنسا الاستعمارية "، **مجلة أول نوفمبر**، العدد 168، جويلية 2006، ص 37.

[4] – محمد فهاد الشلالدة، **القانون الدولي الإنساني**، منشأة المعارف، القاهرة، 2005، ص ص 27 – 28.

[5] – المرجع السابق، ص 29.

4- اتفاقية جنيف الثانية 1929:

وضعت نظاما كاملا لأسرى الحرب يلزم جميع الدول سواء وقعت أو لم توقع[2].

التعذيب في القانون الدولي بعد الحرب العالمية الثانية:

بعد الحرب العالمية الثانية، وبسبب ما خلفته هذه الأخيرة من ويلات وتدمير وجرائم حرب وإبادة الأجناس والإعدام الجماعي للأسرى والمدنيين وارتكاب العديد من الدول لجرائم ضد الإنسانية كانت بمثابة نقطة تحول هامة في مجال حقوق الإنسان، مما سمح بتبني نصوص واضحة موجهة للأسرة الدولية بكاملها وأصبح ينظر لحقوق الإنسان من منظور واسع وشامل خاصة مع قيام هيئة الأمم المتحدة والتي تم الموافقة على ميثاقها في مؤتمر سان فرانسيسكو 1945[3]. ومن تلك النصوص والاتفاقيات ما يلي:

1- قانون المحكمة العسكرية الدولية بنورنبورغ 1945:

اعترفت المجموعة الدولية بجرائم تخص حقوق الإنسان كالقتل والإبادة والتعذيب والتهجير والأبعاد والاستبعاد والاعتقال غير الشرعي والاضطهاد لأسباب سياسية أو دينية أو عرقية أو قومية سواء كانت فردية أو جماعية وكان ذلك لأول مرة في المحكمة الدولية بمدينة نورنبورغ[4] الألمانية سنة 1945، وحددتها المادة (6-س) من قانون المحكمة العسكرية الدولية.[5]

2- بيـان حقوق الإنسان 10 ديسمبر 1948:

تم إصدار إعلان حقوق الإنسان ومنع، التعذيب وجاء فيه لا أحد يوضع موضع التعذيب أو يعامل بسوء المعاملة أو يعاقب بعقوبة قاسية[6]،حيث تضمنت مادته الخامسة: " لا يتعرض أي فرد للتعذيب أو عقوبات أو معاملات وخيمة غير إنسانية".

3- اتفاقية جنيف الثالثة الخاصة بأسرى الحرب 1949:

تحتوي اتفاقية جنيف الثالثة الخاصة بأسرى الحرب الصادرة في 12 أوت 1949 على 135 مادة تحدد من خلالها كل ما يتعلق بأسرى الحرب و كيفية التعامل معهم من القبض عليهم إلى غاية إطلاق سراحهم وقد بدأ العمل بها ابتداء من 21 أكتوبر 1950 أما المحاور الكبرى التي أقرتها الاتفاقية حول أسرى الحرب نذكر منها:

- وضع علامة بارزة "أسرى الحرب" في موقع الأسرى.

---

[1] - نفسه، ص 31.

[2] - عبد الكريم فرحات، **أسرى الحرب عبر التاريخ**، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1979، ص 171.

[3] - علي محمد الدباس، علي عليان محمد ابو زيد، **حقوق الإنسان وحريته**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، 2005، ص 51.

[4] - نورنبورغ: مدينة ألمانية، جرت بها محاكمة النازيين من طرف الحلفاء، بعد انهزام ألمانيا النازية في الحرب العالمية الثانية عام 1945.

[5] - العايب علاوة، " الجوانب القانونية لجرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية في القانون الدولي المعاصر"، **مجلة الجيش**، العدد 394، ماي 1996، ص 11.

[6] - عبد المجيد عمراني، **جان بول سارتر والثورة الجزائرية**، مكتبة كنزة، باتنة، (ب. ت)، ص 96.

– يتم حصر أعداد الأسرى ومراجعتها دوريا.

– ينشأ برنامج للعناية بأمن وصحة الأسرى.

– يجب أن تعلن وتنشر نسخ من اتفاقية جنيف في معسكرات الأسرى بلغتهم.

– حماية الأسير من انتقام غيره، وتعريفه بإجراءات التبليغ عن أي تهديد.

– يسمح لقوة الحماية من مسؤولي الصليب الأحمر الدولي لزيارة الأسرى ومقابلتهم للتعرف عن حالتهم.

– يتم إجراء الكشف الطبي شهريا على الأسرى لإقرار صلاحيتهم للعمل، وتقدم لهم الخدمة مجانا، ويلقى الأسرى من المصابين والمرضى نفس العناية الطبية لأفراد القوة الآسرة.

– يسمح للأسرى بإرسال رسالتين أو أربع بطاقات لذويهم مجانا. ويمكن استلام أي عدد من الرسائل.

– أعمال الانضباط والنظام لا تؤول الى الأسرى ولا يمارسونها.

– وجود قيود صارمة على الأعمال التي يسمح بتكليف الأسرى بأدائها، وعدم تكليفهم بالعمل كخدم خاص للعسكريين، إذ لا تتعدى أعمالهم عشر ساعات في اليوم، ويسمح لهم بالحصول على راحة لمدة ساعة ليتقدموا للغذاء.

– اتخاذ إجراءات لإنشاء ملفات سرية تحتوي على شكاوى الأسرى، ولا يجب أن يعاقب الأسير على شكواه.

كما توجد قواعد عدة تتحكم في معاملة أسرى الحرب المعروفة بالقيم الإنسانية والتي يجب أن يتحلى بها كل عسكري والمعترف بها دوليا.

ويتوجب على الدول الموقعة على الاتفاقية الالتزام بها في جميع الظروف حسب ما جاء في المادة الأولى من الاتفاقية وذلك من أجل ربط هذه القوانين والأعراف الدولية بالقيم الإنسانية[1].

كما نصت المادة الثالثة من هذه الاتفاقية على احترام المبادئ الإنسانية في أي نزاع مسلح ذي طبيعة غير دولية تدور أحداثه في إقليم أحد الأطراف المتعاقدة فكل طرف في النزاع ملزم بتطبيق كحد أدنى الأحكام التالية:

أ – الأشخاص غير المشاركين في النزاع بمن فيهم أعضاء القوات المسلحة الذين تخلوا عن أسلحتهم أو الذين أصبحوا غير قادرين على القتال بسبب المرض، الجرح، الاعتقال أو أي سبب آخر يجب معاملتهم معاملة حسنة إنسانية في كل الظروف ودون تمييز. فالأفعال التالية محرمة ضدهم:

* العنف ضد حياة الأشخاص وخاصة القتل بكل أنواعه، التشويه، المعاملة اللاإنسانية والتعذيب.

* الاعتداء على الكرامة الإنسانية وخاصة الإهانة والمعاملة المذلة.

* إصدار الأحكام وتنفيذها بدون محاكمة مسبقة صادرة عن محاكم شرعية تسمح بالضمانات القضائية الأساسية المعترف بها من طرف الشعوب المتمدنة[2].

---

[1] – عمير بشير، " أسرى الحرب بين القوانين الدولية والقيم الإنسانية "، **مجلة الجيش**، العدد 477، أفريل 2003، ص26.

[2] – المرجع السابق، ص 24.

ب – الجرحى والمرضى يجب جمعهم والاعتناء بهم، ويمكن لهيئة إنسانية محايدة مثل الصليب الأحمر الدولي تقديم خدماتها لأطراف النزاع.

إن تطبيق الأحكام السابقة لا يؤثر على المركز القانوني لأطراف النزاع.[1]

والمثير للانتباه أن فرنسا كانت من الدول التي شاركت في وضع بنود هذه الاتفاقية بل كانت صاحبة الاقتراح في وضعها، وفي المقابل نرى واقعا مناقضا لذلك فيما قامت به من انتهاكات في الجزائر لبنود هذه الاتفاقية.

4– اتفاقية جنيف الرابعة الخاصة بحماية المدنيين في حالة الحرب 1949:

هذه الاتفاقية صدرت في 12 أوت 1949 خاصة بحماية المدنيين في حالة الحرب، تنص في مادتها الثالثة على معاملة المعتقلين معاملة إنسانية دون تمييز ديني أو عرقي أو جنسي. وعدم المساس بحياة المدنيين المعتقلين خاصة القتل بأشكاله المختلفة وتشوه الجسم، والمعاملة القاسية والتعذيب.

– اختطاف الأشخاص.

– المساس بكرامة الأفراد، خاصة المعاملات الدنيئة والحقيرة .

– إصدار أحكام وتنفيذها دون محاكمة مسبقة من طرف محكمة عادية تحترم الضمانات القانونية المعترف بها لدى الشعوب المتحضرة.

– استقبال المرضى والجرحى لإسعافهم.

5– اتفاقية عدم تقادم جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية 1968:

كما وضعت الجمعية العامة للأمم المتحدة منع سريان التقادم على جرائم الحرب والجرائم المرتكبة ضد الإنسانية بقرار رقم 2391 (د–23) الصادر في 26 نوفمبر 1968، والتي اعتمدت وجاءت بسبب خلو المواثيق والاتفاقيات المتصلة بملاحقة ومعاقبة من تسببوا في جرائم الحرب والجرائم المرتكبة ضد الإنسانية، واقتناعا بأن المعاقبة الفعالة عنصر هام لتفادي وقوع تلك الجرائم وحماية حقوق الإنسان، والحريات الأساسية، وتعزيز السلم والأمن الدوليين. والتي نصت المادة الأولى منها على أنه: لا يسري أي تقادم للجرائم التي ارتكبت ضد الإنسانية بغض النظر عن زمن ارتكابها وتتمثل هذه الجرائم في:

– جرائم الحرب الواردة في النظام الأساسي لمحكمة نورنبورغ الدولية الصادرة في 08 أوت 1945.

– الجرائم المرتكبة ضد الإنسانية سواء في زمن الحرب أو في زمن السلم و الوارد تعريفها في النظام الأساسي لمحكمة نورنبورغ الدولية[2].

[1] – محمد بجاوي، **الثورة الجزائرية والقانون 1960– 1961**، ت: علي الخش، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط 2، ص 282.

[2] – العايب علاوة، المقال السابق، ص 12.

ويمكن تصنيف جرائم حقوق الإنسان التي ارتكبتها فرنسا في الجزائر منذ الإحتلال من خلال تلك القوانين إلى أربعة أنواع هي:

1- جريمة ضد السلم:

ونص عليها ميثاق محكمة نورنبورغ سنة 1945 وتم تعريفها بما يلي" التخطيط والتحضير والمبادرة لخوض حرب عدوانية أو لحرب تنتهك المعاهدات أو الاتفاقيات أو الضمانات أو الاشتراك في خطة عامة أو مؤامرة لفعل ذلك " وقد ارتكبت فرنسا هذه الجريمة عند اجتياح قواتها للأرضي الجزائرية عام 1830 وإحداث تغيير كبير في معالمها، وما قامت به من اعتداء على الجزائريين وممتلكاتهم، وتعرضوا من خلالها للقصف والأعمال العسكرية وقامت بها خلال الثورة التحريرية عندما قصفت ساقية سيدي يوسف في شمال تونس في 08 فيفري 1958، وقتلت الآلاف من الأبرياء من اللاجئين الجزائريين والمدنيين التونسيين[1].

2- جريمة ضد الإنسانية:

تعني هذه الجريمة سلسلة من الأفعال التي ترتكب في إطار هجوم واسع النطاق أو منهجي، موجه ضد السكان المدنيين مع العلم بالهجوم. وعادة ماتقدم النصوص الدولية تعريفات لهذه الجريمة تتضمن الأفعال التي تدخل في هذا الإطار. فمثلا تضمن النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية لسنة 1998 في المادة السابعة منه تعريفا يقول:" أنها أفعال معينة مثل القتل العمدي والإبادة والتعذيب والاسترقاق والإخفاء والاغتصاب والاستعباد الجنسي وما إلى ذلك، إذا ارتكبت في إطار هجوم واسع النطاق أو منهجي موجه ضد أية مجموعة من السكان المدنيين وعن علم بالهجوم." ولقد ارتكبت فرنسا هذه الجريمة في الجزائر مثل التعذيب والقتل والتهجير والاعتقال غير الشرعي والاضطهاد لأسباب سياسية أو دينية أو عرقية فردية أو جماعية[2]، حيث قامت مراكز خاصة للاستنطاق والتعذيب في كل مناطق الجزائر. وما جرى بها من سوء معاملة وإهانات، وتعذيب وقتل، وما ترتب عنها من آثار سلبية، دليل على ذلك. كما قامت بالإبادة والاسترقاق وإبعاد الجزائريين كإقامة المحتشدات، وبأعمال الإرهاب ضدهم طيلة فترة الاحتلال خاصة خلال الثورة التحريرية.

3- جريمة حرب:

وتعني تلك الانتهاكات لقوانين الحرب أو القانون الدولي الإنساني التي تعرض شخصا للمسؤولية الجنائية الفردية. وعّرفها ميثاق محكمة نورنبورغ العسكرية الدولية لسنة 1945 بأنها: " انتهاكات قوانين الحرب وأعرافها بما في ذلك قتل مدنيين في ارض محتلة أو إساءة معاملتهم وإبعادهم، قتل أسرى حرب أو إساءة معاملتهم، قتل رهائن، سلب ملكية خاصة والتدمير غير الضروري عسكريا، ويضاف إلى هذا المعنى أي جريمة أخرى غير هذه الجرائم

[1] – عيساني علي، "جرائم فرنسا في الجزائر وحقوق الإنسان "، **مجلة أول نوفمبر**، العدد 172، ديسمبر2008، ص 25.

[2] – المقال السابق، ص 26.

تقترفها سلطات الاحتلال وأفرادها ضد المدنيين في المناطق المحتلة."[1] وقد اقترفت فرنسا هذه الجريمة في الجزائر أثناء فترة احتلالها ومن الأمثلة عليها: تسليط القمع على السكان مثل معركة الجزائر 1957. وقمع السكان وقتل الكثير من جراء عملية التعذيب وإعدام الكثير من المجاهدين بعد التعذيب مثل ما حدث في المعتقلات ومراكز الفرز والعبور التي أنشأتها السلطات الفرنسية، ومقرات المكتب الثاني، ومقرات الوحدات العسكرية الفرنسية ومقرات الشرطة.

4- جريمة إرهابية:

رغم أنه لا يوجد حتى الآن مفهوم قانوني للإرهاب في إطار القانون الدولي الإنساني. وليس هناك تعريف فقهي متفق عليه للإرهاب، إلا أن العديد من الأفعال توظف حاليا بأنها جريمة إرهابية محظورة بشكل مطلق، التي تفهم بأنها فعل يبعث الذعر وينشئ خطرا عاما يهدد عددا غير محدد من الأشخاص، ويعتمد على أساليب وحشية. وقد شهدت الساحة الجزائرية هذه الأفعال ومنها العنف في شوارع المدن والقرى والقتل العمدي للمدنيين والاستلاء بصورة غير شرعية على الممتلكات. فالجريمة الإرهابية التي قامت بها فرنسا في الجزائر ارتبطت بدوافع سياسية كمحاولة الإبقاء على احتلالها لهذا البلد، وإجهاض المقاومة، ومنع الأهالي من الانخراط فيها. ومنعهم من التظاهر والمطالبة بحقوقهم مثل ما حدث في مظاهرات المهاجرين الجزائريين في 17 أكتوبر 1961 بباريس، أو غيرها من الغايات السياسية ويندرج موت الآلاف من الجزائريين بهذه الطريقة تحت خانة هذه الجريمة، حيث استهدفت الآلة العسكرية الفرنسية المدنيين بوحشية[2].

الأدلة المادية على الجريمة:

يمكن حصر الكثير من الأدلة المادية على الجرائم التي ارتكبتها فرنسا في الجزائر وفي حدود موضوعنا سنتناول ما تعلق بالاعتقال والتعذيب. فما من أحد يتجاهل أو ينكر اليوم تلك الألوان من التعذيب المنظم، والقتل العمدي والإعدامات بدون محاكمة، وبتر أعضاء الجسم وغسل الدماغ، والموت البطيء في الزنزانات، وردم الناس فرادى وجماعات أحياء في المطامير، والقتل العمدي الذي كان يتم بعدة صور منها القتل بالرصاص أو تسليط الكلاب على المعتقل فينهشونه حتى الموت، أو بأساليب مختلفة للتعذيب حتى الموت[3] ، وهذا ما تناولناه من خلال شهادات المعتقلين في مراكز التعذيب والمعتقلات بالإضافة إلى ما هو موثق في عدد من المصادر التاريخية. وشهادات واعترافات جنرالات وضباط وجنود الجيش الفرنسي إضافة إلى شهادات بعض الفرنسيين من النخبة المثقفة وذوي الضمائر الحية الذين كانوا شهود عيان على ما ارتكبته فرنسا من جرائم في حق الجزائريين.

---

[1] – نفسه، ص26.

[2] – نفسه، ص 27.

[3] – عمر سعد الله، **القانون الدولي الإنساني والاحتلال الفرنسي في الجزائر**، دار هومة، الجزائر، (ب.ت)، ص 178.

ونذكر بعض الشهادات والاعترافات الفرنسية منها على سبيل المثال ما اعترف به الجنرال ماسو "Massu " رئيس جهاز المخابرات الفرنسية السابق بالجزائر لجريدة لوموند Le Monde" الفرنسية في العدد 23الصادر في نوفمبر2000 عندما قال: " لقد حان الوقت لفرنسا لكي تعترف بما قامت به في الجزائر وتدينه. لقد كانت هناك عمليات تعذيب وإعدامات سريعة كانت تمارس بطريقة روتينية خلال حرب الجزائر (1954– 1962). ومن أساليب القتل الانفرادي التي مورست في الجزائر القتل بواسطة الكلاب، الموت البطيء، رمي الأشخاص من فوق الجسور، الرمي من طائرات الهيلكوبتر، الرمي في بئر ثم يردم عليه أو يملأ بالماء." وقد أبدى ماسو تأسفه الكبير على المهمة التي كلف بها ونفذها والتي كان يراها مؤسفة بالنسبة إليه[1].

واعترافات الجنرال "اوساريس" في قضية اغتيال العربي بن مهيدي وعلي بومنجل وقتل الكثير من الجزائريين عن طريق التعذيب. وشهادة مصور الجيش الفرنسي خلال الثورة التحريرية "مارك غرانقير" صاحب كتاب "النساء الجزائريات"، حيث كان شاهد عيان على ما قام به الجيش الفرنسي في مناطق عديدة من الشرق الجزائري منها: عين ترزين، برج خريس، وسوق أهراس وكان مرافقا لفرقة المشاة من مارس 1960 إلى فيفري 1962 مكلفا بالتصوير في الدوريات والخرجات، ويصفها بالحرب العبثية ويقول مارك غرانقير: " لقد لمست نبرة الاحتقار والازدراء لدى الضباط الفرنسيين حيال السكان وخاصة النساء واللائي كن ضحية خطاب عنصري غير معقول. وكنت شاهدا على هذا الخطاب العنصري في أوساط الضباط خاصة." كما أضاف قائلا: " أن هناك استعدادا لإبادة الجميع؛ لأن من كانوا أمامهم يعتبرونهم حيوانات لا آدميين." كما كان شاهدا على أن الكثير من الجزائريين قتلوا بالرصاص وتم تصويرهم، كما مورس التعذيب بشتى الوسائل والأساليب الجهنمية[2].

والتعذيب والقتل أثناء الثورة لم تكن هفوات كما يدعي قسم كبير من أجهزة الإعلام والقيادات المتواطئة معها من الطبقة السياسية والمجتمع المدني بفرنسا. فمن المسؤول عن قتل مليون ونصف المليون شهيد؟ ومن يعوض الجزائر عن المفقودين والأيتام والأرامل وعشرات الآلاف الذين كانوا في المعتقلات[3]، والتشويهات الجسدية التي مازالت شاهدة إلى يومنا هذا في أجساد الكثير من الجزائريين، منهم من التقينا بهم من جراء التعذيب في المعتقلات ومراكز التعذيب.

وهناك شهادات تثبت تورط مسؤولين كبار في السلطة الفرنسية منها ما صرح به المؤرخ الفرنسي "بنيامين سطورا" بالمركز الثقافي الفرنسي بقسنطينة خلال زيارته للصالون الدولي للكتاب في شهر نوفمبر2010. وهو الذي أعد فيلما حول حياة الرئيس السابق " فرانسوا ميتران" الذي كان وزيرا للداخلية ووزيرا للعدالة خلال الثورة التحريرية

---

[1] – Le Monde, 23 Novembre 2000, In Internet, **www.Algeria–watch.fr/article (1954–1962)**.

[2] – ح.ص، " مصور الجيش الفرنسي، مارك غرانقير يقدم شهادته للخبر (ضباط فرنسيون كانوا ينعتون الجزائريين بالحيوانات وعلى استعداد لإبادتهم) "، **جريدة الخبر**، العدد 6053، 11 جويلية 2010، ص 19.

[3] – محمد العربي ولد خليفة، " المذابح الكولونيالية في الجزائر"، **مجلة الجيش**، العدد 424، نوفمبر1998، ص 22.

اتهمه مباشرة على أنه هو الذي منح الضوء الأخضر لإعدام كبار مسؤولي الثورة الجزائرية بصفته وزيرا للعدالة آنذاك، وأولهم الشهيد أحمد زبانة وأحصى ما يزيد عن 200 حالة إعدام شنقا، الكثير منها وقع خلال حمل ميتران لحقيبة العدالة[1].

يقودنا التحليل السابق إلى أن فرنسا مارست جرائم حرب في الجزائر، وارتكبت انتهاكات جسيمة للقانون الدولي الإنساني ولقانون حقوق الإنسان وقانون الاحتلال؛ لأنها جميعا تكفل معاملة إنسانية سواء كان من العسكريين أو المدنيين. ومن خلال الشهادات والمصادر التاريخية والوثائق الأرشيفية التي اعتمدنا عليها. وبالتالي ضرورة اعترافها بجرائمها في الجزائر والاعتذار الرسمي للشعب الجزائري. وتعويض الضحايا لأجل إذابة الجليد في العلاقات الجزائرية الفرنسية، والتوتر السائد منذ الاستقلال إلى يومنا هذا خاصة في السنوات الأخيرة، وإقامة علاقات ثنائية مبنية على أساس المصلحة المشتركة مع الحفاظ على الذاكرة الجماعية التي تربط بين الشعبين وصيانتها

[1] – ب، عيسى،" بنيامين سطورا يتهم من قسنطينة (فرانسوا ميتران متورط في جرائم إعدام الثوار الجزائريين)"، **جريدة الشروق اليومي**، العدد 3108، 07 نوفمبر 2010، ص 05.

استقلال الجزائر من منظور عربي

أ.د عبد الكامل جويبة. قسم التاريخ- جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

يتفق الكثير من النقاد والقراء عموما على أن الآداب مجلة من المجلات العربية القلائل التي ظهرت في وقت أحوج ما تكون فيه البلاد العربية إلى منبر إعلامي ثقافي، يواكب مرحلة التغيير السياسي الفكري، وقد لعبت <<الآداب>> هذا الدور بالتركيز على الجانبين السياسي والثقافي الفكري، وهذا ما تؤكده أول افتتاحية لها، والتي من بين ما جاء فيها:

[... و هدف المجلة الرئيسي أن تكون ميدانا لفئة أهل القلم الواعين الذين يعيشون تجربة عصرهم... فإن الأدب الذي تدعو إليه المجلة و تشجعه هو أدب الالتزام الذي ينبع من المجتمع العربي ويصب فيه. والمجلة إذ تدعو إلى هذا الأدب الفعال، تحمل رسالة قومية مثلى. فتلك الفئة الواعية من الأدباء الذين يستوحون أدبهم من مجتمعهم يستطيعون على الأيام أن يخلقوا جيلا واعيا من القراء يتحسسون بدورهم واقع مجتمعهم، ويكونون نواة الوطنيين الصالحين. وهكذا تشارك المجلة، بواسطة كتابها وقرائها، في العمل القومي العظيم، الذي هو الواجب الأكبر على كل وطني...][1].

وقال عنها الدكتور "فؤاد الحاج" من مجلة البيان الكويتية:

[وفي مطلع الخمسينات ظهرت "الآداب" التي أسسها سهيل إدريس وعنيت بالقضايا القومية والوطنية ونشرت إبداعات قيّمة ودراسات جادة واتخذت مواقف واضحة من القضايا السياسية والثقافية التي كانت مطروحة في ذلك الوقت.][2].

وهكذا ومن هذين النصين تتضح الأهداف الكبرى لمجلة الآداب من خلال ما تنشره من شعر وقصص وأبحاث ودراسات نقدية وتاريخية، لكتب تصب كلها في اتجاه واحد هو الاتجاه العربي القومي، والذي يظهر بوضوح على جميع أعدادها حيث أنه لا يكاد يخلو عدد واحد من أعدادها من هذا التوجه.

فقد طرقت وعالجت في هذا الصدد عدة موضوعات لها صلة وطيدة بالواقع المعاش آنذاك(الخمسينات والستينات من القرن الماضي) في مختلف جهات الوطن العربي، وعلى اعتبار أن جل أقطاره في تلك الفترة كانت قد تحصلت على استقلال حديث، فقد ظلت المجلة تناشد غايات سامية ترمي إلى تثمين هذا الاستقلال وتحصينه من مخاطر الاستعمار الأخرى ولن يتأتى ذلك في نظر المجلة سوى بالوحدة القومية، ففي إحدى المقالات نجدها تؤكد على أن بقاء التجزئة هو بقاء للاستعمار وتدعيم لسيطرة الأقلية المستغلة التي تبني قوتها على حساب مصلحة

---

[1] – سهيل إدريس: (رسالة الآداب) << افتتاحية >> مجلة الآداب، العدد: 01، بيروت، لبنان: جانفي 1953م ص: 01.

[2] – موقع على الانترنت، (www.google.fr)

العرب العليا، ليس هذا فحسب بل أن بقاء التجزئة بقاء للضعف والذل واستمرار للفشل والانحلال، ولهذا كان من الطبيعي أن تكون الوحدة العربية هدفا أساسيا للعرب في هذه المرحلة التاريخية.([1])

وقد كانت الجزائر أنموذجا حيا لهذا الاهتمام منذ الأيام الأولى لاندلاع ثورة الفاتح من نوفمبر أربعة وخمسون تسعمائة وألف إلى الاستقلال في الخامس من جويلية عام اثنان وستون تسعمائة وألف، هذا الاستقلال الذي لم يكن ثمرة جهد بسيط، بل ثمنه كان أغلى ما تملك الجزائر، إنه خيرة أبنائها الذين قدموا أنفسهم قربانا على مذبح الحرية، ويكفي أن هذا الاستقلال قد جاء بعد قرن وربع قرن من الاستعباد والقهر... وما دفعته الجزائر مقابل هذا النصر والاستقلال تقر به جميع الأمم والشعوب من حيث أنه منقطع النظير، لذلك نجد العديد من الأصوات التي كانت تشكك في استقلال الجزائر في يوم من الأيام هي تنظر إليه اليوم على أنه معجزة القرن العشرين في الحركات التحررية.

ووقفت مجلة الآداب من الحدث موقف المنتمي إليه فهي تعتبر نفسها طرفا في هذا النصر، فكتبت عنه الكثير بادئة بإحصاء ثمن هذا الاستقلال من أنه متباين عن باقي البلاد العربية فنقول:

[لاستقلال الجزائر معان تباين أعمق المباينة المعاني التي ألفناها في استقلال البلدان العربية الأخرى...]

وهذا التباين تفسره المجلة بعدة أسباب منها: طبيعة الاستعمار في الجزائر والذي كان يعتبرها جزءا منه لا يمكن التخلي عنه في يوم من الأيام، بينما في البلاد العربية كان الانتداب... والذي لم يطمح أبدا للاستمرار بالبقاء بها. فتقول:

[... لقد كانت تلك الأقطار خاضعة للانتداب – من حيث التسمية الدولية– وإن يكن ذلك الانتداب لونا من ألوان الاستعمار. ولم يكن الاستعمار يدعي بالتالي أي حق دائم في البلد العربي الذي يحكمه، وأي نسب قربى بينه وبين أبنائه، أما في الجزائر فالشأن مفارق لهذا، إن فرنسا تعتبر الجزائر جزءا منها، وهي تقيم فيها بجيوشها وبمستوطنيها منذ أكثر من قرن وربع، محاولة خلالها أن تمحو كل طابع ذاتي لها وأن تحقق دمجها النهائي بفرنسا...]([2])

كذلك بالنظر إلى التضحيات التي قدمها هذا الشعب في سبيل هذا الاستقلال، والتي لم يكن لها مثيل في أي قطر من الأقطار العربية.

[... ولقد بذل الجزائريون من التضحية والحرمان ما يعجز عنه إلا الشعوب الصامدة ذات الطاقة العجيبة على المقاومة، وقدم على مذبح حريته مئات الألوف من الشهداء، وكشف من ألوان البطولة والفداء ما يعز نظيره لدى الشعوب، بل أن هذا النضال العظيم كان مفاجأة الشعب العربي لنفسه ولإمكانياته. وكان رمزا معبرا عما يستكن

[1] – شبلي العيسي: (حول الوحدة و الاتحاد)، مجلة الآداب، العدد: 02، بيروت، لبنان: فيفري 1956م، ص: 03.

[2] – عبد الله عبد الدايم: < الجزائر المستقلة و الثورة> مجلة الآداب، العدد: 08، بيروت، لبنان: أوت1962م، ص: 01

في هذا الشعب من طاقات ضخمة وإيمان عظيم بقدراته على المقاومة وعلى انتزاع حقوقه وقسر الأعداء على التسليم بحقوقه...][1].

وفي نفس السياق تقول المجلة في عدد أخر:

[... وهكذا كانت المعركة ضد فرنسا في الجزائر معركة لا كالمعارك، وكان تحقيق استقلال الجزائر عملا يتطلب من الصلابة والعزيمة ما يفوق أعمق معاني الثورة وأقساها. لقد كان يتطلب موقفا يصهر المناضلين في مغامرة قومية وإنسانية كبرى، طريق الحياة فيها هو طريق الموت، وسبيلها سبيل من تنازل عن الحياة فذلت له الحياة ودانت...][2]

بالإضافة إلى طول مدة الكفاح والتي كانت بمثابة تربص للشعب الجزائري، حيث ربته الثورة على روح الاتكال على النفس والعزم على تحقيق الغاية المنشودة في جو من التلاحم والتكاتف منقطع النظير بين جميع شرائح المجتمع، لذا حق على الجميع تسمية الكفاح في الجزائر بالثورة الشعبية. وهذا ما أكده الكثير من الكتاب([3])

[... وتلحظ بيسر أن لا مجال في تلك الأرض، وهذه النفوس، للاسترخاء والدلال والميوعة التي نشهدها في كثير من بلادنا العربية. إنهم جميعا يريدون أن يكونوا على مستوى الثورة التي عاشوها طوال ثماني سنوات، والتضحيات التي قدموها بمئات الألوف من الأرواح... بمثل هذه الزغاريد كانت الأمهات يودعن أولادهن الذاهبين إلى ساحة الكفاح، وبمثل هذه الزغاريد كن يستقبلن استشهاد أولادهن في ساحة الشرف. إنهن لم يعرفن الولولة يوما، وإنما كانت كلها زغاريد تطلق لمجد الجزائر وحريتها...][4].

أما موضوع الاستقلال فقد طرحته المجلة في عدة أعداد كخيار لا بديل عنه، مستهزئة بجميع الحلول الترقيعية التي طرحتها فرنسا، والتي تريد من ورائها مغالطة الجزائريين وبالتالي تخليهم عن الثورة. فتقول:

[... الحل الوحيد الذي لا تحتمل سواه قضية شعب عربي ما زال يناضل منذ قرن وربع القرن دفاعا عن استقلاله وحريته وقوميته وكل حل آخر اقترح أو يقترح، فلن يعدو أن يكون تهربا ربما دل على براعة الساسة لكنه يترك المشكلة قائمة، ويبقى أشد وأعنف حين يتلاشى أثره المخدر. إن الجزائر عربية ولن يحل مشكلتها شيء أدنى من الاستقلال الوطني وهي حقيقة يفهمها الشرفاء من الفرنسيين، بل يفهمونها أنها أيضا الضامن الوحيد لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من علاقة فرنسا بالجزائر، وخير ما يتمثل به هذا الاستقلال جمهورية جزائرية عربية ديموقراطية تضمن لجميع الجزائريين من وطنيين ومستوطنين حقوقهم الشرعية.][5].

---

[1] – الآداب: << افتتاحية >> < تحية إلى الجزائر> مجلة الآداب، العدد: 11، بيروت، لبنان: نوفمبر 1959 م، ص: 01.

[2] – عبد الله عبد الدايم: المصدر السابق.

[3] – حنة اريندت: رأي في الثورات، تعريب خيري حماد، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة: ب.ت، ص: 308.

[4] – سهيل إدريس: < على ارض الجزائر> < افتتاحية >، مجلة الآداب، العدد: 12، بيروت، لبنان: ديسمبر1962م، ص: 01.

[5] – رئيف خوري: < الحل الوحيد لقضية الجزائر>، مجلة الآداب، العدد: 04، بيروت، لبنان: آفريل 1957م، ص: 75.

وعندما لاحت تباشير النصر نجد الفرحة والابتهاج باديان على صفحاتها، وفي جميع الموضوعات التي تناولت القضية الجزائرية، ومن ذلك ما ورد في احد الأعداد [البشرى لنا، أيتها الجزائر العظيمة، يا أرض البطولات الخالدة! ... اليوم فقط بلغنا، أيتها الجزائر، نبأ وقف النار في أرضك المقدسة، فلم يتح لنا بعد أن نفيق من نشوة النصر...][1]

وكتبت في مقام أخر بنفس مناسبة وقف إطلاق النار:

[... ويوم لاحت بشائر النصر في آفاق الجزائر، ووقف شعبها البطل يأبى أن يسلم ببعض أهداف الثورة، وأعلن أنه متمسك بكل تلك الأهداف تيقن الجميع أن هذا الشعب هو الرقيب العتيد الذي لا يغادر كبيرة ولا صغيرة من أمور ثورته الوطنية العربية إلا أحصاها. وكان يوم النصر، وتسلم الشعب زمام أموره، فسمع كل ذي سمع وشهد كل ذي بصيرة كيف استطاع هذا الشعب العربي الخالد أن ينتصر على إرهاب المجرمين من عصابة الجيش السري حتى ألقى بها وبمن وراءها في عرض البحر إلى حيث لا أمل في العودة...][2]

وتعتز باستقلال الجزائر وثورتها، وتعتبرها ثورة عربية ردت الاعتبار للعرب ككل، بل انتقمت لهم من الاستعمار الذي ظل ينظر للشعوب العربية على أنها شعوب متخلفة لا تصلح إلا للاستعباد والاستعمار، كما نجدها تعلق عليها آمالا كبيرة لتخليص العرب مستقبلا من تبعات الاستعمار، وتنظر إليها على أنها صاحبة فضل على العرب إذ أنها ردعت الاستعمار وزادت من تلاحم الشعوب العربية وضاعفت من قوة الشعور القومي وهذا ما ذهب إليه أحد الكتاب([3]). وفي كثير من الأحيان نجدها تتبنى الثورة الجزائرية وتعتبر نفسها جزءا منها وذلك باستخدام عبارات: ثورتنا، جزائرنا، روحنا الثائرة... فكتبت في إحدى الافتتاحيات:

[... إن هذه الكلمة القصيرة، وكلمات طويلة كثيرة أخرى، لأعجز من أن تعبر عما نحن مدينون به لك ولثورتك، ولكننا نعتقد مع ذلك بأن هذه الثورة، ستعمل كما تعمل كل ثورة عربية مخلصة على رد القيمة للحرف العربي، هذا الحرف الذي ما يزال يهدره كثير من التدجيل والنفاق، وسيكون من شأن ثورتك أن يرفعه من جديد إلى صعيد الحرمة والقداسة. ستظلين يا جزائر، إلى مدى بعيد مهوى أفئدتنا، ومنار تاريخنا الحديث، ومشعل حريتنا المنتصرة. وكلما واجهتنا صعاب جديدة، وستواجهنا من غير ريب، فحسبنا أن نذكر ثورتك ونضالك، لنمتلىء عزما وإقداما، وحسبنا أن نذكر تضحياتك، لتهون لدينا كل تضحية.

أيتها الجزائر العظيمة! تحية تمجيد واعتزاز! تحية إلى روحك، روحنا الثائرة، التي لن تنطفىء شعلتها إلى الأبد. تحية حب، يا جزائر!][4]

---

[1] – الآداب: < تحية إلى الجزائر> < افتتاحية >، مجلة الآداب، العدد: 04، بيروت، لبنان: آفريل1962م، ص: 01

[2] – أحمد الجواري: < عروبة الجزائر> مجلة الآداب، العدد: 12، بيروت، لبنان: ديسمبر1962م، ص: 04.

[3] – عبد القادر البنداري: فلسفة الكفاح العربي نحو الوحدة والتحرر، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة: 1960، ص: 49.

[4] – الآداب: تحية إلى الجزائر، المصدر السابق.

ويكتب رئيس تحرير المجلة في احد أعداد الاستقلال معتزا بثورة الجزائر ومبتهجا بها أثناء زيارة له إلى الجزائر. الأولى من نوعها في الأيام الأولى للاستقلال فيقول: [... خرجت ذات ليلة إلى حديقة الفندق الذي كنا ننزل فيه وبيدي زجاجة فارغة. وحين انحنيت إلى الأرض، ومست يدي التراب، سمعت أحد خدم الفندق يسألني: ما الذي تفعله يا سيدي؟ فأجبته من غير أن أرفع إليه بصري: أملأ هذه الزجاجة من تراب الجزائر. فانحنى أمامي وهو يقول: دعني أملأها عنك. قلت: بل دعني أملأها بيدي. إن هذا تراب مقدس أريد أن أحمل حفنة منه إلى بلدي. وحين عدت بالزجاجة، شعرت بأنها تثقل في يدي ثقلا غير طبيعي. إنه تاريخ الجزائر المجبول بالدم والإباء][1]

وتنشر المجلة بداية من العدد الرابع لسنة 1962م، موضوعات كلها تعبر عن الفرحة والابتهاج بالنصر الذي حققته الثورة الجزائرية بمناسبة توقيع اتفاقية إفيان ووقف إطلاق النار في 19 مارس 1962م، هذه الموضوعات تنوعت بين الافتتاحيات والمقالات والقصائد، ففي إحدى تلك القصائد نجدها تطري وتثني على بعض زعماء الثورة الجزائرية الذين ذاع صوتهم في الوطن العربي، ومن بينهم " أحمد بن بلة " فتقول فيه:

[... عرفت عنك الكثير
قرأت عنك الكثير
سمعت عنك الكثير
لكنني لم استطع أن أراك
فأنت هذا .. وذاك..
بن بلة
بن بلة
يا لمحة في الأفق الممتد، يا وهلة
تختصر التاريخ في جمله
بالدم مروية: عاشت الحرية...][2]

وأخر يقول قصيدة في نفس الشخص، يطرب ويثني عنه، وأكثر من ذلك يعلق عليه آمالا عربية قومية تتصل بما تعانيه الأمة العربية من مشاكل استعمارية في ذلك الوقت، كضياع فلسطين في أيدي اليهود، فالشاعر يرى أن الثورة الجزائرية مثلما تمكنت من هزيمة أكبر قوة استعمارية في ذلك الوقت، هي فرنسا والحلف الأطلسي، فإن الآمال معلقة عليها والأنظار العربية موجهة إليها لتخليصهم من الخطر اليهودي فيقول:

[... نار على أعدائنا الحاقدين

[1] – سهيل إدريس: < على أرض الجزائر> < افتتاحية >، مجلة الآداب، العدد: 12، بيروت، لبنان: ديسمبر 1962م، ص: 03

[2] – كاضم جواد: < أربع قصائد إلى الجزائر الظافرة > مجلة الآداب، العدد: 05، بيروت، لبنان: ماي1962م، ص: 04.

يا فارسا مر.. فضج العراق
مواكبا سمرا، وفجر انطلاق
موجا يدوي باسم كل العرب الخالدين
باسم المثنى يا أبا الثائرين
متى نرى " وهران " بعد الفراق
تشدها للعراق.. للشام، للأهرام... لقيا عناق
متى يغني الرفاق
انشودة الفجر على أشلاء صدر الحدود
متى نرى وجهك عبر السدود
يصرخ في الليل " ياهوذا ": نعود
غدا، على أشلاء كل اليهود
أشلاء تجار الردى والحروب
أعداء كل الشعوب
متى متى يا أحمد الثائرين
تزهو بنا الأحلام للحالمين][1].

وفي مطلع قصيدة أخرى نجد الشاعر يصور الحرب التحريرية بالعواصف والتي هدأت بوقف إطلاق النار، ثم ينتقل إلى الحديث عن الغد المشرق في جزائر الاستقلال، والذي يرى فيه الجزائر قلعة للسلام إذ يقول:

[ستهدأ العواصف.. والليل والمخاوف
وتصبحين للسلام قلعة حصينة
تنبع من شعابها الأنغام والسكينة...]

ويواصل عرض التضحيات التي قدمتها الجزائر في سبيل هذا النصر، وما يقابله من هزائم متتالية للاستعمار، فيصور ثورة الجزائر بالنصر القومي العربي ويذهب إلى تشبيهه بانتصارات " صلاح الدين الأيوبي " إذ يقول في هذا الصدد:

[... عاد صلاح الدين من قلب السنين ملهما
ودمدما وحوما
وقال للشعوب سيري فالظلام انهزما
فلن تعودي ورقا.. تذرف ريح ورقا

[1] – محمد جميل شلش: < إلى أحمد بن بلة > مجلة الآداب، العدد: 12، بيروت، لبنان: ديسمبر1962م، ص: 05.

فتسكنين الغسقا

وتمضغين ألقلقا

وتصبحين مثلما قد كنت أمس مزقا

جزائري.. جزائري يا حلم المخاضر

ستزرعين.. تحصدين.. شجر الزيتون

لك الكروم.. والظلال.. لا لذاك السين

فما كبا جوادك الأمين في السنين

يحرس أبواب الشمال ضاحك الجبين...][1].

وشاعر أخر يضع عنوانا لقصيدته هو: <<أغنية العودة>> وتكتب المجلة تحت هذا العنوان: <<إلى الشعب الجزائري المنتصر>> وهي قصيدة تتحدث عن الفرحة بالنصر، وقيمة الاستقلال الجزائري الذي هو في حقيقته استقلالا للعرب ورمزا لقوتهم وشهامتهم، ومن جملة ما جاء فيها: [... العود حميد يا عشاق الإنسان

يا رواد القمة

غنوا الشمس على أبيات الأحرار

غنوها في عين مدينتنا

وعيون الأحباب الشرفاء

في عالمنا الأتي الأكبر

غنوا، لن يفنى سحر الحرية

غنوا، فالليلة موعد أحبابي.][2].

وفي الأخير يمكن القول أن كل تلك الموضوعات التي نشرتها المجلة تعبر فعلا عن متابعتها الدقيقة لأحداث الجزائر، بل عاش محررو هذه الموضوعات كل تلك الأحداث فنجدهم يتأثرون بما يحزن وما يفرح، وما هذه القصائد إلا دليلا على تلك الانفعالات الصادقة، كما تؤكد أن المجلة ليست صرحا أدبيا بقدر ما كانت منبرا سياسيا تُطرح عليه قضايا الأمة وانشغالاتها، فكانت قضايا الثورة الجزائرية بالنسبة لها ليست قضايا جزائرية فحسب بل عربية قومية وجب الوقوف إلى جانبها وتقديم العون لها حتى ولو بالكلمة والقلم وهما في الحقيقة خطيرين على الاستعمار خطورة القنبلة والرشاش، فذهبت في البداية إلى فضح الاستعمار وأساليبه الهمجية في التصدي للثورة الجزائرية، كما عملت على شحذ الهمم وتقوية العزائم لدى الجزائريين، وأكثر من ذلك فهي تدعو صراحة إلى تقديم الدعم المادي

[1] – محيي الدين فارس: < الجزائر و السلام > مجلة الآداب، العدد: 12، بيروت، لبنان: ديسمبر 1962م، ص: 05.

[2] – حسن فتح الباب: < أغنية العودة > مجلة الآداب، العدد: 09، بيروت، لبنان: سبتمبر1962م، ص: .33

والسياسي لهذه الثورة، لتصل معها إلى النصر فتسخر صفحاتها للإعلان على هذا الإنجاز العظيم والفريد من نوعه حتى تطلع شعوب العالم على عظمة هذا الشعب، الذي هو جزء من الأمة العربية رغم محاولات الاحتلال المتكررة لتزييف وتحريف شخصيته وقوميته.

الكتابات الأثرية العربية في المغرب الإسلامي

مقاربة هستوغرافية

د. سرحان حليم. جامعة محمد بوضياف المسيلة

مقدمة:

تعتبر الكتابات الأثرية الإسلامية عامة، والمغربية خاصة من أهم المصادر الحسية التي نالت اهتمام الدارسين المعاصرين، واعجابهم لا سيما منهم المستعربين المتخصصين في مجالات الدراسات الأثرية، والتاريخية، والفنية[1]، ويبدو التداخل بين تلك المجالات واضحا في كثير من تلك الأعمال المعمارية ذات البعد التراثي، والتي تحمل نقوشا وكتابات متنوعة نفذت بعدة طرق، واستعملت في تجسيدها على أرض الواقع خطوط مختلفة مثل الكوفي، والمغربي، والأندلسي كان الغرض الأول من انجازها تخليد ذكرى مؤسسها، وتوريث مناقبه عبر الزمن. وهي بلا ريب ذات قيمة كبيرة بالنسبة للباحثين، لما لها من دلالات حضارية جمة بما تحويه من ألقاب السلاطين، وأسماء الخلفاء، ووظائف الأمراء، وصيغ دينية، وعبارات سياسية، وشارات ملك، وشعارات مذهبية، وزخارف جمالية، ورموز، ومعلومات هامة يصعب الطعن في مضامينها بسهولة مسايرة لقول الدكتور صالح بن قربة[2]. وحتى نسلط الأضواء الكاشفة على جزء مهم من الكتابات المغربية في العصر الوسيط أثناء حكم الدولة المرينية بالمغرب الأقصى، والدولة الزيانية بالمغرب الأوسط، كان لزاما علينا أن نعرض لبعض النصوص المصدرية، والمرجعية التي تناولت هذا الموضوع القيم في هذا الميدان العلمي، مع التطرق إلى تراجم موجزة لأصحابها، وتبيان أهميتها فيما يلي:

أولا_ محمد بن عبد الملك المراكشي:

ولد أبو عبد الله محمد بن محمد بن سعيد عبد الملك الأنصاري الأوسي المكنى بالمراكشي نسبة لمكان مولده الذي قال هو نفسه عنه:

اعلم بأن مولدي بالحضرة * * مراكش العليا دار الإمرة

وحسب ما جاء في أقوال بعض الكتاب على اختلاف سندهم الذي اعتمدوه، فمنهم من جعل تاريخ مولده في سنة 634هـ/ 1234م، واجتهد أخرون في وضع سنة 627هـ/1230م، درس ابن عبد الملك على جماعة من الشيوخ بلغ عددهم قرابة الخمسين شيخا منهم الرعيني، ابن هشام، ابن عفير، وابن عتيق الذي قرأ عليه برهة من الزمن بمدينة مراكش حوالي سنة 650هـ، وأبا القاسم البلوي، وأبا محمد حسن ابن القطان، وأبو إسحاق إبراهيم

1_ صالح يوسف بن قربة: **أبحاث ودراسات في تاريخ وآثار المغرب الإسلامي وحضارته**، دار الهدى، الجزائر، 2011.، ص ص، 187-192.

1_ صالح بن قربة: **"مقدمة لدراسة الكتابات الأثرية المغربية في العصر الإسلامي"**، مجلة الدراسات الأثرية، عدد2، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 1992.، ص، 54.

بن أحمد وغيرهم من فطاحل عصره[1]. ويذكر أن من بين أصحابه وأقرانه الذين درسوا معه عند أولئك الأساتذة العبدري محمد صاحب الرحلة المعروفة، وكذا ابن رشيد السبتي مؤلف الرحلة الجامعة المستوعبة للفوائد، ومنهم أبو جعفر أحمد بن محمد البلنسي وما سواهم. ومن تلاميذه ابن فرحون على سبيل الذكر. تقلد صاحبنا عدة وظائف في الفترة التي عرفت فيها البلاد اضطرابات جمة منها زوال دولة الموحدين وقيام دولة المرينيين حيث شغل منصب كتابة الشروط وعقد الوثائق التي أصبح فيها عمدة الكتاب، كما ولي القضاء بمدينة مراكش مدة من الزمن في عهد السلطان يوسف بن يعقوب (685هـ-706هـ) ثم عزل من منصبه وقد اختلف في تحديد سنة وفاته فهناك من أرجعها إلى سنة 708هـ/1308م[2]، ومن قال عكس ذلك أي سنة 703هـ/1303م[3].

يعتبر كتاب الذيل والتكملة أكبر موسوعة مغربية مدونة في التراجم، وهو إصلاح الهفوات التي جاءت في كتاب الصلة لابن بشكوال، وتكمن أهمية الكتاب في إضافة تراجم الغرباء

إلى الأندلسيين الذين دخلوا شبه الجزيرة من المغاربة، ولابد من الإشارة إلى أن التراجم الأندلسية الواردة فيه تحوي أخبارا عن الحياة الفكرية في المغرب خلال العصر الموحدي. كما اشتمل الذيل على تراجم النساء، وأسماء الكنى، وأسماء البلدان الأندلسية وغير الأندلسية، ويبدو أن المراكشي توفي قبل أن يتم انجاز ما وعد به في مستهل مؤلفه.

ويذكر محمد المنوني أن الذي كان معروفا من الذيل إلى أواخر القرن الهجري التاسع، هو تسعة أسفار، وبقي منه في الوقت الراهن خمسة، نشر في بيروت أربعة منها برعاية دار الثقافة. وهذه الأسفار سنتناولها جميعها على النحو التالي:

1_ السفر الأول في جزأين بهما 871 ترجمة جاءت في 567 صفحة ماعدا الفهارس وذلك بتحقيق محمد بن شريفة، وهو سفر خاص بمن اسمه أحمد من حرف الألف.

2_ السفر الرابع وهو الجزء الذي تبقى من هذا السفر، ويشمل على 407 ترجمة وردت في 234 صفحة، وقد حوى في طياته الحروف (س، ش، ص، ض، ط، ظ، وع).

2_ ينظر تقديم محمد بن شريفة في: المراكشي: **السفر الثامن من كتاب الذيل و التكملة لكتابي الموصول و الصلة، القسم الأول**، تقديم وحقيق وتعليق محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1984.، ص ص، 10-42.

1_ عبد العزيز الأهواني: " **الذيل و التكملة لكتابي الموصول و الصلة** " صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد 13، مدريد، إسبانيا، 1965-1966.، ص، 187.

2_ ينظر مقدمة إحسان عباس في كتاب المراكشي: **الذيل و التكملة لكتابي الموصول و الصلة**، السفر الرابع، نشر و توزيع دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1965.، ص، 6.، ينظر: عبد القادر بوباية وآخرون: **مصادر ومراجع تاريخ المغرب الأوسط (الجزائر) خلال العصر الوسيط**، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، 2014.، ص،169.

3_ السفر الخامس يتألف من جزأين بهما 1299 ترجمة جاءت في 695 صفحة، وفيه الحروف (غ، ف، ق، ك، ل، م).

4_ السفر السادس ورد في جزء واحد به 1292 ترجمة في 500 صفحة ويشمل على بقية حرف الميم. وما تنبغي الإشارة إليه أن هذا السفر ومعه الرابع والخامس تم تحقيقهم من طرف الدكتور احسان عباس[1].

كما تكمن أهميته من جهة أخرى بالنسبة للكتابات المغربية في العصر الوسيط، في كونه يمدنا بقدر كاف من المعلومات التي ترتبط ارتباطا وثيقا بتراجم كثير الشخصيات المغربية العلمية والفكرية، والدينية، وغيرها التي عاشت في الفترة محل الدراسة، لاسيما الشق المتعلق بدراسة شواهد القبور التابعة لهؤلاء بمدينتي سلا والرباط. فلا تقوم دراسة من هذا القبيل إلا باعتماده.

ثانيا_ ماكس فان برشم:

ينحدر هذا المستشرق الذي يعد بحق مؤسس علم الكتابات العربية، والخبير الفذ في الآثار الاسلامية من أسرة فلمندية استقر بها المقام لفترة طويلة بمدينة جنيف السويسرية، حيث ولد هنالك في16مارس سنة 1280هـ/ 1863م[2]. تعلم تاريخ الفن في الجامعات الألمانية ليبسيك، وبرلين إلا أنه لم يشتغل كأستاذ بأي منها، كما درس بمدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس، ثم بمصر، وبقي عالما حرا وعصاميا يعتمد على التحصيل الذاتي للمعارف المختلفة[3]. ثم انتخب عضو بالمجمع العلمي العربي بدمشق. انكب منذ ذلك الوقت الذي بدأ فيه التجوال في المشرق الإسلامي أي في سنة 1886م حسب ما ذهب إليه غاستون فيت على دراسة الكتابات العربية الموجودة على التحف، واللقى الأثرية المنقولة من المعالم التاريخية ملزما نفسه بوضع كتاب جامع لها رصد فيه ما توصل إليه الكتابات العربية المنقوشة عليها وتفسيرها تفسيرا فيلولوجيا يخدم هذا المجال العلمي التطبيقي مثل ما فعلت أكاديمية النقوش والآداب الجميلة في العاصمة الفرنسية باريس، وأدرج هذا العمل تحت عنوان: (*Corpus inscriptionum Arabicarum*)[4].

وتجدر الإشارة إلى أنه ربط دراسته بتلك الآثار التي وجدت عليها هذه الكتابات سواء كانت عمائر أو مسكوكات لاقتناعه التام بوجود علاقة وطيدة بين الأثار والكتابة لا يمكن فصلها عن المسيرة التاريخية التي تجمعهما، وجاءت

1_ محمد المنوني: **المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى العصر الحديث**، ج1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، المغرب، 1983، ص ص، 71-72.

2 _ *Gaston Wiet : « **Max Van Berchem (1863-1921): Créateur de L'épigraphie Arabe** », revue Suisse d'histoire, n°13,Genève, La suisse, année 1963., p, 379.*

3_ عمر رضا كحالة: **معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية**، الجزء3، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1993.، ص ص، 8-9.

1_ عبد الرحمان بدوي: **موسوعة المستشرقين**، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1993، ص، 90.

مؤلفاته على هذه الوتيرة: (*Matériaux pour un corpus inscriptionum Arabicarum*) إذ اشتمل المجلد الأول منها الكتابات الموجودة في القاهرة، والثاني احتوى الكتابات الموجودة بمدينة القدس، والمجلد الثالث خصص لآسيا الصغرى بالاشتراك مع الباحث خليل أدهم. كما قام بالكتابة في موضوعات متفرقة تتعلق هي الأخرى بالكتابات في كل من ديار بكر، وأرمينية، وسورية، والعراق. توفي سنة 1339هـ/ 1921م.

ومن أعماله التي كرسها للكتابات المغربية، وسنقوم بعرضها، وتحليلها، ونقدها ما يلي:

« *L'épigraphie Musulmane en Algérie étude sur le corpus* » , *revue Africaine, volume 49, A. Jourdan, Alger, 1905., pp,160-191.*

« *Titres califiens d'occident, À-propos de quelques Monnaies Mérinides et Ziyanides », journal asiatique, Dixième série, TIX, Paris, 1907. Pp, 245-335.*

يتناول هذا الباحث في الموضوع الأول المذكور قبل حين الكتابات الإسلامية بالجزائر مشيرا بذلك إلى جهد اثنين من أشهر المتخصصين في هذا المجال هما مرسييه وكولين، اللذين اهتما بمتابعة كل ما وصلت إليه يداهما من اللقى الأثرية الأبيغرافيا في تلمسان، والجزائر، وقسنطينة زيادة على المغرب، والقيروان بتونس.

أما الموضوع الثاني فيعالج فيه الألقاب الخلافية الواردة في السكة الإسلامية في الغرب الإسلامي في دولتي بني مرين على عصر السلطان أبي عنان المريني (749 -759هـ/ 1348-1358م)، ومنها السلطان عبد الله أمير المؤمنين المتوكل على الله، ابن الأئمة المهتدين الخلفاء، وما إليها من ألقاب[1]. أما دولة بني زيان في عصر أمير المؤمنين أبي تاشفين عبد الرحمان الأول (718-737هـ/ 1318-1337م) فيخصص لها حيزا معتبرا في بحثه على شاكلة سابقه. تبعا لما سبق يبدو أن ما قدمه فان برشم يخدم موضوع الكتابات في ذكره لمختلف الألقاب والشعارات المنقوشة على السكة المغربية ومقارنتها بمثيلاتها في المشرق والمغرب متتبعا ظهور الألقاب الخلافية عبر جميع الدول التي ظهرت في المنطقة مرورا بالفاطميين، والزيريين، والحماديين، والمرابطين، والموحدين.

ثالثا_ جوزيف بوريلي:

ولد بمدينة طولون الواقعة جنوب فرنسا في 21مارس 1878م، ينحدر من عائلة ثرية، ومتعلمة، تلقى مبادئ العلم في مسقط رأسه، ثم سافر إلى جامعة إكس أونبروفانس لاستكمال دراسته في الحقوق، وسرعان ما توجه نحو الدراسات الإنسانية، ومنها إلى علم الأثار متخصصا بادئ الأمر بالعصر الحجري الحديث باحثا، ومنقبا. جند في الحرب العالمية الأولى، وأرسل إلى تازا بالمغرب الأقصى، وكان يقضي معظم أوقات الفراغ متجولا في المواقع الأثرية

[1]_ *Max van Berchem :* ***« Titres califiens d'occident, À-propos de quelques Monnaies Mérinides et Ziyanides »,*** *journal asiatique, Dixième série, TIX, Paris, 1907. Pp,247-253 .*

المنتشرة هنالك، وبعد برهة من الزمن، أي في نهاية الحرب أطلقت السلطات العسكرية سراحه إذ أدرج اسمه ضمن قائمة هيئة التدريس بثانويتي وجدة، والرباط آخر الأمر. ويظهر أن الأجواء الجديدة هنالك ساعدته على المقام بعد التقائه مع نخبة من المستشرقين أمثال إميل لاوست، وليفي بروفنسال، وهنري تراس ونظرائهم أرغمته على البقاء وعدم العودة إلى فرنسا، حيث بقي إلى غاية وفاته بالدار البيضاء بالمغرب في 15جانفي سنة 1929م. عمل بالقضاء لبرهة من الزمن ثم حول نشاطه بمعية المستشرق لاوست إلى دراسة النصب الجنائزية، وشواهد القبور المغربية بمدينتي سلا، والرباط، إلا أن ما يميز نشاطه في مجال البحث العلمي ميله أكثر إلى الأبحاث الأنثروبولوجية التي جعلت الانسان محورها الأساسي، ترك بعض الأعمال منها على سبيل الذكر:

_ *« Stèles funéraires marocaines », en collaboration avec E. Laoust. Hespéris, tome03, Rabat, 1927.*

_ *« Découvertes préhistoriques au Maroc oriental » Bulletin soc. Préhistoire. France T12, France, 1915*[1].

ولا يسعنا بعد هذا العرض الموجز عن سيرة الباحث بوريلي إلا ترك الحديث عن موضوع شواهد القبور المغربية إلى حين عرض ترجمة المستشرق إميل لاوست فيما يلي:

رابعا_ إميل لاوست:

ولد المستشرق المختص في اللسانيات بمنطقة فرن سير إسكوا شمال فرنسا في 20 جويلية سنة 1876م، بدأ مشواره المهني مدرسا في بعض المدارس الابتدائية شمال فرنسا ثم انتقل إلى الجزائر أي إلى بلدة حجوط الواقعة بمدينة تيبازة، وبعدها انتقل إلى غرداية قبل أن يناقش رسالة الدكتوراه بجامعة الجزائر سنة 1912م ثم اشتغل أستاذا في المدرسة العليا للغة العربية واللهجات البربرية بمدينة الرباط المغربية بدأ من سنة 1935م، حيث كرس حياته المهنية من أجل تدريس تلك اللهجات المختلفة السائدة بين السكان لاسيما البربر منهم المقيمين في الشمال الإفريقي. حيث استقر به المقام بالمغرب الأقصى فترة طويلة من الزمن مدرسا وكاتبا إلى غاية وفاته بمدينة الرباط سنة 1952م[2]. وقد خلف وراءه ولدا نجيبا حمل لقبه، وسار على دربه في ميدان الدراسات الاستشراقية يدعى هنري لاوست (1905-1983)، كان أستاذا مبرزا في الكوليج دي فرانس في العاصمة الفرنسية باريس[3].

تكمن أهمية هذا النص:

---

[1] _ *Georges Souville : « **Joseph Bourrilly (1878-1929)** », Académie des Sciences d'outre-mer. Hommes et **Destins**, tome VII, Maghreb, pp.93-95.*

[2] _ *François pouillon : **dictionnaire des orientalistes de Langue française**, éditions Karthala, paris, 2008. p, 561.*

[3] _ *Alain Messaoudi, **Les arabisants et La France coloniale annexes**, ENS éditions, Lyon, France, 2015. pp, 16,210-212.*

« ***Stèles funéraires marocaines »,*** *en collaboration avec E. Laoust. Hespéris, tome03, Rabat, 1927.*

في كونه يمدنا بمعلومات قيمة عن الكتابات الشاهدية، والجنائزية بمدينتي سلا (سيدي هشام، وسيدي بن عشير) لاسيما تلك الواقعة على ساحل البحر، والقريبة من مصب أبي رقراق، والرباط (مقبرة شلا الخاصة بملوك الدولة المرينية)، مع تحديد أشكالها ومحتوياتها، ودراستها دراسة تاريخية أثرية، وفنية ومقارنتها مع مثيلاتها الإسلامية واليهودية في الجزائر[1].

خاتمة:

بناء على ما سبق يمكننا القول إن علم الكتابات الأثرية العربية عرف طريقه إلى الانتشار مع المستعرب السويسري ماكس فان برشم الذي وضع القواعد والأسس التي سار عليها المختصون في هذا الميدان العلمي بعد وفاته سنة 1921م. وتكمن أهمية الكتابات الأثرية في أنها قريبة زمنيا من الحقائق والأحداث التي تسجلها، وأنها محايدة لا مراء في ذلك يمكن الاعتماد عليها لأنها بكل بساطة تعوض النقص، وتسد الفراغ، وتزيل الغموض الذي تتركه عادة المصادر التاريخية دون تعليق أو توضيح. ومن ناحية ثانية تمتاز بأن التواريخ التي تقدمها تكون في غالب الأحيان صحيحة، الشيء الذي يجعل التزييف والتصحيف فيها قليل بل نادر الوقوع، علاوة على أنها تفيد في مراقبة أقوال المؤرخين، وتحليل نصوصهم الموثقة وتساعد في إثبات صحتها أو الكشف عن أخطائها إن وجدت، كما تمدنا بمعلومات قيمة مستمدة منها.

---

[1] *J.Bourrilly et E. Laouste : « **Stèles funéraires marocaines »,** collection Hespéris, n°03, institut des hautes-études marocaines, Librairie Larose, Paris , 1927. Pp, 1-94.*

العلاقات الجزائرية التركية زمن الثورة التحريرية 1956. 1962

الأستاذ الدكتور : مقلاتي عبد الله . جامعة المسيلة

مقدمة:

ترتبط تركيا بعلاقات متجذرة مع الجزائر، تستمد قوتها من البعدين الديني والتاريخي، حيث كانت الجزائر العثمانية امتدادا للإمبراطورية العثمانية طيلة ثلاث قرون كاملة، تركت بصمات واضحة على الروابط الحضارية بين البلدين، وفي بداية القرن العشرين جدد الوطنيون الجزائريون ارتباطهم بالخلافة العثمانية، ولكن مجيء أتاتورك وسياسة التتريك وضعت حدا لتلك الروابط، وعندما اندلعت الثورة الجزائرية ظلت جزائر الثورة بعيدة عن تركيا الرسمية خلال بداية الثورة، وذلك على الرغم من عواطف التضامن التي كان يكنها الشعب التركي للجزائر، حيث لم تبدي تركيا موقفا واضحا، وقد كانت باعتبارها عضوا في الحلف الأطلسي مكبلة بعلاقات صداقة مع فرنسا لا تسمح لها بمؤازرة الجزائر، وقد حاولت جبهة التحرير الجزائرية اختراق الموقف التركي بمناسبة انعقاد دول حلف بغداد في تركيا عام 1955 لكن دون جدوى.

ومع مرور الوقت وأخذ عدنان مندريس زمام المبادرة بدأت ملامح رسم العلاقات تتجلى، وجاءت الفرصة في بداية عام 1957 عندما زار رئيس الحكومة التركية مندريس ليبيا، وقررت عقد أولى الاتفاقيات أو الصفقات السرية التي كانت بداية الطريق لعلاقات سياسية ودبلوماسية سوية الى عهد الاستقلال وما بعده، فكيف تم ترتيب المباحثات الأولى لربط العلاقات السياسية، وما تأثير البعد الحضاري على توطيد العلاقات في عهد الثورة وبعد الاستقلال.

هذا ما نحاول الإجابة عنه من خلال فحص وثائق الأرشيف والشهادات، وذلك في المحورين الآتيين:

. ظروف رسم العلاقات الجزائرية التركية زمن الثورة وأثر البعد الحضاري.

. موقف تركيا الداعم للثورة أساس بناء العلاقات التركية الجزائرية المعاصرة.

أولا: تبلور العلاقات الجزائرية التركية زمن الثورة التحريرية:

ترتبط تركيا بعلاقات متجذرة مع الجزائر، تستمد قوتها من البعدين الديني والتاريخي، حيث كانت الجزائر العثمانية امتدادا للإمبراطورية العثمانية طيلة ثلاث قرون كاملة، تركت بصمات واضحة على الروابط الحضارية بين البلدين، وفي بداية القرن العشرين جدد الوطنيون الجزائريون ارتباطهم بالخلافة العثمانية، ولكن مجئ اتاتورك وسياسة التتريك وضعت حدا لتلك الروابط، وعندما اندلعت الثورة الجزائرية ظلت جزائر الثورة بعيدة عن تركيا الرسمية خلال بداية الثورة، وذلك على الرغم من عواطف التضامن التي كان يكنها الشعب التركي للجزائر، حيث لم تبدي تركيا موقفا واضحا، وقد كانت باعتبارها عضوا في الحلف الأطلسي مكبلة بعلاقات صداقة مع فرنسا لا

تسمح لها بمؤازرة الجزائر، وقد حاولت جبهة التحرير الجزائرية اختراق الموقف التركي بمناسبة انعقاد دول حلف بغداد في تركيا عام 1955 لكن دون جدوى([1]).

ومع مرور الوقت وأخذ عدنان مندريس([2]) زمام المبادرة بدأت ملامح رسم العلاقات تتجلى، وجاءت الفرصة في بداية عام 1957 عندما زار رئيس الحكومة التركية مندريس ليبيا، وقررت عقد أولى الاتفاقيات أو الصفقات السرية التي كانت بداية الطريق لعلاقات سياسية ودبلوماسية سوية الى عهد الاستقلال وما بعده، فكيف تم ترتيب المباحثات الأولى لربط العلاقات السياسية، وما تأثيرها على توطيد العلاقات في عهد الثورة وبعد الاستقلال. هذا ما نحاول الإجابة عنه من خلال فحص وثائق وشهادات تعرض لأول مرة.

انتهزت جبهة التحرير الوطني فرصة زيارة رئيس الحكومة التركية لليبيا في أوائل فيفري 1957 لتطلب من ابن حليم استغلال الفرصة لكسب الموقف التركي لصالح الجزائر، وقد أرسلت الى طرابلس وفدا ضم دباغين والمدني([3]) واحمد بودة([4])، وتدارس الوفد مع الإخوة الموجودين في ليبيا وعلى رأسهم مسؤول التسليح اوعمران السبل الكفيلة بإنجاح المسعى، ويبدو أنهم عولوا كثيرا على ابن حليم([5]) لمحادثة عدنان مندريس في الموقف التركي من القضية الجزائرية، ويذكر المدني ان الوفد التركي الذي نزل بالمطار قوبل بمقاطعة شعبية لا نعرف ما إذا كانت مقصودة أم عفوية، وان رئيس الحكومة أجاب مندريس المندهش أمام هذا الموقف بان سبب إعراض الليبيين عند استقبال الوفد التركي والاحتفاء به يرجع الى موقف بلاده من قضية الجزائر، ويضيف المدني أن ابن حليم نقل له أن مندريس تأثر كثيرا، وأكد له أن الأتراك يعطفون على قضية الجزائر ولكنهم مرتبطون مع فرنسا بعلاقات اقتصادية وسياسية، وانه يمكن تصحيح الموقف، وعندها اتفق معه ابن حليم على لقاء خاص في اليوم الموالي[(6)].

---

[1] محمد فاضل الجمالي: مواقف وعبر في سياستنا الدولية، صفحات من تاريخنا المعاصر، الشركة التونسية للتوزيع، تونس ، 1973، ص 279

[2] رئيس الحكومة التركية ذو التوجه الاسلامي، مثلت مرحلة حكمه طفرة في سلطة الحكم التركية التي يغلب عليها الطابع العسكري العلماني

[3] مساعد دباغين مسؤول الوفد الخارجي للجبهة ووزير الثقافة في الحكومة المؤقتة

[4] ممثل جبهة التحرير في ليبيا

[5] ثاني رئيس لوزراء ليبيا، استطاع أن يقود حكومة بلاده لأكثر من ثلاث سنوات حاسمة في تاريخ بلاده، كان من مظاهرها الرئيسية تقوية علاقات الود العربية مع مصر وتونس وثوار الجزائر، والسعي لبناء وحدة شمال إفريقيا، ودعم الثورة الجزائرية ، وتقييد العلاقات مع القوى الغربية على الرغم من الحاجة الماسة لإعاناتها الاقتصادية..الخ.

[6] انظر احمد توفيق المدني: المدني أحمد توفيق: **حياة كفاح مذكرات**، الجزء الثالث، ط2، م و ك ،الجزائر ،1988 . ص . ص 348 349

وان كان المدني أورد باقتضاب رواية ابن حليم له بخصوص هذا الاجتماع الحاسم فان ابن حليم خصه في مذكراته بتفاصيل ضافية، حيث يورد قصة الانفراد بمندريس في بيته، وكيف مهد له الموضوع بذكر فضائل الأتراك على الأمة الإسلامية وعلى شمال افريقيا، وحدثه عن سياسة فرنسا في الجزائر، وعرض عليه مطالب الجزائريين من السلطات التركية ممثلة في تغيير موقفها من فرنسا وتقديم مساعدات عسكرية سرية للثورة الجزائرية، حيث يقول ابن حليم: "بدأت حديثي معه بذكر لمحة تاريخية عن دور الأتراك العظيم في نشر الإسلام وزعامتهم للأمة الإسلامية عبر قرون عديدة من التاريخ الإسلامي المجيد...ثم عرجت بحديثي عن شمال إفريقيا وشرحت لمندريس مدى الظلم والقتل والتشريد الذي يعاني منه شعب الجزائر المجاهد ومحاولات فرنسا قمع ثورته الإسلامية وتنصيره وفرنسته، ثم دخلت في صلب الموضوع وقلت لعدنان بك أنني آمل أملا قويا أن تمد تركيا الشقيقة المسلمة الكبرى يد المساعدة لشعب الجزائر المجاهد في محنته الراهنة، قال مندريس أنه كمسلم يعطف بكل جوارحه على الشعوب الإسلامية جميعا وبنوع خاص على شعوب الشمال الإفريقي وهو على إدراك تام بما يعانيه الشعب الجزائري في حربه الاستقلالية، ثم قال ولقد بدلت تركيا الكثير من المساعي السرية الحميدة لدى حكومة باريس موصية وناصحة بأن مشكلة الجزائر لا تحل بالقوة والقمع بل بحلول سياسية وتفاوض مع ممثلي سكان الجزائر وأضاف أنه على استعداد لمضاعفة هذه المساعي بل وتوسيعها بحيث تشمل ضغطا وديا لدى دول حلف الأطلنطي الأخرى مثل الولايات المتحدة وبريطانيا وإيطاليا"[1].

وإذا كان مندريس قد أبدى تجاوبا مع المطلب الأول فانه اندهش أمام المطلب الثاني الخاص بالمساعدة العسكرية، ولكن ابن حليم استطاع أن يهون عليه الأمر ويقنعه بتقديم مساعدة سرية للجزائر تكون باسم الدولة الليبية، ويورد لنا ابن حليم حديثه مع مندريس بخصوص المطلب الثاني بالقول: "قلت لمندريس أن مساعدة شعب الجزائر تتطلب أكثر كثيرا من المساعي الحميدة فهي تتطلب عونا ماديا أعني مالا وسلاحا...وكنت أشعر بأن مخاوف مندريس هي في الواقع مخاوف حقيقية فهدأت من روعه وقلت أن الثورة الجزائرية في أشد الحاجة إلى أنواع كثيرة من الأسلحة الحديثة وهذه الأسلحة متوفرة لديكم، فإذا أعطيتكم كشفا مفصلا بهذه الأسلحة وأهديتموها أنتم إلى شقيقتكم ليبيا فليس في هذا ما يثير أي شك أو ريب لدى فرنسا، وسنقوم نحن بتسريب ذلك السلاح إلى الإخوان الجزائريين تدريجيا وأعدكم بألا يعلم هذا السر إلا القيادة الجزائرية العليا بل عدد قليل جدا من أفراد تلك القيادة العليا"[2].

---

[1] مصطفى ابن حليم: ابن حليم مصطفى أحمد: صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، مذكرات رئيس الحكومة الليبية الأسبق مصطفى احمد بن حليم، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، 1992. ص.ص 361. 362

[2] المصدر نفسه، ص 363

وأظهر مندريس تخوفه من أن تكشف فرنسا ذلك، فهون عليه ابن حليم الأمر وأقنعه بان بلاده تتحمل كامل المسؤولية في إيصال الأسلحة للجزائريين وتقوم بذلك في سرية تامة، وخاطبه قائلا: "اطمئن يا أخي عدنان أنك إذا وافقت على ما أقترحه فإن سرك لن ينكشف أبدا بعون الله، ولو انكشف الأمر فيمكنكم أن تقولوا أنكم قدمتم هدية لجيش ليبيا الشقيقة مبررين ذلك بالعلاقة التاريخية بين شعبينا...إلى أن قال مندريس لقد اقتنعت الآن وسنقدم لكم هدية السلاح أنتم، وأرجوا الله أن يوفقكم في إيصالها لأولئك الذين يحتاجونها في الدفاع عن دينهم، أما نحن في تركيا فإننا نقدم الهدية لجيش ليبيا الشقيقة فقط، وشدد على المحافظة على السرية المطلقة ولا أعتقد أن هذا السر أذيع قبل اليوم، وبعد أسابيع قليلة وصلت هدية السلاح التركي واستلمها الجيش الليبي في احتفال عسكري ثم بدأ تسريبها تدريجيا إلى ثوار الجزائر"[1].

ونستشف من هذه الشهادة ومن رواية المدني أن ابن حليم نهض بدور أساسي في إقناع رئيس الحكومة التركية بدعم الثورة الجزائرية، فقد أولى المسألة أهمية بالغة وقدمها على مشاغل بلاده الخاصة، وقضى وقتا طويلا في جلسة خاصة لإقناع مندريس باتخاذ موقف مشرف لصالح الثورة الجزائرية، وفعلا تحصل منه على دعم سياسي وعسكري، وادي المهمة على أكمل وجه، ولا نعرف ما إذا كانت الخطوة اتخذت باستشارة الملك ادريس أم اطلع عليها الملك فيما بعد وباركها، فابن حليم لم يشر الى ذلك، ويورد المدني أن ابن حليم اعلم الملك بالموضوع بعد أن حصل على موافقة مندريس المبدئية والمشروطة بموافقة رئس البلاد "جلال بايار"، وان الملك ادريس شكر مندريس خلال استقباله له بالقصر الملكي على خطوة إعانة الجزائر وطلب منه أن يبلغ الرئيس "جلال بايار" شكره على موقف دعم الجزائر في كفاحها[2]،

وقد ذكر عبد المجيد بوزبيدة انه كان عضوا في الوفد الذي استقبل الجزائري الذي دعي بمناسبة زيارة الوفد التركي لليبيا لمأدبة عشاء رسمية، وان اوعمران رئيس الوفد تقدم بطلب إلى الرئيس التركي، وان هذا الأخير سجل الطلب بعناية واستجاب له بعد بعض الوقت[3]، ويبدوا أن بوزبيدة اختلط عليه الأمر، فذكر أن رئيس الوفد هو رئيس الدولة جلال بايار في حين ان رئيس الحكومة هو الذي قاد الوفد التركي، وذكر أن اوعمران تقدم رئسا إلى الرئيس التركي خلال مأدبة العشاء الرسمية، وان الرئيس التركي سجل الطلب بعناية، وقد يكون اوعمران اتصل برئيس الحكومة مندريس وقدم له شكره، ولكننا نسلم بأنه لم يكن ليتجرأ ليعرض بنفسه طلب السلاح من تركيا، وان الطلب تم التحضير له وأوكل أساسا إلى رئيس الحكومة كما تجمع الشهادات، ولم يكن بوزبيدة مطلعا على

---

1 مصطفى بن حليم : المصدر نفسه، ص 363

2 احمد توفيق المدني : المصدر السابق، ص 350

3 BOZBIDA Abdelmajid :**La Logistique durant la guerre de liberation nationale; ce que je sais**، ed Bibliopolis Alger، 2005 P . 43

كامل خلفيات الموضوع ليشير إلى دور ابن حليم الأساسي، وقد ذكر بوزبيدة وهو مسؤول مخزون السلاح ببنغازي أن تركيا أرسلت إلى ليبيا شحنة أسلحة اشتملت على: 5000 مسدس اوتاماتيكي "موزار" وذخيرة كنا في أمس الحاجة إليها للرشاشات الثقيلة MG34et 42 [1]، وأكد اوعمران أن شحنة السلاح التركية تسلمها شخصيا بطرابلس ودون أن يقدم تفاصيل أخرى[2]،

وتفيد شهادة المدني أنه كان يبلغ رئيس الحكومة الليبية طلبات جبهة التحري اثناء اجتماعه بمندريس، وأن رئيس الحكومة الليبية أبلغه بواسطة سفير ليبيا بالقاهرة بمصادقة رئيس الجمهورية التركية على هدية السلاح، وأنه وبعد شهرين تسلم مركز جيش التحرير الوطني بطرابلس شحنة الأسلحة المكونة من: 1000 بندقية عيار 2.3، مع ذخيرتها . و 100 رشاش إنجليزي من نوع هوتشكيس عيار 3.3، . و18 مدفع هاون مورتي عيار 81 مم و 25 مدفع كبير تركت للجيش الليبي لعدم الحاجة إليها[3].

وقد ظل أمر هدية السلاح التركية للثورة الجزائرية سرا إلى أن أذاعه المدني وابن حليم، وقد مثل مخاطرة جسيمة للحكومتين الليبية والتركية، وأكد على تجند ابن حليم والملك إدريس من اجل خدمة للثورة الجزائرية وانتهاز كل الفرص لتقديم الدعم لها، وكذا استعداد تركيا لدعم الثورة الجزائرية.

ثانيا: موقف تركيا الداعم للثورة أساس بناء العلاقات التركية الجزائرية المعاصرة:

لقد صعب الوضع المعقد لعلاقات تركيا مع الغرب من الانفتاح التام على دعم الثورة الجزائرية، ومع ذلك فان الموقف التركي من القضية الجزائرية تغير جذريا مند نهاية عام1957، وخاصة من جانب الدعم السري الذي خص به مندريس الثورة الجزائرية عسكريا وسياسيا، وتدريجيا بدأت العلاقات في التوطد، وقد سبق وان ذكرنا بأن النية كانت بادية على دعم الجزائر منذ زيارة مندريس لليبيا.

وعليه فقد واصلت تركيا الرسمية دعمها السري للثورة الجزائرية وبدأت تدريجيا في تغيير موقفها السياسي، حيث سجلت مواقف إدانة للسياسة الفرنسية لم تكن معهودة، وتشجيع لحركة التضامن الشعبية مع الجزائر في تركيا بعد أن كانت محتشمة، كما كان قرار السماح بفتح مكتب لجبهة التحرير الجزائرية بأنقرة نقطة فاصلة في

---

[1] P 43، BOZBIDA Abdelmajid :**Op.cit**

[2] ينظر شهادة أوعمران بـ محمد عباس: ثوار...عظماء، مطبعة دحلب، الجزائر، 1992، ص 187.

[3] انظر احمد توفيق المدني : المصدر السابق، ص 351

توطد العلاقات، وهو موقف أثار غضب فرنسا التي كانت تعتقد أن تركيا العضو في الحلف الأطلسي لن تعادي مواقفها([1]).

وقد تعززت مظاهر التضامن الشعبية مع القضية الجزائرية مند عام 1958، وذلك على الرغم من تقييد الحكومة لحركة التضامن مع الحركات التحررية لمواجهة حركة التحرر الكردية، حيث سجلت عدة مناسبات ومظاهر احتفالية مع الجزائر، وقامت لجنة الصداقة التركية بين الدول الإسلامية بدور هام في احتضان وتأطير التضامن مع الثورة الجزائرية([2]).

وفي بداية عام 1958 وخلال احتضان تركيا لاجتماع حلف بغداد بأنقرة راسلت جبهة التحرير الحكومة التركية والعراقية والباكستانية ملتمسة منها اتخاذ موقف ايجابي من دعم المسألة الجزائرية، وفعلا أبدت تركيا دعما للقضية الجزائرية بالشكل الذي أثار حفيظة فرنسا.([3])

وفي ماي 1958 استطلعت جبهة التحرير الوطني موقف الحكومة التركية من عقد مؤتمر للتضامن الإسلامي مع الجزائر في مكة المكرمة، فجاء رد الحكومة ايجابيا، وبالصيغة الآتية: "حكومتنا موافقة، مؤيدة للجزائر، تحضر المؤتمر"([4])، وهو يدل على استعداد الحكومة التركية لأية سانحة تضامن مع الجزائر.

وقد كان لنشاط مكتب جبهة التحرير الوطني بأنقرة المتنوع دور في التعريف بالقضية الجزائرية في الأوساط التركية، معتمدة على دعم المسؤولين الأتراك، ومختلف الفئات المتضامنة مع الجزائر، وعلى عدالة القضية الجزائرية، وكان للبعد الإسلامي في دعاية المكتب والذي تولاه لفترة الشيخ الفضيل الورتيلاني دور في شحذ همم الأتراك لدعم كفاح الجزائر المسلمة.

الخاتمة:

وهكذا يبدوا لنا أن العلاقات التركية الجزائرية الحالية رسمت ملامحها زمن الثورة التحريرية، حيث تجاوبت تركيا مع مطالب دعم الثورة الجزائرية، وغلب على تلك العلاقات الطابع السياسي، وكان للموقف التركي الداعم للثورة أثره على بناء الجزائر علاقات دبلوماسية وطيدة مع الدولة التركية بعد الاستقلال، حيث تكرست العلاقات في مجالات مختلفة، وازدادت وطادة.

---

[1] انظر اسماعيل دبش: السياسة العربية والمواقف الدولية تجاه الثورة الجزائرية ، دار هومة، الجزائر، 2000، ص 162

[2] انظر المجاهد عدد 111، 25 ديسمبر 1961

[3] مريم صغير : مواقف الدول العربية من القضية الجزائرية ، رسالة ماجستير ، جامعة الجزائر، 1995. 1996، ص 82،

[4] المدني : المصدر السابق، ص 383

توسع الاحتلال والمقاومة الشعبية بالصحراء الشرقية من خلال مصادر الأرشيف العسكرية الفرنسية

(تقرير مخطوط الضابطان بورال ***borel*** وهيربيون ***herbillon 1849***)

الدكتور: بيرم كمال قسم التاريخ جامعة محمد بوضياف المسيلة

تمهيد

مثلت مقاومة واحة الزعاطشة التي قادها المجاهد الشيخ بوزيان مثالا للوطنية و روح الجهاد و نموذجا لتلاحم الشعب الجزائري لرد المحتل الغاشم .و إذا كانت أحداثها قد حصرت عند الكتابات الفرنسية كأحداث محلية مرتبطة بعصيان لبعض وجهاء المنطقة ,فان بوادر هذه المقاومة التي اتصفت بالبعد الوطني الذي ظهر في سرعة انتقال أحداثها إلى مناطق محيطة بها مثل الاوراس و الحضنة وأولاد نائل دليلا على عمقها الشعبي الذي يستمد قوته من ترابط العائلات و الاعراش الجزائرية و الذي كان دائما احد المقومات الهامة في تواصل النضال و الكفاح الوطني.

و على الرغم من النظرة السطحية التي عالج بها الكتاب الفرنسيون ثورات عقد الخمسينات من القرن التاسع عشر حيث يطلق عليها بمرحلة التهدئة فان المقاومة الشعبية التي عرفتها منطقة الصحراء الشرقية أصبحت في نظرهم مجرد مناوشات يقوم بها دراويش و مشاغبون و لذلك يعتبرون أن الجيش الفرنسي كان في هذه المرحلة يقوم بعمليات التأديب و تلقين الدروس القاسية للثوار أمثال الشيخ بوزيان .وهذا ما نلمسه في كتابات كل من :الكولونيا بورال BOREL في تقرير يومياته في حصار الزعاطشة siège de zaatcha[1] المرتبط بالعمليات التوسعية بمنطقة الزيبان منذ سبتمبر 1849.وكذا الجنرال هيربيون herbillon قائد مقاطعة قسنطينة سنوات 1848-1849 الذي رصد يوميات الحصار على الزعاطشة وقدم تلك اليوميات في كتاب صدر سنة 1863 تحت عنوان انتفاضة بالجنوب القسنطيني او حصار الزعاطشة 1849،الذي استمر من 7 أكتوبر الى 26 نوفمبر 1849. والذي مثل بالنسبة للاحتلال الفرنسي مأساة الصراع الصليبي ،والذي فقدت فيه فرنسا أكثر من 1500 رجل و 30 ضابط وفقدت بسبب الكوليرا أكثر من 600 رجل.

كما يقدم الجنرال هيربيون Herbillon قائد العمليات العسكرية بالقطاع القسنطيني في تقريره المؤرخ في سبتمبر1849 جانبا وصفيا لمنطقة الزيبان وخصوصياته الجغرافية ثم يتعرض الى وصف دائرة بسكرة العسكرية ونشأتها وباعتباره قائد على إقليم الحضنة فقد كتب وصفا آخر للحضنة وسهول الوطاية وبساتينها وواحاتها والمناطق التي مر بها قبل ان يتطرق الى الشيخ بوزيان ثم عمليات حصار الزعاطشة.كما قدم الضابط سيروكاSeroka في مراسلاته جوانب مهمة من تاريخ المقاومة الشعبية بالزيبان باعتباره قائد العمليات العسكرية في بسكرة وواحة الزعاطشة إضافة الى الضابط شارل بوشيرboucher Charles في كتاباته حول حصار الزعاطشة و الذي نشر عام 1851المترجم و الضابط شارل فيرو Charles Féraud الذي نقل عن

[1] Anom:11h28:journal du colonel boral: siège de zaatcha 1849.

الفرنسيين و الذاكرة المحلية.و الذي مجد كثيرا الحملات العسكرية الفرنسية وأهمل ذكر مصادر كتاباته التي أخذها من الأهالي.

الصحراء الشرقية في اهتمامات الفرنسيين بداية الاحتلال

وجدت الصحراء الشرقية أواخر العهد العثماني تحت إدارة بعض العائلات النافذة التي بسطت سلطتها تحت وصاية بايات قسنطينة، وقد ولى احمد باي مشيخة العرب الى عائلة أخواله بن قانة [1] قبل أن تتحالف الى جانب فرنسا وبعد أن كانت تشرف عليها عائلة فرحات بن سعيد[2] بن بوعكاز[3]،وكان سنة 1831 قد انتقل في وفد مع بن يلس وبوضياف والمقراني للقاء الجنرال بيرتزان Berthezeneمن اجل إدارة الصحراء باسم فرنسا[4].في حين كان احمد بن سالم هو سيد الاغواط منذ 1828 الى حين تعيين الأمير عبد القادر لخليفته بالاغواط السيد قدور بن عبد الباقي.[5]وقد بدا اهتمام الفرنسيين بالصحراء منذ رحلة روني كابي **Rennie Caibe** (1824 – 1828)، التي كانت من أوائل الرحلات التي قام بها المغامرون الفرنسيون بجنوب الجزائر[6] ،حيث أن الاهتمام الفرنسي كان من خلال نقطتين أساسيتين هما :أهميتها التجارية و ثرائها الكبير ،و هذا ما يفسر تمويل و اهتمام

1–تنحدر أسرة بن قانة من السلالة الشريفة " الشريف السيد الحاج بن قانة بن علي بن سليمان بن عبد العزيز بن محمد بن عمر بن خالد بن يونس بن إبراهيم بن منصور المكنى قانة أنظر الملحق رقم 7 . وحسبFéraud فإن جذور عائلة بن قانة تعود إلى" قرية كوكو المتواجدة في جبال جرجرة ،أين كانت تعيش امرأة اسمها قانة (ولهذا أصبح أبنائها وأحفادها يلقبون بن قانة)" وقد انتقلت للعيش بعرش العنانقة وتزوجت برجل من هناك انظر: Feraud (ch) : **Le Sahara de Constantine**, op.cit, pp 88 كما عمل محمود بن قانة في مهنة الحدادة ،وتعرف من خلالها على أحمد القلي،هذا الأخير الذي قصده لإصلاح حدائد فرسه ،فتطورت العلاقة بينهما إلى حد المصاهرة حيث تزوج أحمد القلي بمباركة بنت بن قانة (والدة أحمد باي) أنظر محمد خير الدين: مذكرات ،ج1 ،المؤسسة الوطنية للكتاب (ب ت ط) ،ص64 .

2–هو فرحات بن أحمد بن محمد بن السخري المدعو فرحات بن السعيد ،ولد سنة 786 1 نشأ في بيت عمه مع أولاده في سيدي خالد ،أمه هي جرحة بنت الشيخ الحداد ،تولى مشيخة العرب سنة1821 ويعتبر آخر من تولى هذا المنصب من الذواوة والرياحين ،وقتل بفعل الخديعة سنة. 1842 أنظر فريدة قاسي:« **الدولة في فكر الأمير عبد القادر1832*1847**» رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ، قسم التاريخ،جامعة قسنطينة ، 1999 ،ص197 .

3– عائلة بوعكاز : تنحدر جذورها من بني هلال ،وهي أسرة عريقة في المنطقة ،تميزت بالشرف والشجاعة ،أشهر .زعمائها فرحات السعيد، وتضم أولاد صاولة و الدواودة أنظر:صالح فركوس : ،مرجع سابق ،ص 295

4 Gouvion,edmont:,ayane almagharibaed fontana alger 1920. للمزيد انظر تفصيل العائلة في 4,

5 Daumas:le Sahara algerien:etude geographique,statistique,1845 pp 23-26.

6–يحي بوعزيز :"**اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء من خلال ما كتبوه ومدى استفادتهم من طرق القوافل في غزوها** "، الأصالة ، وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر ، ع خ ، 1979، ص48. – أحمد مريوش: " **التوسع الفرنسي في الجنوب الجزائري و ردود فعل سكان الهقار 1916**"، المصادر، المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر1954، الجزائر، ع11، 2005، ص ص 114، 115

رجال الأعمال و السياسة الفرنسيين بهذه الرحلات الاستكشافية ،حيث نجد أن الضابط لآبي(**laphi**) تمكن من وضع خريطة عامة للجزائر أبرز فيها تضاريس المنطقة الجنوبية التي اعتمد عايها قادة الاحتلال للتوسع في الصحراء . و كذلك قام الباحث أفزاك(**Aveazac**) سنة 1836بإنجاز دراسة جغرافية عن منطقة الصحراء و قد أثمرت هذه الدراسة بوضع خريطة وضحت عليها المعالم .وفي سنة1845 قام المارشال سولت(**Soulte**) بتقديم تقرير إلى الملك يبين فيه الأهمية الإستراتيجية والتجارية من توسيع الاحتلال إلى الجنوب ،جاء فيه " **يجب أن تؤلف الصحراء الجزائرية أو بعبارة أخرى المناطق الواقعة بعد التلال،صنفا ثالثا ،من الجهات الإدارية ،ففي هذه الجهات لا أثر للمعمرين ولا تطؤها الجيوش إلا بغرض قمع الفوضى، أو لإعداد ظروف ملائمة لإقامة العلاقات التجارية و توسيعها ،و هي مناطق تفتح لنا المجال لطرق هامة في الحركة التجارية المؤمنة**".[1]

الضابط دوماس (**Daumas**) اصدر كتابا سنة 1845،وذلك بتشجيع من المارشال بيجو (**Bugeaud**) تحت عنوان الصحراء الجزائرية **Sahara Algèrien** و هي دراسة عن الجنوب القسنطيني[2] استغل منصبه كضابط للمكتب العربي بالجزائر في استقصاء أهالي الصحراء القادمين إليه دون عناء السفر. وفي إطار الرحلات التي قام بها الفرنسيون نحو الصحراء ومنطقة الاغواط نذكر رحلة الفرنسي Eugène Fromentin[3]اوجين فرومانتان[4] [5]1820-1876 الذي يقدم فيها ملاحظات عديدة في إطار سرد كرونولوجي لرحلته بالصحراء الجزائرية في كتابه الذي صدر 1873بعنوان **صيف في الصحراء** un été dans le Sahara والذي أعيد طبعه عدة مرات جمعها في طبعة رابعة سنة 1877 .

يستعرض فرومنتان أيام الرحلة التي قام بها منذ 1856 ،عندما أنجز كتاب "عام في الساحل" une année dans le sahel ،وقد طبع سنة 1858 و قدم خلال رحلته ، بعد ان أعاد تصحيح ما قدمه في الطبعة الأولى للكتاب ،جوانب مما شاهده عبر ترحاله على جواد فرس منذ بداية رحلته من مدينة المدية في 21 ماي 1853 ، يستذكر المؤلف بعض ذكرياته خلال زيارته الأولى لمدينة الجزائر وانتقاله الى قسنطينة سنة 1848، ويقدم جوانب

---

[1]– أندري برنيان ،أندري نوشي ، أيف لاكوست : **الجزائر بين الماضي والحاضر** ، ترجمة اسنطبولي رابح ومنصف عاشور ،ديوان المطبوعات الجامعية ، المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1984، ص ص 385، 384.

[2]– أحميدة عميراوي : **محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر** ، مطبوعات جامعة منتوري قسنطينة ، الجزائر ، 1999، ص ص 96.94.

[4] [4] اوجين فرومانتان من مواليد 1820/10/24 بلاروشال وتوفي في 1876/08/27 بنفس المدينة حائز على شهادة لسانس حقوق في 1843 زار لاول مرة الجزائر مع بعض أصدقاءه سنة 1846 حيث رسم عدة لوحات فنية لمظاهر طبيعية وسكان الجزائر والتحق مع مدرسة المستشرقين les orientalistes كما قام بزيارة ثانية من بين زياراته الثلاث الى الجزائر .

وصفية لكثير من الأمور كالظواهر المناخية وتقلبات الجو والتساقط ويقارنها بعد مدة من الزمن أي في طبعة الكتاب الأخيرة سنة 1874،التي تحمل عنوان صيف في الصحراءun été dans le sahara.

تبدأ رحلة اوجين فرومانتان بمدينة الجلفة منذ 31 ماي 1853 أي بعد 5 أيام من السير منذ المدية ويصل الى الاغواط في 3 جوان 1853.كما أن القيادات الفرنسية أكدت في العديد من المرات على الأهمية الإستراتيجية التي تكتسبها الصحراء الجزائرية لإنجاح مشروعها التوسعي في إفريقيا ،و من ثمة عمدت إلى استمالة أعيان الصحراء قصد التعرف على إمكانياتها الاقتصادية و الطبيعية و البشرية (من خلال دراسة بنياتها الاجتماعية ،معرفة حقيقة أوضاعها الاقتصادية و دراسة الأوضاع الدينية و حتى النفسية ،بهدف استغلالها بشكل جيد).

قام البرلمان الفرنسي سنة 1844بإصدار قانون يقضي بتوسيع نفوذ الاحتلال،ومده إلى الجنوب و ذلك عن طريق إنشاء مراكز عسكرية في المدن،التي تعتبر مناطق هامة وإستراتيجية في المبادلات التجارية مثل (سعيدة، تيارت ،ثنية الحد ،بوغار ،بسكرة)[1].

المقاومات الشعبية واحتلال الصحراء في من خلال تقارير هيربيون وبورال

نجد في تقرير الكولونيل بورالbaral الذي قاد إحدى الفرق العسكرية التي توسعت في الصحراء الشرقية واحتلت منطقة الزيبان الى جانب فرقة الجنرال هيربيون جوانب هامة من الأحداث التاريخية الجزئية التي ارتبطت بها مقاومة الشيخ بوزيان بالزعاطشة،لانها كتبت في حينها قبل ان تدون في كتب تم تنقيحها بعد ان اختفت الظروف التي أحاطت بها حين حدوثها سواء ما تعلق بكاتبها او بسياق كتابتها فيما بعد.

المخطوط يتكون من 69 صفحة تحمل الصفحة الأولى عنوان: journal des opérations de la SIEGE colonne expéditionnaire des zibanes du 27/09 au 7 /12 1849. DE ZAATCHA :صحيفة العمليات لفرقة بعثة الزيبان من 27 سبتمبر الى 7 ديسمبر.حصار الزعاطشة من طرف الكولونيل بورال ديبريتيزال قائد الاركان العامة. يستعرض التقرير الذي جاء كرونولوجيا ، في البداية وصفا مفصلا حول سير العمليات العسكرية التي استهدفت احتلال واحة الزعاطشة ومنطقة الزيبان التي جاءت بعد هزائم الجيش الفرنسي بقيادة كاربوسيا carbuccia التي أفقدت هيبة وسمعة الجيش الفرنسي في نظر أهل الصحراء بقيادة الشيخ بوزيان باعتراف الكولونيل بوريل barall[2].

[1] – جمال قنان: **قضايا و دراسات في تاريخ الجزائر الحديث و المعاصر**، المؤسسة الوطنية للاتصال و النشر،الجزائر،1994، ص ص 140، 141.

[2] Anom:11h28 :journal des opération s de la colonne expéditionnaire des zibanes1849.

يقدم تقرير برال لأهم شخصيات الصحراء الشرقية، منهم الشيخ بوزيان ، والحاج المختار مرابط بأولاد جلال ،والشيخ عبد اللطيف[1] شيخ زاوية الخنقة ، الى جانب حليف فرنسا بن شنوف،ثم يبين التقرير تكوين الفرق العسكرية التي واجهت الشيخ بوزيان وانتفاضات الزيبان والتي دفعت بالسلطة العسكرية الفرنسية الى الاستنجاد بفرق من الجزائر وقسنطينة وسكيكيدة وعنابة ،ومن سطيف فرقة الزواف التي قوامها 400 فارس ،كما يقدم التقرير عملية تحرك هذه الفرق نحو الزعاطشة [2] بقيادة الجنرال هيربيون الذي انطلق من قسنطينة يوم 1849/09/25 ليصل الى باتنة يوم 1849/09/28 ،يتطرق التقرير الى مسالة هامة في تاريخ المقاومة وهي موقف القيادات التقليدية من الاحتلال وتوسعاته ،والتي بدت على غير ما يجب أن تكون من خلال الضيفة التي قدمها قياد المناطق التي مرت عليها فرق الجنرال هيربيون حيث يذكرها مثل:قايد البرانية بأولاد عبد النور وبن يمينة قايد الصحاري و القايد سي العربي بوضياف احد مشايخ الاوراس والقايد سي المختار بن دايخة قايد أولاد سلام وعلي بن صابر من أولاد سحنون وسيدي بلعباس مرابط من أولاد عبدي و القايد سي مقران قايد الصحاري .

الملاحظ في التقرير أن هناك ولاءات عديدة من الصحراء ساهمت بقدر ما في إعطاء جانب الأمان والقدرة لفرنسا في توسع سهل في الصحراء أمثال بن شنوف وبن قانة .ويقدم التقرير جانب الخلافات بين القادة العسكريين خاصة الضابط كاربوسيا والجنرال هيربيون في مسالة تنظيم المناطق العسكرية بإقليم الزيبان والحضنة ،ودفع بالجنرال هيربيون الى التصرف دون الأخذ برسائل القيادة العسكرية ورسائلها خاصة وانه اخذ من كاربوسيا قيادة اعراش أولاد دراج الشراقة التي تمثل ثلث المقاطعة التي تعتبرها تابعة لدائرة بسكرة العسكرية.

جدول إحصائي لفرقة الجنرال هيربيون التي شاركت في حصار الزعاطشة سبتمبر 1849.

الصفة	الضباط	المشاة	الخيول	البغال
هيئة الاركان	**14**		**34**	
الفيلق الثامن للخط	**15**	**461**		**8**
الفيلق 48	**28**	**842**		**15**
اللواء الخامس	**12**	**532**	**14**	**15**

12-هو عبد الحفيظ بن محمد بن أحمد الهجرسي العامري الونجلي الإدريسي الحسيني الخنقي، و ينتهي نسبه إلى سلالة شريفة، كما أكد ذلك الشيخ العالم الشاعر عاشور الخنقي في مؤلفه منار الأشراف ولد بخنقة سيدي ناجي،من أسرة محافظة و قد أغفلت المراجع التاريخية تاريخ ميلاده الذي يرجح أن يكون سنة 1789 م .نشأ و ترعرع في مسقط رأسه، حيث حظي بتربية إسلامية خالصة، فنهل العلم من منابع علماء المنطقة مثل الصديق الو نجلي، ثم الشيخ محمد بن عزوز البرجي أحد كبار العلماء الجزائريين في نهاية القرن 18 و مقدم الطريقة الرحمانية بمنطقة الزاب.

[1] Anom:11h28:journal du colonel BOREL: siège de zaatcha 1849.

للقناصة				
الرماة الاهالي	**21**	**591**	**5**	**6**
الفرقة الثالثة للقناصة	**9**	**160**	**171**	
الفرقة الثالثة للصبايحية	**7**	**122**	**5**	
المدفعية	**8**	**273**		
الهندسة	**4**	**132**	**19**	**281**
الادارة	**1**	**16**		
الاسعاف	**5**	**18**	**5**	
المجموع	**127**	**3306**	**492**	**335**

[1] Anom:11h28 :journal des opération s de la colonne .- [1] expéditionnaire des zibanes1849.

التوسع الفرنسي في الصحراء الشرقية

يبين التقرير كيف حاولت سلطة الاحتلال العسكرية بتجميع قواتها بمدينة قسنطينة منذ شهر سبتمبر 1949 ووصل عدد القوات إلى 3306 جندي و ضابط كما أمرت قواتها المتواجدة بمحيط بسعادة تحت قيادة الضابط برال بالانتقال إلى واحة الزعاطشة مع قوات أخرى آتية من سور الغزلان و باتنة و بسكرة.

من مدينة قسنطينة انتقلت القوات بقيادة الجنرال هيربيون إلى باتنة في 1849/09/28 كما تدعمت هذه القوة العسكرية بقوة قوم ابن قانة شيخ العرب و نصبت الخيم بواحات بسكرة في 1849/10/4.كما تعززت قوة الاحتلال بقوة أخرى من اللفيف الأجنبي بقيادة الضابط كربوسيا carbusca.وخلال هذا اليوم حاولت قيادة الجيش الفرنسي التموقع باختيار منطقة كدية المائدة قرب واحة الزعاطشة كمكان لتمركزها قبل المبادرة في الهجوم و تمركزت بالكدية منذ **7 أكتوبر** بقوة قوامها 4493 جندي والمعروف أن كدية المائدة تقع على مقربة من قرية ليشانة وواحة الزعاطشة و تمثل موقع طبيعي ارتكازي للعمليات العسكرية. ويقدم التقرير جانبا مهما من الخسائر البشرية للقوات الفرنسية في المعارك الاولى لشهر أكتوبر ودعم أولاد ساسي للمقاومة بالزعاطشة بقوة 400 فارس التي أعاقت العديد من محاولات القائد كاربوسكا الهجومية على حصن الزعاطشة.

حصار الزعاطشة في تقرير هيربيون

حسب التقرير كانت طبيعة منطقة واحة الزعاطشة بما تمتاز به من انبساط و اتساع تفرض على العدو وضع خطط مناسبة لإنجاح الهجوم على الواحة التي تمركز بها الشيخ بوزيان و قوته لذلك اختار القائد الفرنسي أن يكون

الهجوم على واحة الزعاطشة من موقع الزاوية التي تبعد كدية المائدة بمسافة نصف كيلومتر تقريبا .بدأت القوة الفرنسية **يوم 7 اكتوبر** بعمليات قصف لأسوار البساتين و محاولة اختراقها بخلق ثغرات بها ثم محاولة اختراقها بالهجوم على الزاوية. و كانت هذه المحاولات فاشلة بعد تصدى الثوار القوي للهجوم الفرنسي الذي ترك ورائه 25 قتيل و 7 جرحى.في نفس اليوم أمر القائد هيربيون ابن قانة بتجهيز قومه لمحاصرة الواحة و الزاوية من الجنوب في انتظار وصول القوات الأخرى كما حاولت قوة فرنسية أخرى منع أنصار الشيخ بوزيان من الاتجاه إلى الواحة بحصار طولقة و ليشانة وكان الصمود الأول للثوار و ردهم للهجوم الأول ليوم 7 أكتوبر عاملا هاما في رفع معنوياتهم و التحام الاعراش المجاورة بهم و توافد الأنصار من الاوراس و الواحات المجاورة.

وكان لهذا الحدث الأول وقع على الفرنسيين الذين صرح قائدهم هيبريون : herbillon

(**الواقع أن هذا الاشتباك الأول يثبت لدينا أن العرب مصممون على منازعتنا كل شبر من الأرض التي تفصل بيننا و بين الزعاطشة**)[1]**وفي يوم 8** أكتوبر قامت القوة الفرنسية ببناء قاعدة بطارية للمدفعية ،من اجل اختراق الواحة، و تقدم الجيش الفرنسي نحو ثغرة أحدثتها المدفعية في جدران البساتين، غير أن هذا الهجوم الثاني تصدت له قوات الثوار التي استطاعت قتل 7 فرنسيين و خلفت منهم 43 جريح .

وبالنظر الى ما جاء في تقرير هيربيون فان المقاومة بالصحراء الشرقية لم تكن بمعزل عن المقاومات الشعبية للمناطق المجاورة كمناطق القبائل بزواغة وقبائل أولاد سحنون والحضنة الذين ثاروا بقوة قوامها 800 فارس و400 فانتازي[2]ضط القائد سي مقران وتفاعلوا مع مبعوثي بوزيان ،وأوقعوا خسائر في الأرواح والعتاد لحلفاء فرنسا وقواتها.

بعد الهزيمة القاسية التي منيت بها القوات الفرنسية، بدأت بتجهيز حملة ثانية تكون أكثر قوة وعنفا بقيادة هيربيون حاكم مقاطعة قسنطينة، فانتظر نهاية فصل الصيف لصعوبة مناخ المنطقة في تلك الفترة .وبحلول فصل الخريف قاد هربيون الحملة من قسنطينة متجها نحو الزعاطشة ،مرورا بباتنة بقوة عسكرية قدرت ب 4493 جندي ومدعمة بقوات القياد[3]، حيث عسكر في مكان يسمى " **كدية المائدة** " وهي منطقة تصل كل من الزعاطشة وليشانة وبشقرون وطولقة وذلك يوم 07 أكتوبر 1849.

---

[1]الجنرال هيربيون ايميل من مواليد 1794 شارك كجندي متطوع في الجيش الفرنسي سن 1813 خلال معركة واترلو ثم اصبح بعد عودة الملكية ملازم ثم 1820 ثم نقيب سنة 1825 ثم شارك في حرب اسبانيا سنة 1828 ثم استقدمه الجنرال بيجوا حيث تقلد معه رتبة مقدم سنة 1841 ثم رتبة غقيد سنة 1846 ثم اصبح قائد مقاطعة قسنطينة ساهم في احتلال القبائل والاوراس ثم قاد حملته ضد مقاومة الزعاطشة وكتب مؤلف مركز الزعاطشة سنة 1863 ثم رجع الى فرنسا حيث رقي الى جنرال وقاد معركة القرؤم الى جانب العثمانيين سنة 18561863

[2] Herbillon: insurrection survenue dans le sud de la province de Constantine en 1849.siege de zaatcha,paris 1863vp 25.

[3] Anom:11h28 :journal des opération s de la colonne expéditionnaire des zibanes1849.

أمر القائد هربيون شيخ العرب بن قانة بوعزيز بجمع شيوخه ورجاله، والإحاطة بالواحة والزاوية لإحكام الحصار عليها من جهة الجنوب ، كما كلف فرقة الخيالة بقيادة الكولونيل دوميرياك بالتمركز مابين طولقة والزعاطشة لمنع وصول أي نجدة، كما أمر المقدم ليرسات (**Lirisat**)بالتمركز قرب ليشانة لنفس الغرض[1].امافي يوم 9 أكتوبر أقام الجيش الفرنسي قاعدة بطارية ثانية للمدفعية في ضل اشتباكات عنيفة ومقاومة باسلة للرجال و النساء حالت دون تقدم قوات الجنرال هيربيون الذي كتب عن هذا اليوم ب (شعرنا بهذه الأحداث البائسة شعورا عميقا و أدركنا أهمية التستر من نيران القرية المحاصرة في أسرع وقت ممكن فان هؤلاء الثوار قد أعطونا دليلا قاسيا على مهارتهم في القتال)كما اعترف الجنرال هيربيون herbillon أن الثوار مكافحون حيويون نشطون و صبورون وقد نقل عن بعضهم انه من الحرام أن تطأ أقدام الفرنسيين ارض واحة الزعاطشة كما تحرم مكة على المسيحيين.

تطور أحداث احتلال الزيبان

في يوم 10 أكتوبر أقام الجيش الفرنسي بطارية رابعة للمدفعية لحماية الحفر المتقدمة و محاولة تدمير أسوار القرية و قد لقيت هذه المحاولة من القوة الفرنسية ردا عنيفا من الثوار بكمين نصب لهم أدى إلى مقتل 11 جندي فرنسي و جرح 22 آخرين.وإلى غاية 11 أكتوبر كانت العمليات العسكرية و محاولات الهجوم متركزة و بدون انقطاع على الجهة الجنوبية الشرقية من القرية و لم يكن بمقدورها استعمال الهجوم المباغت في الوقت الذي ازداد صمود الثوار و عزيمتهم في المقاومة . لذلك حاولت القوة العسكرية العمل على الجهة الشمالية الشرقية منم القرية المحاصرة بالقرب من منزل كانت فرنسا تضن أن القائد بوزيان بداخله .و قد تركزت كتيبتين من الفيلق الخامس في البستان القريب من القرية استطاعت خلال اليوم **الموالي أي 13 أكتوبر** من احتلال الموقع بعد عمليات قلع الأشجار المثمرة و قد واكبت هذه العملية محطات من الهجمات الخاطفة التي قام بها الثوار و من عمليات تعطيل الهجوم العسكري الفرنسي و التي سمحت باسترجاع الجرحى و تنظيم صفوف أنصار الشيخ بوزيان الذي استبدلهم بمجاهدين آخرين رفقة زغاريد النساء و طلقات البارود التي فاجأت و أبهرت و أدخلت الرعب في الجيش الفرنسي . و لعل هذا الموقف هو الذي دفع بقائد الجيش الفرنسي إلى طلب النجدة من قائد فرقة بو سعادة الكولونيل بورال الذي و صل إلى واحة الزعاطشة رفقة 1315 جندي مسلحين بكل أنواع الأسلحة زادت قليلا في معنويات الجيش المنهك بالزعاطشة و الذي فقد أزيد من 200 جندي . و بقدوم قوة القائد بورال BOREL ارتفع عدد الجيش الفرنسي إلى 6040 جندي .

من جهة الثوار لحق بواحة الزعاطشة ثوار منطقة طولقة كما وصل ثوار ليشانة إلى عين معيوب

من اجل قطع الاتصال بين قوات الجيش الفرنسي .حاولت القوة الفرنسية تنظيم نفسها بحيث جعل القائد النقيب قراييت على الجهة اليمنى و القائد النقيب شارل على الجهة اليسرى في حين حافظ الكولونيل بيتي pettitعلى

---

[1] – إبراهيم مياسي : الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية ، مرجع سابق ،ص67 ،

مهمة الأشغال الخاصة بالحفر و تنصيب قاعدة بطارية خامسة حاولت قصف الواحة من الجهة الشمالية الشرقية منذ **يوم 14 أكتوبر**.وفي 15 أكتوبر 1849 وضل تعداد فرقة الجنرال هيربيون:150ضابط و 4580 جنديب 652 حصان و385 بغل .

بينما وصل تعداد الكولونيل بورال:56 ضابط و1499 جندي و162 حصان و94 بغل.[1] كما يقدم جوانب من مقاومة أهل الزعاطشة وحمايتهم للحصن والزاوية كما يتطرق الى تحضير هجوم القوات الفرنسية على الزاوية.كما يشير التقرير الى انتفاضة أهل بوسعادة بقيادة الشيخ بن شبيرة وعرش أولاد ماضي بالحضنة من جهة والى تجنيد الضابط بان قائد برج بوعريريج الشيخ محمد المقراني لأكثر من 500 فارس مع مجموعة من الفرسان من سطيف انطلقت بتاريخ 30 أكتوبر نحو الزعاطشة.[2] وينتهي التقرير بوصف نهاية حصار الزعاطشة الطويل والقاسي والذي مثل بالنسبة للقيادة العسكرية الفرنسية انشغالا أساسيا في مخطط احتلال الجزائر واستدعى تدخلا قويا وعاما ،لان هذه المقاومة أعطت البعد الوطني والروحي للكيان الجزائري في أعين الاحتلال.وفي رسالة أخرى للجنرال هيربيون بتاريخ 2 جانفي 1850يقدم اقتراحات للقيادة بضرورة تنظيم إدارة المناطق المحيطة بالزيبان خاصة مدينتي بسكرة وبوسعادة اللذان يعتبران في نظره أهم طرق القوافل نحو الصحراء والشمال واهم مناطق التواصل الاجتماعي بين قبائل أولاد نائل وقبائل التل والحضنة.[3]

يبقى تقرير الجنرال هيربيون والكولونيل بورال على أهميتهما يقدمان النذر القليل من أحداث قاسية عاشتها المقاومات الشعبية في الصحراء الجزائرية الشرقية،والتي مثلت من خلالهما قيمة البعد الوطني والتآزر بين اعراش الزيبان والحضنة وأولاد نايل في الدفاع على الوطن وأركانه وقياداته التقليدية أمثال الشيخ بوزيان وبن شبيرة.

وفي ظل نقص الكتابات الوطنية التي عاصرت فترة توسع الاحتلال الفرنسي للصحراء الشرقية ،يجد الباحث نفسه بحاجة الى قراءة متأنية لمثل هذه التقارير وغيرها لإعطاء الملمح التاريخي الأقرب إلى الأحداث التي وقعت بحيثياتها وع موازنتها مع ما تبقى من الذاكرة الجماعية المحلية ،والتي على محدوديتها تبقى رافدا هاما للكتابة التاريخية للفترة الاستعمارية.

---

[1] Anom:11h28 :journal des opération s de la colonne expéditionnaire des . zibanes1849. Journée 26/10/1849

[2] Anom:11h28 :journal des opération s de la colonne expéditionnaire des – zibanes1849.journée 30/10/1849.

[3]

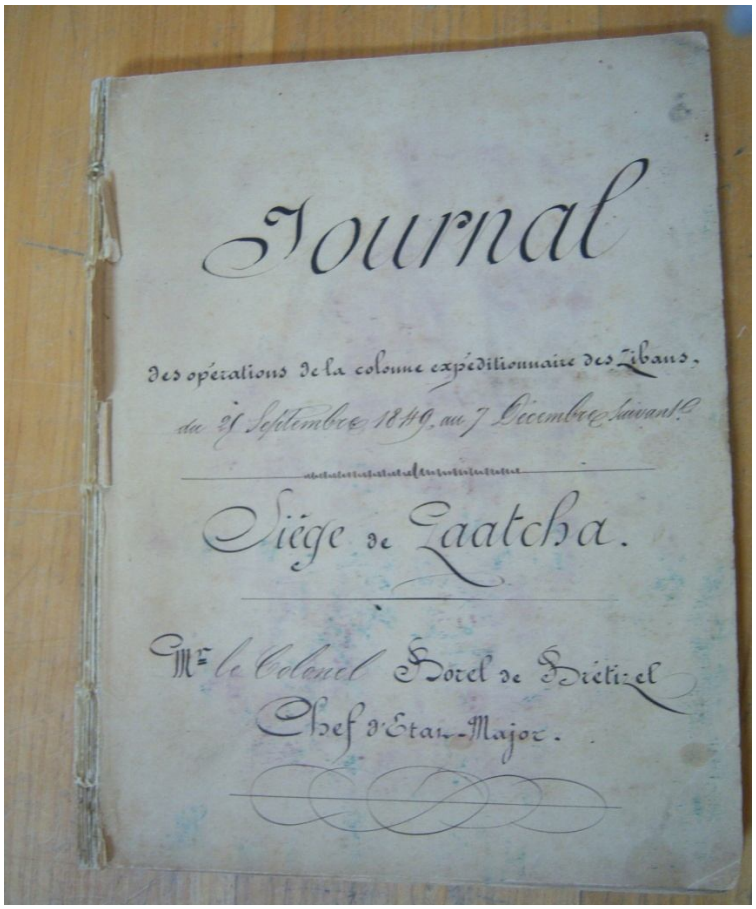

ANOM11H28 JOURNAL DE SIEGE DE ZAATCHA.صورة لتقرير بورال

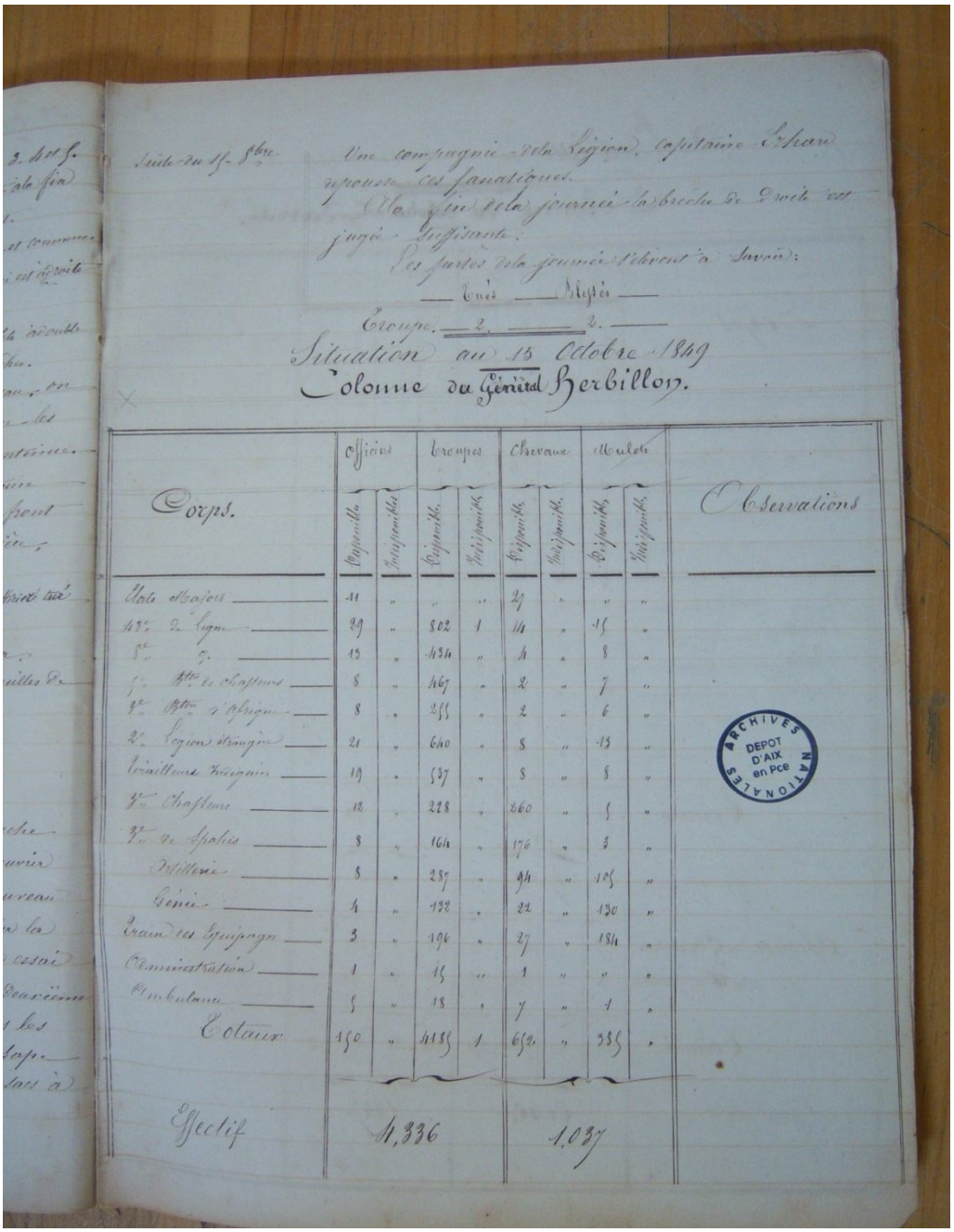

Suite du 15 8bre. Une compagnie de la Légion, capitaine Schaan repousse des fanatiques.
Un fin de la journée la brèche de droite est jugée praticable.
Les pertes de la journée s'élèvent à savoir:
— Tués — Blessés —
Troupe. — 2. — 2. —

Situation au 15 Octobre 1849
Colonne du Général Herbillon.

Corps.	Officiers		Troupes		Chevaux		Mulets		Observations
	Disponibles.	Indisponibles.	Disponibles.	Indisponibles.	Disponibles.	Indisponibles.	Disponibles.	Indisponibles.	
Etats Majors	11	"	"	"	23	"	"	"	
43e de Ligne	29	"	802	1	14	"	15	"	
8e L.	13	"	434	"	4	"	8	"	
5e Bon. de Chasseurs	8	"	467	"	2	"	7	"	
3e Bon. d'Afrique	8	"	255	"	2	"	6	"	
2e Légion étrangère	21	"	640	"	8	"	13	"	
Tirailleurs Indigènes	19	"	537	"	8	"	8	"	
3e Chasseurs	12	"	228	"	260	"	5	"	
3e de Spahis	8	"	164	"	176	"	3	"	
Artillerie	8	"	287	"	94	"	105	"	
Génie	4	"	138	"	22	"	130	"	
Train des Equipages	3	"	196	"	27	"	184	"	
Administration	1	"	15	"	1	"	"	"	
Ambulance	5	"	18	"	7	"	1	"	
Total	150	"	4185	1	652	"	335	"	
Effectif	4,336				1,037				

ARCHIVES NATIONALES DEPOT D'AIX en Pce

جدول هيكلة الفرقة العسكرية للجنرال هيربيون ANOM11H28 COLONNE HERBILLON 1849

مدرسة دار الحديث الإبراهيمية بتلمسان إشعاع ثقافي بالجزائر

أة. بن حامد سعدية قسم التاريخ جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

مقدمة :

بعدما أسندت جمعية العلماء المسلمين مهمة تنشيط الحركة الإصلاحية بالغرب الجزائري إلى الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، أشرف هذا الأخير على تنظيم الشعب في إطار التربية والتعليم ، لا سيماإنشاء المدارس انطلاقا من مقولة العلامة عبد الحميد بن باديس " الشعب المتعلم لا يستعمر "، وكان من انجازات الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في هذا الميدان هو تشييد مدرسة دار الحديث بتلمسان 1937م[1]،لهذا حاولنا في موضوعنا التطرق إلى مدى أهمية مدرسة دار الحديث في وقت تزايدت فيه الرقابة الاستعمارية .

بداية أن تأسيس مدرسة دار الحديث يرجع إلى عدة عوامل نذكر أهمها :

-إحباط مشروع الإدارة الفرنسية وأعوانها من رجال الطرق الصوفية الرامي إلى عزل الإبراهيمي عن الشعب وتشويه سمعته، ومنعه من إلقاء الدروس والمحاضرات، بسبب نشاطه المكثف، حيث عمل على تطوير علاقاته بالأعيان عن طريق المحاضرات بالنوادي، واغتنم فرصة ختان ابنه، حيث أقام حفلا، دعا إليه الشخصيات المؤثرة في دائرة تلمسان، كما أحيى حفلا آخر بحديقة منزله، حضره 350 شخص، استعاد من خلاله مكانته، وأصبح كثير الأتباع من جديد، واتسعت شعبيته.

– المحاضرة التي ألقاها الشيخ الإبراهيمي بالنادي اليهودي (Cercle des loisirs) والتي عالج من خلالها العلاقات بين المسلمين واليهود تاريخا وحاضرا، وختمها بالدعوة إلى الوفاق والمعونة الفعالة من اليهود، للضغط على الحكام الفرنسيين قصد إنجاز مطالب المسلمين، ويعني بالخصوص الترخيص له بممارسة التدريس بالجامع الكبير، والحصول على رخصة للتعليم في مدرسة حرة.

– الدعم المالي من السكان والأعيان، فبعد عودة الشيخ الإبراهيمي من الجزائر إثر زيارته الأخيرة سنة 1935م، انطلق منذ شهر ديسمبر 1935م في مشروع بناء مدرسته للتعليم الحر تقوم على جهود الأهالي، فدعا إلى اجتماع الجمعية الدينية التي كان يرأسها "طالب عبد السلام"، وحضره حوالي (150) شخصا، وطرحت فكرة تأسيس المدرسة، وفتح لها الاعتماد المالي، حيث كانت الحصيلة قبل نهاية ديسمبر (100 ألف) فرنك، وأقدمت على شراء بناية.

ولما بدأت الأشغال، كان الإبراهيمي مشرفا على متابعتها شخصيا،؟ واختار لإنجازها أمهر البنائين، وأفضل طراز معماري، وهو الطراز الأندلسي، وقد اختار لها مؤسسها اسم دار الحديث، تعبيرا عن مبادئ الحركة التي تدعو إليها، وهي الرجوع إلى السلفية النقية التي تستمد أحكامها من المصادر الإسلامية الأصلية، ومحاكاة لدور

---

[1]– محمد خير الدين، مذكرات، ج1، مطبعة دحلب،الجزائر ، ص 182.

الحديث المنتشرة في بعض البلدان الإسلامية، ومن بينها دار الحديث الأشرفية بدمشق، والتي شغل بها منصب أستاذ[1].

تتكون مدرسة الحديث من ثلاث طوابق، طابق أرضي وهو عبارة عن مسجد جامع ومكتبة، وتحته طابق سفلي خاص بدورة المياه والمئضات، وطابق فوق المسجد فيه قاعة للمحاضرات، ومسرح صغير للتمثيل، ومكتب إدارة المدرسة، وطابق ثالث فوقه هو المدرسة بأقسامها وفنائها ومرافقها[2].

وبعد اكتمال البناء، وجه الشيخ الإبراهيمي دعوة عامة إلى النخبة في جميع عمالات القطر الجزائري لحضور حفل الافتتاح في سنة 1937م، جاء فيها: "إن أكبر دعامة تقوم عليها النهضة الجزائرية، هي تأسيس المدارس الحرة بمال الأمة، وقد قامت (تلمسان) بقسطها من هذا الواجب فشيدت مدرسة (دار الحديث) على طراز ليس له نظير في القطر الجزائري كله، وسنحتفل بفتحها في اليومين المذكورين (27 و28 سبتمبر)، وسيكون الاحتفال عرسا علميا ... ونرجو ممن لم تصله الدعوة، أو لم نعرف عنوانه أن يعتبر هذه الدعوة المنشورة في البصائر دعوة خاصة"[3].

-تدشين مدرسة دار الحديث :

وكان يوم تدشين وافتتاح دار الحديث الإبراهيمية يوم الاثنين 22 رجب عام 1356هـ الموافق لـ27 سبتمبر 1937م، حيث كان حدثا تاريخيا هاما للحركة الإصلاحية الثقافية، لم تشهد الجزائر مثله في تاريخها الحديث، حيث كان يوما مشهودا[4]، حضره جمهور غفير من كل أنحاء الوطن قدر بنحو عشرين ألف[5]، في مقدمتهم قائد النهضة العلمية والإصلاحية العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس، كما حضره بعض الأشقاء المغرب الأقصى وتونس.

ولما اجتمعت الوفود أمام مدرسة الحديث، اختار الإبراهيمي الشيخ عبد الحميد بن باديس لافتتاح المدرسة، فناوله مفتاحها قائلا: "أخي الأستاذ الرئيس: لو علمت في القطر الجزائري، بل في العالم الإسلامي رجلا له يد على العلم مثل يدكم، وفضل على الناشئة مثل فضلكم لآثرته دونكم بفتح هذه المدرسة، ولكني لم أجد، فباسم تلمسان، وباسم الجمعية الدينية بالخصوص أنا ولكم المفتاح لتفتحوها، فهل لهذه المدرسة أن تتشرف

---

[1]- محمد خير الدين، مذكرات، ج1، المصدر السابق، ص 182.

[2]- محمد الصالح رمضان: الذكرى الأدبية لزيارة الفرقة المصرية دار الحديث بتلمسان، ط2، مؤسسة العصر للمنشورات الإسلامية، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2003، ص 51.

[3]- محمد البشير الإبراهيمي، آثار الامام محمد البشير الابراهيمي ، ج1، جمع وتقديم احمد طالب الابراهيمي ، ط1 ،دار الغرب الاسلامي ،بيروت ، لبنان ، 1997م ، ص 305.

[4]- محمد الصالح رمضان، المصدر السابق، ص 53.

[5]- محمد خير الدين، مذكرات، ج1، المصدر السابق، ص 186.

بذلك؟"[1]، وبعد فتح الباب ودخل الشيخ ابن باديس ودخل خلفه العلماء والضيوف ثم الجموع الغفيرة من أهالي تلمسان لم تسعهم بناية المدرسة، وألقى الشيخ ابن باديس بالمناسبة كلمة الافتتاح، كما ألقى الإبراهيمي كلمته حيث مجد فيها هذا العمل وافتخر به، وتوقع اتحاد جميع المسلمين على حب الإسلام قائلا: "... إن هذه المدرسة هي الشاهد الذي لا يكذب على صدق النهضة الإسلامية العلمية ونضوجها، ووصولها إلى درجة الكمال التي يفرح لها العاملون، ويبأس منها الظالمون ..." [2].

كما كانت هناك محاضرات دينية وللدروس، ومن الخطباء ابن باديس والشيخ الفضيل الورتلاني والشيخ العربي التبسي والشيخ مبارك الميلي والشيخ أبو اليقضان، ففي اليوم الأول ألقى الشيخ مبارك الميلي درسا قيما في الحديث "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى"، والشيخ العربي التبسي ألقى درسا كذلك في قوله تعالى: "ولا تحسبن الذين يبخلون بما أوتوا ويحبون أن يحمدوا".

كما ألقى شاعر الجمعية محمد العيد آل خليفة قصيدة بالمناسبة تتكون من 48 بيت أثارت إعجاب الحاضرين استهلها بقوله:

أحيي بالرضى حرما يزار ...*... ودارا تستظل بها الديار
وروضا مستجد الغرس نضرا ...*... أريضا زهره الأدب النضار
وميدانا سترتبع المهاري ...*... بساحته وتستبق المهار
وعينا ما لمنبعها مغاض ...*... وأفقا ما لأنجمه مغار
أحيي خير مدرسة بناها ...*... خيار في معونتهم خيار
"تلمسان" احتفت بالعلم جارا ...*... وما كالعلم للبلدان جار
لقد لبست من الإصلاح تاجا ...*... يحق به لأهليها الفخار
فكان له بها نصر وفتح ...*... وكان له ذيوع واشتهار
لقد بعث (البشير) لها بشيرا ...*... بمجد كالركاز بها يثار
وفي (دار الحديث) له صوان ...*... بديع الصنع مصقول منار[3]

والحق أنت إنشاء مدرسة "دار الحديث"، كان نقلة نوعية سمحت بتنظيم الحركة التعليمية في تلمسان بقيادة الشيخ الإبراهيمي، الذي أصبح مشرفا ومعلما بها، يلقي فيها عشرة دروس في اليوم، يبدؤها بدرس في

---

[1]-محمد الصالح رمضان، المصدر السابق، ص 53.

[2]- محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج1، المصدر السابق، ص 308.

[3]- محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج1، المصدر السابق، ص 309.

الحديث بعد صلاة الصبح، ويختمها بدرس في التفسير بين المغرب والعشاء، وبعد صلاة العتمة ينصرف الشيخ الإبراهيمي إلى أحد النوادي فيلقي محاضرة في التاريخ الإسلامي[1].

وكان للمدرسة ستة أقسام مع حوالي 130 تلميذ، سبعين منهم على قسمين من خمس سنوات (05) إلى ثلاثة عشر سنة (13) يتعلمون العربية والكتابة، وحوالي عشرين تلميذا من فوق خمسة عشر سنة، يتلقون الدروس في القرآن وفي الفقه، ابتداء من الرابعة بعد الظهر من إلقاء الشيخ الإبراهيمي، ومن أشهر المعلمين في المدرسة نذكر: بابا أحمد يدرس العربية والكتابة، ومرزوق محمد المستشار البلدي يعطيهم دروسا في القرآن[2].

والجدير بالذكر، هو أن مدرسة دار الحديث لم تتحصل على الرخصة، لأن أصحابها كانوا عازمين على إفشال قانون 1892م بشأنها، حيث نصح نائب الوالي لتلمسان بعدم التسامح مع هذا الوضع، واقتراحه تطبيق القانون على المدرسة[3]، وذلك بتوجيه الاتهام إلى مسؤولي هذه المدرسة لأنهم خالفوا الإدارة في عدة أمور كالقيام بمسيرة غير مرخص لها، واستعمال مكبر الصوت، ومهاجمة السيادة الفرنسية من خلال خطبة الشيخ الفضيل الورتيلاني، هذا ما جاء في أحد التقارير الرسمية من الولاية العامة إلى والي تلمسان في شهر نوفمبر سنة 1937م[4].

–رد فعل الإدارة الفرنسية من المدرسة :

وكما كان متوقعا، فإن السلطات الفرنسية قد ضاقت من نشاطات الإبراهيمي الدائب وبحركته التي لا تهدأ، فراحت تضع حدا لنشاطه المتزايد، ولا سيما إصدارها قرارا إداريا في يوم 31 ديسمبر 1937م، حيث قامت السلطات بغلق الأقسام المخصصة للتعليم فقط، وأبقت على قاعة المحاضرات والجامع –اللذان استمر الإبراهيمي في استعمالهما– حيث رفض الشيخ الإبراهيمي التوقيع على محضر الأمر بالغلق، لهذا دخل في صراع مفتوح مع السلطات المحلية، وقدم إلى المحاكمة بتلمسان يوم 27 جويلية 1938م، وحكمت عليه المحكمة بدفع غرامة مالية قدرها 16 فرنكا، وهو الحكم الذي أكدته محكمة استئناف الجزائر، وكانت التهمة هي القيام بمسيرة من محطة القطار إلى مقر المدرسة دون رخصة[5]، وفي هذا السياق كتب الإبراهيمي يقول: "أول جانفي وهو يوم التهادي والتواصل، واجتماع القلوب على السرور عند الغربيين خرج قرار تعطيل "دار الحديث" فجاء بدعة التحف في هدايا الموسم، وكان القرار مبهما غير مفسر الأسباب، ولا مميز المقاصد، فسألنا رسميا فقيل لنا أن التعطيل خاص بالتعليم الابتدائي، وأن دروس الإبراهيمي لا تدخل في القرار ولا يشملها التعطيل، وتناقلت الأفواه الخبر، وبدأت بوادر الغضب والاحتجاج الصارخ تبدو، ولو زاد الغضب والهيجان لكان بردا على أفئدة لها في ذلك هوى ولها من ورائه مآرب، ولكننا سكتنا حتى تتجلى الأسباب وتنجلي العماية، واقتصرنا على احتجاج جمعية العلماء بلسان مؤتمراتها

---

[1]– محمد البشير الإبراهيمي: "أنا"، مجلة الثقافة، الجزائر، العدد 87، ماي/جوان 1985م، ص 26.

[2]– أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، ج3، المرجع السابق، ص 70.

[3]– تقرير من الوالي العام إلى والي تلمسان، نوفمبر 1937م، أرشيف ما وراء البحار 9h46.

[4]– نفسه، للمزيد أنظر الملحق رقم (1)

[5]–أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، ج3، المرجع السابق، ص 71.

العمالية"[1]، وبهذا يعتبر هذا العمل مستهدف لعمل جمعية العلماء المسلمين، وذلك لقتل الإسلام والعروبة في نفوس الجزائريين، وبشل حركتهم النهضوية والمتمثلة في المدارس أساسا، بعد أن أغلقت المساجد في وجوههم، وأعطي فيها الحق لرجال الدين الرسميين، الذين باعوا أنفسهم ودينهم من أجل "خبزة طعمها قذر""[2].

وفي يوم 28 فيفري 1939م، أصدرت السلطات الفرنسية قرارا، أعطي بموجبه للإدارة الاستعمارية حق مراقبة المطبوعات وحق منعها أو وقفها، والمطبوعات التي استهدفها هذا القرار بطبيعة الحال، ما كانت تصدره جمعية العلماء المسلمين، إذ كانت ترى فيها صحفا معادية لها[3].

وبعد انتخاب الشيخ الإبراهيمي رئيسا لجمعية العلماء المسلمين يوم 19 أفريل 1940م[4]، وهو في المنفى بآفلو، حيث اعتقل يوم 12 أفريل 1940م، بموجب قرار صادر عن رئيس الوزراء الفرنسي "دلاديه" "Deladier" القاضي بالإبعاد والنفي في حق الإبراهيمي، بحجة أنه يمثل خطرا كبيرا على فرنسا، وهذا دليل على تصديها لكل وطني يتحرك في اتجاه معاكس لها، إلا أنه بعد عودته من المنفى في أوائل سنة 1943م، ازداد اهتمامه ببناء المدارس، حيث أسس في نفس السنة ثلاثة وسبعين (73) مدرسة، تميزت بطرازها المعماري الإسلامي الموحد، حيث راع فيها الشيخ الإبراهيمي ضرورة الجمع بين روعة الفن المعماري الإسلامي من ناحية، وبين ذوق العصر ومتطلبات الصحة العامة للمتعلمين من ناحية أخرى، وكان هدفه من توحيد الفن المعماري للمدارس من تكوين أجيال جزائرية منسجمة في أذواقها وتفكيرها، ومتحدة في اتجاهها الوطني والقومي العام[5].

الأمر الذي ساعده هو اندفاع الشعب، وبذل أمواله في سبيل تنشيط التعليم العربي، وقد وصف الإبراهيمي هذا الاندفاع بقوله: "إن المؤرخ ليعد صادقا سنة 1943م وما بعده موسم حمى فائرة، أغراضها تأسيس المدارس، وهذيانها الحديث عن المدارس"[6]، حيث بلغ عدد مدارس الجمعية الابتدائية والابتدائية التكميلية حوالي 140 مدرسة سنة 1948م، منها: مدرسة الفتح بسطيف، مدرسة الحياة بجيجل، مدرسة تازمالت وابن خلدون ببجاية، ومدرسة الجلفة، مدرسة التربية والتعليم بغليزان، ومدرسة الفلاح بوهران[7]. إلا أن الشيخ الإبراهيمي انتقل إلى العاصمة سنة 1945م لتسيير الحركة الإصلاحية والثقافية من هناك، وكلف محمد الصالح رمضان بإدارة مدرسة دار الحديث من سنة 1945م إلى غاية 1953م[8].

---

[1]- محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج1، المصدر السابق، ص 313.

[2]- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، المرجع السابق، ص 303.

[3]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، المرجع السابق، ص 71.

[4]- محمد الهادي الحسني: من وحي البصائر، تقديم صالح ناصر، ط1، دار الأمة، الجزائر، 2004، ص 325.

[5]- رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الوطنية، ط2 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر، ص 217.

[6]- نفسه، ص ص 213-214.

[7]- نفسه، ص ص 391-394.

[8]- محمد الصالح رمضان، المصدر السابق، ص 57.

ولم يغفل الإبراهيمي عن حق المرأة في التعليم، فأتاح لها حسب الظروف والإمكانيات فرصة لنيل نصيبها من العلم، في الوقت الذي كان الناس يعتقدون عدم أحقية المرأة في التعليم، لهذا ألحق بمدرسة دار الحديث **مدرسة عائشة أم المؤمنين**[1] سنة 1952م[2]، وهي أول مـــدرسة خـــاصة بتعليم البنت المسلمة في الجزائر، وتخصصت دار

الحديث لتعليم البنين، ومنذ ذلك الوقت وهما خاضعتان لإدارة واحدة، حيث قدر عدد التلميذات في السنة نفسها بـ5696 تلميذة، إلى جانب ذلك شيدت الكثير من المدارس خاصة للبنات فقط منها مدرسة البنات بالمدية، وهي عبارة عن دار تبرع بها محسنان للإبراهيمي، ومدرسة الصادقية بمدينة الجزائر، ومدرسة خديجة أم المؤمنين بسكيكدة[3].

- مكانة مدرسة دار الحديث الإبراهيمية :

ولمعرفة قيمة مدرسة دار الحديث بتلمسان من بين مدارس جمعية العلماء، نجدها من خلال الإحصائيات في جريدة البصائر، إذ نجدها تتمثل في عدد الناجحين أو المتحصلين على شهادة علمية ابتدائية رسمية تمنحها الجمعية وحدها، وهو خمسة وثلاثون (35) ناجحا من مجموع مائة وثلاثة وعشرين (123) ناجح على مستوى كل مدارس الجمعية[4]، وهو رقم يعكس نسبة الناجحين من دار الحديث نحو الثلث من مجموع الناجحين على المستوى الوطني، حيث نجد:

-الناجحون من مدارس عمالة الجزائر 20 ناجحا.

- الناجحون من مدارس عمالة وهران 51 بما فيها دار الحديث (35 ناجح).

- الناجحون من مدارس عمالة قسنطينة 52 ناجح.

- مجموع الناجحين في تلك السنة 123 ناجح.

بالإضافة إلى مدى تأثر المغاربة بهذه المدرسة —دار الحديث– حيث أسسوا معهدا إسلاميا خاصا بدراسة الحديث النبوي ومصطلحاته، أطلقوا عليه "دار الحديث الحسينية" نسبة إلى الملك الحسن الثاني بمدينة الرباط[5].

---

[1]– أنظر الملحق رقم (02).

[2]– المصدر نفسه، ص 59.

[3]– محمد الهادي الحسني: "الإمام محمد البشير الإبراهيمي رئيسا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، مجلة الموافقات، العدد 04، السنة الرابعة، 1995م، ص ص 559-562.

[4]– جريدة البصائر، العدد 202، 10 محرم 1372هـ الموافق ليوم 24 ديسمبر 1952م، ص 02.

[5]– محمد الصالح رمضان، المصدر السابق، ص 58.

خاتمة :

بالرغم من أن الفضل مشترك في تشييد مدرسة دار الحديث بتلمسان على سبيل المثال لا الحصر، فإن النصيب الأوفر يعود إلى الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، فهو يعد بمثابة ضمير الحركة الإصلاحية، وهو مهندس الحركة الوطنية في تلمسان، حيث جعل منها محطة إشعاع ثقافي ووطني، تتجاوب مع المقاطعات الأخرى في أنحاء الوطن.

الملاحق :

الملحق رقم 01: تقرير الوالي العام. [1]

[1]- أرشيف ما وراء البحار، إكس بروفانس، 9H46، (A.O.M)

Tlemcen, le 10.II.1937

L'inspecteur Principal BERANEK à M. le
Sous-Préfet- TLEMCEN

Conformément à vos instructions, j'ai l'honneur de vous rendre compte que de l'enquête à laquelle je me suis livré, il résulte :
I°) que la situation parmi la population indigène est absolument calme, il n'a été enregistré aucune réaction parmi elle après le prononcé du jugement condamnant le sieur MESSALI et ses co-inculpés.

D'autre part, la sévérité de la répression au Maroc à maté les velleités qu'auraient pu avoir quelques perturbateurs a créer des incidents à Tlemcen.

2°) en ce qui concerne la situation de la nouvelle médersa, il résulte de renseignements recueillis que de graves dissentiments séparent lesdirigeants de cette médersa provenant en grande partie du manque de fonds. En effet, il est du des sommes importantes et malgré les collectes recueillies il est du encore plus de cent mille frs à différents créanciers que l'on ne sait comment recueillir.

Le Cheikh BRAHIMI, après s'être absenté de Tlemcen durant plusieurs jours y est revenu mais ne fait plus acte de présence nulle part.

En résumé, la situation financière de la nouvelle médersa est très critique et les dirigeants ne savent comment ils pourront s'en sortir en raison du peu de rapport que donnent lesnouvelles collectes.

Signé : BERANEK.

Tlemcen, le II.II.1937

LE COMMISSAIRE CENTRAL

à M. le Sous-Préfet

TLEMCEN

Comme suite à mon rapport N° I3036, en date d'hier, et en réponse à votre nouvelle demande verbale de renseignements concernant la médersa BRAHMI, j'ai l'honneur de vous rendre compte que les indications qu'il contient au sujet de l'enseignement qui est donné dans cet établissement doivent être considérées comme exactes. Quelques divergences parmi mes indications existent sur le nombre des élèves mais les chiffres fournis paraissent représenter la moyenne.

Les élèves payent les cours mais il n'y a pas de tarif fixé. C'est selon la capacité de paiement de chacun que cette contribution est réglée et d'une façon générale, elle est de 5 à I5 frs. Il m'a même été affirmé qu'il y en a d'assez nombreux à titre xxxxxxxx gratuit.

En ce qui concerne la situation financière des précisions se sont difficiles à obtenir. Cependant, de source digne de foi, cette situation serait la suivante ; un déficit d'une soixantaine de mille francs existerait, mais celui-ci serait beaucoup plus important si l'on tient compte de ce qu'il est fait état dans l'actif du montant de nombreuses et importantes souscriptions non encore versées.

Ce qui est certain, c'est que les sommes à ayer aux entrepreneurs, fournisseurs etc... dépassent de beaucoup les 60.000 frs ci-dessusindiqués.

Sig,é: ROMATTET.

ment d'ORAN
ture d'ORAN
et du Préfet
..°II.004

Oran, le 15 Novembre 1937

Le Préfet du Département d' ORAN
à Monsieur le GOUVERNEUR GENERAL de
l'ALGERIE (Cabinet du Gouverneur)
ALGER

Comme suite à mes précédentes communications relatives au fonctionnement de la Médersa Dar el Hadits, j'ai l'honneur de vous transmettre ci-joint, copie d'un rapport de M. le Sous-Préfet de Tlemcen, indiquant qu'effectivement des cours sont irrégulièrement professés.

M. le Sous-Préfet de Tlemcen proposant l'application de l'article 37 et suivants de la loi du 30 Octobre 1886 et de l'article 48 et suivants du décret du 18 octobre 1892, je nepuis pour ma part que l'approuver en ses conclusions.

LE PREFET
Signé: Louis BOUJARD.

الملحق رقم 2: صورة لمدرسة عائشة أم المؤمنين (البشير الإبراهيمي والمعلمات). [1]

[1]- أنظر: محمد صالح الصديق، مصدر سابق، ص 42.

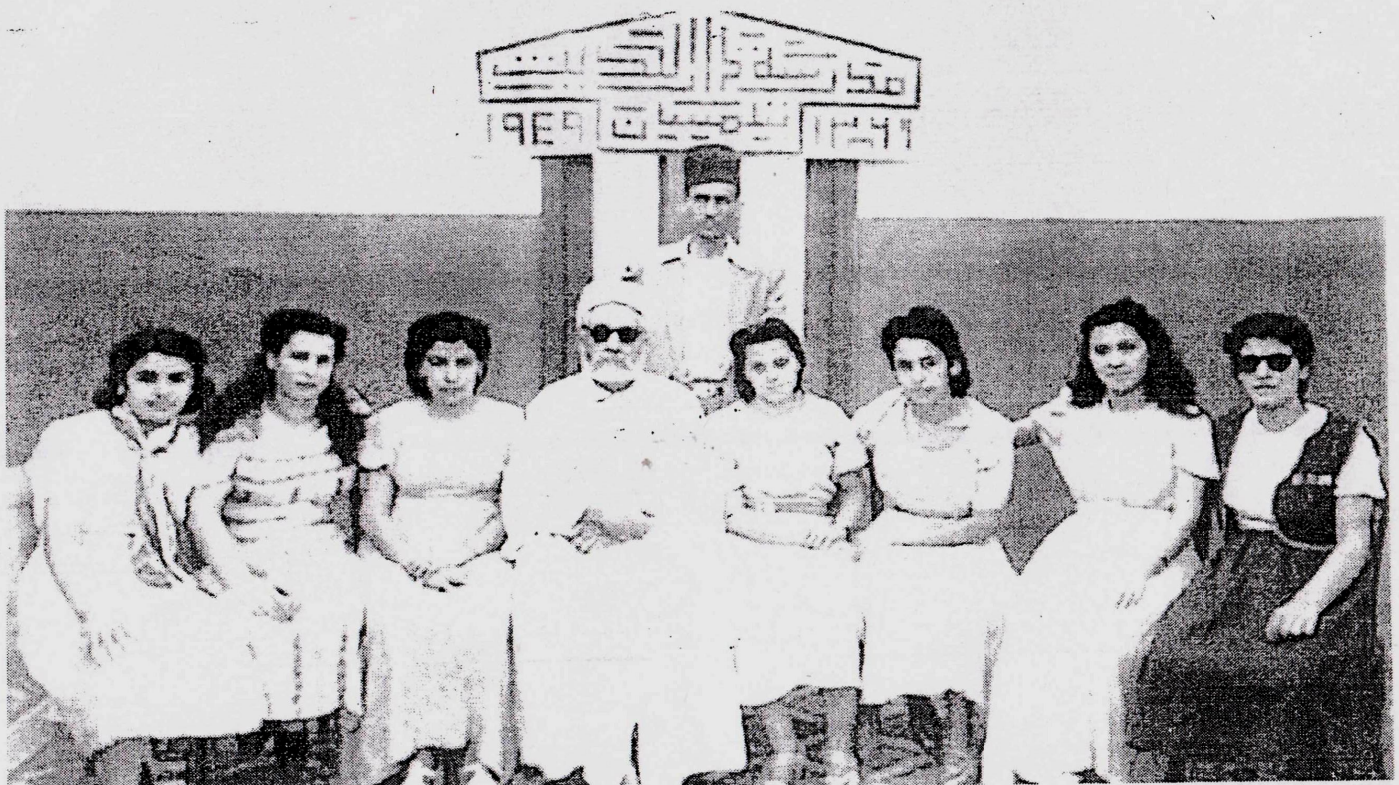

معلمات (مدرسة عائشةأم المؤمنين خريجات(دار الحديث) يتوسطهن الشيخ البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء وخلفه مدير المدرسة محمد الصالح رمضان

وأسماء المعلمات من اليمين إلى اليسار: زليخاء قوار حورية بن ديمراد زليخاء ابراهيم عثمان فتيخة مراد بودية خديجة خلدون رشيدة بن ديمراد ونويرة ابراهيم عثمان

نظرات تاريخية على واحة بوسعادة قبيل الاحتلال الفرنسي
1814 . 1849 م

د. خميسي سعدي. باحث بجامعة الجزائر (02) أبو القاسم سعد الله

يتميز التاريخ المحلي خلال العهد العثماني على العموم بالغموض وغياب المصادر التي تبين اتصال العثمانيين بداخل الجزائر وظروف استقرار الحاميات ، والعلاقات القائمة بين السكان المحليين والعثمانيين ، وأمر اخر تجب الاشارة اليه مثل وجود عائلات نافذة كأسرة المقراني تقوم بمهام السلطة الحاكمة مستغلة عدم وجود سلطة مركزية توحد الجميع لتتنافس فيما بينها وتتصارع على مناطق النفوذ[1] .

ان تكوين صورة تاريخية عن منطقة بوسعادة خلال العصر الحديث و لا سيما العهد العثماني ليست بالمهمة اليسيرة بسبب قصور المعطيات المتاحة عن مدنا بمعلومات تفيدنا في وضع اطار تاريخي للمنطقة ، و هي في حقيقة الحال لا تعدو أن تكون الا اشارات عابرة لا تكفي لتوضيح الامر على حقيقته واستجلاء خباياه ، ولهذا يصبح الهدف من كل بحث لهده المنطقة في ظل هذه المعطيات ينصب أساسا الى محاولة اعادة ربط تاريخ المنطقة بباقي البلاد مع ابراز أهمية المنطقة ومكانتها في نطاق التاريخ الوطني .

واعتبارا للموقع الجغرافي للمدينة وضواحيها الذي يعد مجالا حيويا لحركة عرش أولاد نايل ذو الانتشار الواسع بين بايلكي التيطري و قسنطينة وقربها من مدينة المسيلة وقبيلة أولاد ماضي واتصالها بمنطقة سور الغزلان والمدية جعل بوسعادة في دوامة الاحداث التي جرت في تلك الفترة وأحيانا مركزا لها كما سنبينه .

وكان لمدينة المسيلة مكانة مميزة في العهد العثماني وكانت تمثل في نظر أحد الباحثين مفتاح الاتصالات بين الصحراء ومدينة الجزائر وبين قسنطينة عبر طريق البيبان ، لذلك قام العثمانيون بوضع حامية عسكرية في المدينة .وأدى استقرار العنصر التركي بالمنطقة الى الاختلاط بالسكان المحليين والتواصل معهم عن طريق الزواج والمصاهرة والتجارة[2].

وقبل الخوض في الوقائع التاريخية للمنطقة في العهد العثماني تجب الاشارة الى الرواية المتعلقة بأصول قرية بن الزوه القريبة من واحة اولاد سيدي ابراهيم بالديس والتي ترجع سكان القرية الى نسب تركي الى ابراهيم أحد الجنود الاتراك الذي استقر بها وتزوج من ابنة سيدي ابراهيم المرابط المؤسس لواحة الديس[3] .

---

1 – كمال بيرم : مدخل الى تاريخ مدينة المسيلة من الاحتلال الروماني الى العهد العثماني، دار الاوطان للنشر و التوزيع ، الجزائر، 2012 ، ص 194 .

2 – كمال بيرم : المرجع السايق ، ص 196،197 .

2- Charles FEREAUD : Histoire des villes de la province de Constantine, in RSADC ,1872, p.345 .

ويستشف من خلال بعض الكتابات التاريخية ان استقرار العثمانيين بالمنطقة يعود الى سنة 1541 م على يد حسن آغا حينما ترك حامية عسكرية بالمسيلة ، وتضيف نفس تلك الكتابات ان الحملة التي قادها صالح رايس على ورقلة سنة 1552 م وشارك فيها عبد العزيز المقراني بقوات هائلة و ساهم في نجاحها ، انهما اتفقا فيما بينهما شفهيا على منحه مدينتي المسيلة وبوسعادة[1].

وبما أن الاتفاق لم يتم كما أعد سلفا فان المقرانيين قاموا بمهاجمة الحامية التركية بالمسيلة وتمكنوا من هزم الجيش العثماني بواد اللحم القريب من بوسعادة سنة 1554[2] م .

ولقد حاول المقرانيون تثبيت سلطتهم على مدينة بوسعادة ومد نفوذهم الى ابعد من ذلك ولتنفيذ هذا الامر قام أمقران سنة 1559 م بحملة كبيرة على واحات الزاب التي أخضعها لسلطته وعين في كل من بسكرة وطولقة شيخين تابعين له . وبعد انتهاء حملته على الواحات اتجه نحو قبائل اولاد نايل المنتشرين بين بوسعادة وبسكرة والجلفة ، حيث تمكن من اخضاعهم بعدة عدة هجومات على مراكزهم و مضاربهم . وليتحكم في هذه الاراضي الواسعة قام بتنظيم عملية الاتصال بينه وبين نوابه في حالة الخطر وذلك بإيقاد النار ليلا والدخان نهارا على قمم الجبال ، مثل جبل سالات و الدريعات ومنها الى مجانة [3].

ولقد اتخذ آل المقراني من منطقة بوسعادة مكانا مفضلا يقضون فيه شتاؤهم ،اذ يتوجهون كلما حل فصل البرد الى الموضع المعروف بعين زكارة جنوب شرق بوسعادة ، متخذين من صيد الطيور هواية ومتعة لاسيما طائر الحجل ، وبحلول فصل الحرارة في منطقة بوسعادة يعودون الى التل ،أي الى ديارهم بمجانة[4] .

يتميز عرش اولاد نايل عن رفضه الدائم الخضوع لسلطة مباشرة تتحكم فيه وتحد من حريته ، وكانت مسألة الضرائب وجبايتها من العوامل المساعدة دوما على الابتعاد عن مجال سلطة البايات والانتشار في المناطق التي لاتصل اليها العثمانيون الا بشق الانفس[5] .

ولقد حاول بايات التيطري استخلاص الضرائب منهم لكنهم فشلوا ، فهذا عثمان باي قاد حملة تأديبية على أولاد نايل سنة 1763 م انتهت بمصرعه في المكان المعروف من وقتها بكدية الباي جنوب الزاغر. ونفس المصير لقيه سفطة باي و عدد من جنوده اثر حملة تأديبية قادها ضد أولاد نايل[6] .

1- Mouloud GAID :Mokrani Editions Mimouni ,Alger , 2009, p. 18.
2-Op.cit, p.220-221 .
3- Ibid,pp. 228_231
4- Ibid, p. 232.

[5] – كمال بيرم : المرجع السابق ، ص 206، 207.

[1]0 - Aucapitaine HENRI et Federmann HENRI: Notice sur l'histoire et l'administration du beylik de titeri ,in Revu Africaine N°9,Année 1865,pp.285,289.

ان فشل بايات التيطري في كبح جماح اولاد نايل والعجز في النيل منهم والسيطرة عليهم أزعج هذا الامر دايات الجزائر ، حيث اعطيت الاوامر لقائد بايلك قسنطينة صالح باي بمهاجمة المتمردين في بايلك التيطري ومعاقبتهم . فسار اليهم سنة 1773 م وأوقع بهم هزيمة كبيرة في معركة مالح او مسيف ، وقبل ان يعود الى قسنطينة بعث الى الجزائر بكثير من الغنائم مع ستين رأسا وأربعمائة زوج اذن للعصاة الذين قضى عليهم ، حتى يظهر للداي قوة انتصاره وقيمة نجاحه على القبائل المتمردة بنواحي الجلفة وبوسعادة التابعة لبايلك التيطري[1] .

بعد هذا الفشل الذي مني به عصمان باي في اخضاع اولاد نايل ، تفادى خلفاؤه القيام بأي عمل تأديبي ضد هذا العرش الذي بقي يعيش حياته الخاصة ، المتمثلة في الحل والترحال ، والبحث عن الكلاء والعشب ومنابع المياه وأماكن تواجدها ، دون الالتزام بأي سلطة سياسية تفرض عليه تقديم فروض الطاعة والولاء . ان هذا لا يعني ان أولاد نايل لم ينتظموا أبدا في بايلك التيطري فهناك بعض البايات تمكنوا من اخضاعهم وجعلهم يلتزمون بدفع الضريبة وأداء الزكاة مثل الباي مصطفى الوزناجي[2] .

وفي سنة 1814 كانت مدينة بوسعادة مركزا لالتقاء وتجمع الحملتين العسكريتين اللتين جاءتا من قسنطينة والجزائر لتأديب ومعاقبة قبيلة أولاد ماضي وسكان بوسعادة ،اللذين دخلا في نزاع مسلح مع جلال باي بايلك التيطري وتمكنا من تكبيده خسائر فادحة. وسبب هذه الحملة ان قبيلة اولاد ماضي قامت بغارة على بعض قبائل التيطري فاعتبر جلال باي قائد بايلك التيطري ان ذلك اعتداء على سلطته فجهز حملة لتأديبهم . وتزامنت هذه الحادثة مع رفضهم دفع الضرائب واتسع نطاق هذا الرفض ليشمل مناطق اخرى شكلت تهديدا للعثمانيين . ولما علم سكان بوسعادة بأمر الحملة غادروها بما خف حمله وغلا ثمنه وتركوها للأتراك الذين قاموا بنهبها[3].

وفي بوسعادة قسمت الجيوش المتجمعة الى حاميتين تتولى كل واحدة منهما احدى القبيلتين ، دامت العمليات يومين كاملين دون نتيجة تذكر، وأدى التساقط الكثيف للثلوج الى تعطيل حركة تنقل الجنود ، حيث

---

2 – ناصر الدين سعيدوني : دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984، ص 61. وانظر كذلك ،

– اوجين فايست : تاريخ بايات قسنطينة 1792 م– 1873م ، ترجمة صالح نور ، تقديم عبد الرحمان شيبان، الطبعة الاولى، دار قرطبة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2010 ، ص ص 26،27 .

[2] - Op.cit, p.287.

[3] – كمال بيرم : المرجع السابق ، ص 206 ، وانظر

- Aucapitaine BAROUN henri :Notice sur Bou-saada , in Revu Africaine N°6 du 1862,p.55.

مكثوا في مدينة بوسعادة أربعة أيام . وكانت نتيجة هذه الحملة مأساوية بالنسبة لنعمان باي بايلك قسنطينة ،الذي دبرت مؤامرة ضده أفضت الى قتله بالمسيلة[1] .

وفي عهد الباي ابراهيم سهر بن الحاج خليل باي التيطري بلغته الانباء عن اولاد نايل المتمردين بأنهم نازلين بخيامهم بامجدل غير بعيد عن بوسعادة ، فقام بغزوهم وكبدهم خسائر معتبرة في الارواح وغنم قطعان المواشي ، ولم ينجهم الا احتماؤهم بجبل الباطن[2] .

و من جهته قام باي قسنطينة محمد منامايي بحملة على أولاد دراج واولاد نايل المجتمعين في واد اللحم سنة 1824 م ، كانت نتيجتها هزيمة الباي وفقد كل خيامه وأكثر من أربعين ألف رأس غنم كان قد جمعها خلال حملته هذه[3] .

وفي عهد اخر بايات التيطري مصطفى بومزراق قام هو ايضا بحملة لاخضاع اولاد فرج النازلين بعين الريش جنوب غرب بوسعادة حيث تمكن منهم واخذ قطعانهم من المواشي . واستطاع بومزرق بنشاطه وحنكته ان يكسب ود وصداقة الكثير من القبائل ويتخذ من زعمائها وشيوخها اصحابا واصدقاء له . ومنذ ذلك الوقت أصبح اولاد نايل يخضعون مباشرة لاغا الجزائر ، وقد تم تعيين حسن الكريتلي قائدا على اولاد نايل يقيم بين أظهرهم ويسافر الى الجزائر مرتين في السنة لتقديم المحاصيل والضرائب[4] .

اما عن تنظيم مدينة بوسعادة فكان يشبه تنظيم المدن والقصور الصحراوية في العهد العثماني ،حيث ان المدينة مقسمة الى احياء وكل عشيرة أو فرقة تستقل حيا خاصا بها ، يدير شؤون الفرقة شيخ أو كبير بمساعدة بعض الافراد يطلق عليهم الجماعة أو كبار الفرقة . ويجتمع شيوخ الفرق الممثلين لاحياء المدينة لتكوين جماعة أعيان بوسعادة أو مجلس اعيان يتولى تسيير شؤون المدينة [5] . بالاضافة الى ذلك فان دور جماعة بوسعادة له مهام تتمثل فيما يلي:

- حفظ النظام العام واحلال الامن والانسجام بين مختلف مكونات المجتمع المحلي وفض النزاعات فيما بينهم .
- جمع الضرائب ودفعها لممثل الباي
- استقبال الباي حين زيارته للمدينة

---

[1] – أوجين فايست : المصدر السابق ، ص 161 ،162 .

[2] - Op.cit,p.296.

[3] – أوجين فايست : المصدر السابق ، ص 234 .

[4] - Aucapitaine HENRI et Federmann HENRI:Op.cit,p.299.

[5] - Op.cit,p.55

وبما ان موقع مدينة بوسعادة ومجالاتها يقعان على حدود بايلكي التيطري وقسنطينة قد ألقى بظلاله على مسألة التبعية الادارية التي جعلها تتميز بالغموض ، وهو ناجم على ما يبدو عن الخلط بين قصر بوسعادة (المدينة و الواحة) والاعراش والقرى المرتبطة به وعرش اولاد نايل ، ويستشف من بعض الوثائق الارشيفية حول جباية الضرائب ببوسعادة بأنها كانت تجمع وترسل الى بايلك قسنطينة[1].

وفي نفس السياق ذكر التقرير الذي أعده اوربان (Urbain) و وارني (Warnier)حول بايلك قسنطينة اعتمادا على وثائق و سجلات البايلك سنة 1837 و نشر في حوليات وزارة الحربية المعروف باسم جدول وضعية المؤسسات الفرنسية بالجزائر ان مدينة بوسعادة نوعا ما مستقلة عن البايلك لبعدها ومتحررة من نفوذه و أهلها يمارسون تجارة ريش النعام[2] .

و لا يدفعون الضريبة تطوعا و تجبى بالقوة التي تصاحب عادة الحملات العسكرية والغارات المفاجئة[3] . و في نفس الحولية تمت الاشارة الى ان هناك ثلاث واحات هي بوسعادة اكبرها واهمها واوسطها واحة الديس و اصغرها واحة بن زوه في معرض الحديث عن طبوغرافية اقليم قسنطينة[4] .

وهناك من يرى بأنها تتبع اقليم التيطري بالنظر الى الترتيب الادراي الذي جعل من اولاد نايل احد القبائل المنتمية لاقليم بايلك التيطري ولكنها تتبع دار السلطان وقائدهم يعين من طرف الداي بالاضافة الى غارات بايات التيطري على مختلف قبائل اولاد نايل الذي ينتقلون بين المناطق الممتدة بين الجلفة والاغواط والمدية وبوسعادة وبسكرة [5] .

ولقد رصدت التقارير الفرنسية المختلفة حالة التوتر التي ميزت العلاقة بين مختلف الاحياء المكونة لمدينة بوسعادة والشقاق الدائم بينها وعرفت بعض الفرق المتجاورة في سكن نفس الحي شجار مستمر مثلما حدث بين الموامين و

---

[1] - Occupation de Bou-saada, 7H8, - Yocef Nacib

[2]-Ministre de la guerre : Tableau de la situation des établissement Français dans l'Algerie en 1840, imprimerie royale, Paris, 1841, p332.

[3]- Op cit, p 344.

[4]- Ibid , p 28,29.

3 . ذكر اوربان في مقاله المنشور سنة 1845 ان قبائل اولاد نايل تشكل كونفدرالية من القبائل القوية جدا وهي كالتالي : اولاد سعد بن سالم ، اولاد عيسى ، اولاد زكري ، اولاد ساسي ، اولاد يحي بن سالم ، اولاد فرج ، اولاد عامر ، اولاد دية ، اولاد سي احمد . و ذكر مدن اولاد نايل المنتمية الى اقليم التيطري وهي : الشارف ، مسعد ،دمد ،زكار، ولم يذكر واحة بوسعادة او الديس او قرية بن الزوه . لمزيد من التفصيل انظر :

- Urbain: Notice sur l'ancienne province de titeri ,p434,435,

المنشور في :

-Ministère de la guerre: Tableau de la situation des établissements Français dans l'Algerie 1843-1844, Paris,Imprimerie Royale , 1845.

- Yocef Nacib

اولاد سي حركات . هذه الوضعية المتسمة بالفرقة وعدم الاتحاد دفعت جيرانهم من القبائل القوية من غزو المدينة وضواحيها وفرض سلطتها عليهم مثلما كان يفعل أولاد ماضي منهم أولاد سحنون من منطقة بريكة . وواقع الحال ان هذه الوضعية ستسمر الى غاية مجيئ قوات الاحتلال التي ستستفيد من ذلك الشقاق وتتمكن بكل سهولة من بسط نفوذها على المدينة كما سنراه لاحقا[1] .

وكانت واحة بوسعادة مقسمة الى عدة حارات تعيش في كل واحدة منها فرقة من فرق بوسعادة الثمانية وهي :

الموامين ، اولاد سي حركات ، اولاد عتيق ، اولاد حميدة ، الشرفة ، لعشاش ، الزقم ، والعرقوب الذي تقيم فيه بعض الاسر اليهودية

المنطقة بعد 1830

تميزت الفترة التي أعقبت سقوط مدينة الجزائر بيد الفرنسيين الى انحلال الدولة الجزائرية وتفكك نظامها و انتشار الفوضى وعودة القبائل والاعراش الى أعمال السلب والنهب ورغم محاولات بعض البايات التحكم في الاوضاع وملء الفراغ الذي تركه سقوط الدولة المركزية .

ولقد انفرد اقليم قسنطينة عن بقية الاقاليم بنشاط زعمائه وعلى رأسهم احمد باي الذي حاول ان يستغل انهيار نظام الحكم المركزي ليملأ الفراغ الاداري لكنه اصطدم بزعماء طموحين وقبائل ثائرة ومتمردة على كل سلطان ، فابتداء من سنة 1831 أصبحت منطقة بوسعادة مكانا آمنا لفرحات بن سعيد في معاركه المتوالية ضد خصومه احمد باي ، وبوعزيز بن قانة ، فكلما انهزم أو شعر بعدم الامان لجأ الى عرش أولاد خالد ليقيم بين أظهرهم وغالبا ما يرسل اليهم كل ما يخاف عليه أن يقع لدى أعدائه ولا سيما المواشي[2] .

في سنة 1832 تذكر بعض المصادر دون أن تبين الاسباب قيام اولاد نايل بغارة على مدينة المسيلة حيث تمكنوا من القضاء على الحامية التركية المتكونة من 30 فردا و مساعديهم من السكان المحليين هل هذا عمل استباق منهم لرفض سلطة أحمد باي أم أن هذا الامر من تدبير وتخطيط من قبل اولاد ماضي صف بوضياف . وخلال غيابهم عن مضاربهم قامت قبائل البواعيش واولاد خليف و اولاد شعيب و قبائل جبل عمور بنهب مخازن حبوب اولاد نايل والاستيلاء عليها ، و حينما عادوا واكتشفوا الامر قاموا بغزو تلك القبائل الواحدة تلوا الاخرى[3] .

---

[1] - Baroun Henri Aucapitaine : op.cit. p.49,55 et Charles Feraud : op.cit.351,355.

[2] - Commandant Seroka : le sud constantinois de 1830 a 1855;revue Africaine,volume 56,Annee 1912, p.386.389.

[3] - Arnaud : Histoire de ouled nail ,revue Africaine , volume 17,Année ,1873,p,301.

و أمام الفوضى القائمة في المنطقة الجنوبية لنفوذ احمد باي انتقل بنفسه الى المسيلة سنة 1833م لمعالجة الامور ومعاقبة المتسببين في ذلك ، فقام باستدراج محمد بلحاج شيخ الصحراء الذي كان معه على خلاف وسوء تفاهم الى معسكره بالمسيلة ونظم له حفل استقبال ليكسب ثقته ويبدد الشكوك التي تراوده تجاهه ثم امر من دس له السم في غليونه فمات[1] .

بعد ذلك اتجه احمد باي الى مطاردة اولاد ماضي صف بوضياف الذي لجأ الى الحوامد وقام بقطع واتلاف حقول قمحهم ثم استدعى اليه القائد السابق لديرا سي احمد وليد بومزراق ابن باي التيطري السابق حيث خلع عليه لقب باي وعينه على المدية وعين كذلك محمد بن قويدر من العذاورة اغا قوم التيطري وكلفه بمحاربة اولاد ماضي[2] .

خلال هذه الظروف وقع سوء تفاهم و خلاف بين سكان واحتي الديس وبوسعادة ، حيث احتمى أولاد سيدي ابراهيم بجيش احمد باي التيطري الذي كان مارا بالقرب منهم بشرط أن يمدوه بالمؤنة في حروبه القادمة فأمدهم بالعون فسارع سكان بوسعادة الى طلب النجدة من المقراني الذي هب الى نجدتهم وانتهت هذه الاحداث بانسحاب باي التيطري الى المدية متخذا طريق سور الغزلان[3] .

استطاع أحمد باي ان يسيطر على الزيبان وأن يطرد منه خصومه لبعض الوقت لا سيما فرحات بن سعيد هذا الاخير بعد مقتل شيخ الصحراء محمد بلحاج لجأ مرة أخرى الى منطقة أولاد نايل ليحتمي بها وبالخصوص عند عرش اولاد خالد حيث بقي هناك الى غاية سقوط قسنطينة ، وكاد أن يقتل في نزاع بين عرشي أولاد ماضي والسوامع ضد اولاد خالد اذ قبض عليه من طرف أولاد ماضي ولولا تدخل أحد وجهاء اولاد ماضي الذي عرفه وسهل له النجاة بنفسه ثم لجأ بعدها الى اولاد بوجدل مرابطي زاوية عين فارس[4] .

وبعد سقوط قسنطينة بيد الفرنسيين سنة 1837 م لجأ احمد باي الى منطقة الحضنة لينظم صفوفه ويستعد للمقاومة وعلى هذا الاساس سار الى محاربة فرحات بن سعيد المتواجد ببسكرة وطرده منها فارسل هذا الاخير اخوه الى اولاد نايل طالبا منهم المساعدة فهب لنجدته اكثر من 500 فارس حيث اعترض طريقهم البوازيد وقتلوا منهم حوالي 50 فارسا اخذوا رؤسهم للحاج احمد باي ، وبعد انهزام فرحات بن سعيد امام الحاج احمد باي في واقعة سحيرة لجأ مرة أخرى الى منطقة أولاد نايل ليحتمي بهم[5] .

ومن بين النتائج المباشرة لسقوط الدولة المركزية ظهور وتنامي مسألة اصطفاف القبائل وتحالفها خاصة في منطقة الحضنة وبوسعادة و التيطري صف اولاد ماضي (بوضياف بن احمد) اولاد مختار غرابة (بن عودة بن احمد)

---

[1] - Commandant seroka,op.cit,p.393.
[2] - Guin :Note historique sur les adaoura , revue Africaine
[3] - Charles feraud : op.cit,p.355.
[4] - Commandant seroka,op.cit,p.395.
[5] - Commandant Seroka:op.cit.p,397-399.

اولاد مقران (محمد بن احمد) ويقابل هذا التحالف صف اخر عريب اولاد ماضي (عبدالله بن بوعزيز) اولاد مختار الشراقة (بن داود بن رشيدة) اولاد مقران (سيدي احمد بن محمد)[1].

الامير عبد القار في منطقة بوسعادة

ان الكلام عن تواجد الامير عبد القادر بمنطقة بوسعادة يجرنا حتما الى التطرق الى اثار ذكره او الحديث عنه وسط الناس ، لقد حاز شهرة واسعة وصيتا ذائعا انتشرا في ربوع الجزائر ، بأنه سلطان عربي يدافع عن الدين والوطن ، و يحارب الكفار . وأول اتصال بين الامير واولاد نايل حدث حينما جند بعضا منهم موسى الدرقاوي في معركته ضد الامير انتهت بهزيمته بالقرب من المدية[2] .

ثم قام الامير بتنظيم اولاد نايل سنة 1836 وقسمهم الى 06 فرق جعل على كل واحدة منها شيخ و هؤلاء الشيوخ جعلهم تحت سلطة سي عبد السلام بن القندوز من فرقة اولاد لغويني ، ومن بينهم فرق اولاد نايل النازلين غرب بوسعادة في اتجاه الجلفة[3] .

وبعد اتفاقية التافنة جاء الامير الى جبال ونوغة لتنظيم المقاومة بها ، وباحثا عن حلفاء له بالمنطقة الواسعة التي تضم كل من البرج المسيلة بوسعادة التي تخضع فيها قبائل اولاد نايل لا سيما اولاد خالد الى نفوذ وتأثير فرحات بن سعيد في الزيبان ومدينة بوسعادة الي يمارس عليها المقراني نفوذا كبيرا في مجانة ، اختار الامير محمد بن عبد السلام العايب كخليفة له بمجانة وعين بوضياف بن بوراس اغا على الحضنة[4] .

و كلف الأمير القائد العسكري البركاني الذي كان متمركزا ببوسعادة الى التنقل الى الزيبان لتنصيب الحسن بن عزوز في منصبه كخليفة للامير على المنطقة ورافقه في هذه الرحلة كل من بوضياف بن بوراس وفرحات بن سعيد[5] .

والسؤال المطروح لماذا البركاني يختار بوسعادة ويقيم فيها معسكره ؟ ان ذلك راجع الى اهمية موقع المدينة من الناحية الجغرافية وكذلك باعتبارها كمركز لقبائل اولاد نايل خاصة تلك النازلة على الطريق بين بوسعادة وبسكرة بالاضافة الى وجود سوق اسبوعي يتوافد عليه الناس والتجار من كل مكان فهو يتيح فرصة للاتصال بأكبر قدر ممكن من الناس لنشر سلطة ونفوذ الامير عبد القادر.

و في طريقه لمهاجمة التيجاني يعين ماضي عسكر الامير بجيشه في منطقة الديس حيث هب لاستقباله سكان بوسعادة واعيانها والقبائل المحيطة بالمنطقة معلنين بيعتهم لأمير المؤمنين وطاعتهم له وولائهم لداعي الجهاد

---

[1] - Guin :op.cit.p,117-120.

[2] - Arnaud : Histoire des Ouled Nail, Revue Africaine , N°17 Année 1873, p. 309.311.

[3] - Arnaud : Histoire des Ouled Nail, Revue Africaine , N°17 Année 1873, p. 311.

- 3- caom:8h7;historique de la tribu de haouamed

- 1- caom:8h7;historique de cercle de bousaada

وشارك الكثير من ابناء المنطقة في جيشه حتى وصل بعضهم الى رتبة اغا المشاة محمد بن عودة من أبناء سيدي حملة[1] .

فشل خليفة الامير بمجانة في السيطرة على المنطقة والحد من تنامي نفوذ الفرنسيين وأعوانهم فاضطر الامير سنة 1840 الى استبداله بكاتبه احمد بن عمار الحائز على تكوين ديني وهو من عائلة مرابطة من سيدي عيسى ، فقام هذا الاخير بإطلاق سراح أحد منافسي بوضياف الا وهو عبد الله بن بوعزيز أحد انصار الحاج احمد باي[2] . وسيكون لهذا العمل أثار سلبية ساهمت في حد كبير في احتلال مدينة المسيلة ، وتسليمها الى الفرنسيين دون مقاومة تذكر .

بقيت منطقة بوسعادة ما يقارب مدة السنتين 1838 -1840 تحت سلطة خلفاء الامير وأعوانه الذين توزعوا على مدن المسيلة و بوسعادة ومجانة وسيدي عيسى يحثون الناس على الجهاد ويقومون بعمليات عسكرية ضد الفرق العسكرية الفرنسية المنتشرة في كل من سطيف و برج بوعريريج وضد مساندیهم ومساعديهم من الجزائريين[3] .

ولقد انسحب الحاج مصطفى المكلف من قبل الأمير عبد القادر بتنظيم المقاومة بالحضنة من مدينة المسيلة حين اقتربت منها حملة الجنرال نيقري في جوان 1841 حيث لجا الى اقامة معسكره بالديس مركز قبيلة أولاد سيدي ابراهيم ، التي تبعد عن بوسعادة بعشر كلم .

ومن النتائج الهامة لحملة الفرنسيين على المسيلة اقامة برج عسكري مدعما بحراسة قوم المقراني الذي تعززت سلطته وازداد نفوذه على المنطقة واصبح أكثر قوة يعاونه في ذلك الحليف الجديد للفرنسيين في المنطقة بوضياف بن بوراس الذي عين لقيادة مدينة المسيلة والمناطق المجاورة لها ويتبع السلطات الفرنسية مباشرة[4] .

ومما يلاحظ على عملية احتلال مدينة المسيلة هي السهولة التي تمت بها وهذا راجع في بداية الامر الى دور كل من المقراني وبوضياف في تهدئة أعيان و وزعماء و تجنيدهم الى جانب الطرف الفرنسي .

---

[1] – الحاج مزاري : الهامل مركز اشعاع ثقافي وقلعة للجهاد و الثورة ، المطبعة العصرية بلوزداد ، الجزائر ، 1993 ، ص 49 .

- 3- CAOM:8h7, historique de la tribu de haouamed

38- caom:8h7;historique de cercle de bousaada.

- 39- caom:8h7;historique de cercle de bousaada.

الصورة الجغرافية لمنطقة المسيلة من خلال رحلة شارل دوغالون1897م

الباحث. راجعي عبد العزيز جامعة قسنطينة 02 عبد الحميد مهري

مقدمة:

من المصادر التي تتميز بالجدية و التي يعتمد عليها في كتابة تاريخ الجزائر أثناء فترة الاحتلال الفرنسي الرحلات التي قام بها الأوربيون إلى الجزائر وجابوا مختلف مناطقها ، ونقلوا لنا معلومات غزيرة بالأحداث التاريخية ومعطيات وفيرة حول الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

هذه الرحلات في غاية الأهمية كونها تساعد الباحث والمؤرخ من الإطلاع على كم هائل من المعطيات التاريخية والمادة الخبرية الخاصة ببعض المناطق الداخلية للجزائر ، من بينها منطقة الحضنة التي كانت مقصدا وهدفا لعدة رحالة أوربيين، الذين تركوا لنا مادة خبرية قيمة ساهمت إلى حد بعيد في إقامة تصور حي عن منطقة الحضنة[1] ومجتمعها في أواخر القرن 19 م وبدايات القرن 20م . و من بين هؤلاء؛ الرحالة الفرنسي **شارل دو غالون Charles De Galland**(1851- 1923م) و رحلته الموسومة بـ: " رحلة إلى بوسعادة ومسيلة " (**Excursion à Bou-Saada et M'sila**) سنة 1897م .

تناولت هذه الرحلة جوانب عدة منها: الجانب التاريخي (السياسي والعسكري)، الجانب الإجتماعي (الديني والثقافي)، ولا سيما الجانب الجغرافي[2] لمنطقة الحضنة، وهو غاية دراستنا هذه، التي تستوجب طرح الإشكالية التالية:

كيف كانت الصورة الجغرافية لمنطقة المسيلة من خلال هذه الرحلة؟

وعلية الإجابة على هذه الإشكالية تكون وفق الخطة التالية:

---

[1] - **مصطلح الحضنة**: الحضنة مصطلح جغرافي ولغوي وإجتماعي يشمل منطقة واسعة تضم عدة مدن كبرى (المسيلة، بوسعادة، سيدي عيسى، ونوغة، أولاد دراج، مقرة...)، تطور مفهومه عبر العصور من القديم إلى الوسيط فالعصر الحديث، من خلال عدة مصادر جغرافية؛ كالمقدسي، البكري، إبن حوقل، الإدريسي، الوزان، العياشي، شو وديبوا، كما يمثل الإقليم منطقة متميزة بمظهرها الطوبوغرافي والجغرافي المحصور بين سلاسل جبلية برزت من خلالها صفة الإحتضان، وهي مصدر تسميته بإسم الحضنة، تسمية نجدها ترتبط أكثر بالروابط الإجتماعية والإقتصادية التي عاشتها المجموعات البشرية المحيطة بمدينة المسيلة، وليس إلى حدود سياسية أو إدارية. أنظر: سعد الدين سهام: (من أعلام الحضنة ودورهم في الحركة الوطنية وثورة التحرير 1900-1962م)، مذكرة ماستر، تاريخ حديث ومعاصر، إ. بيرم كمال، كلية العلوم الإجتماعية والعلوم الإنسانية، جامعة المسيلة، 2013/2012، ص06. أيضا: Despois.J, le hodna (algerie), PUF, paris, 1953, pp6-11.

2 - **علم الجغرافيا**: علم يقوم بدراسة سطح الأرض وما عليه من ظواهر بشرية، حيث يهتم بتوزيع هذه الظواهر توزيعا إقليميا، مع دراسة مدى تأثرها بمظاهر البيئة الطبيعية، والجغرافيا بهذا المعنى ذات شقين، جغرافية طبيعية وجغرافية بشرية. للمزيد أنظر: محمود محمد سيف: أسس البحث الجغرافي، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1998م، ص ص 13-14. أيضا: إبراهيم أحمد سعيد: أسس الجغرافية البشرية والإقتصادية، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، منشورات حلب، سوريا، 1997م، ص18.

- مقدمة
- ماهيـة الرحلة (تعريفها، دوافعها، أنواعها)
- التعريف بالرحالة شارل دو غالون
- صورة الجغرافية الطبيعية لمنطقة المسيلة من خلال الرحلة
- صورة الجغرافية البشرية لمنطقة المسيلة من خلال الرحلة
- خاتمة

I. ماهية الرحلة:

1. تعريفها:من الإرتحال، و هي تعني الإنتقال من مكان إلى مكان آخر لتحقيق هدف معين، سواء كان الهدف ماديا أو معنويا، أما الحركة خلال الرحلة بقطع المسافات فهي السِّفر، وجمعه: أسفار.

ويعرفها بطرس البستاني بأنها: « إنتقال واحد- أو جماعة – من مكان إلى مكان آخر، لمقاصد مختلفة، وأسباب متعددة »[1].

وتقدم الدكتور صلاح الدين الشامي حينما أضاف قائلا أنها: « إنجازا أو فعلا فرديا أو جماعيا لما يعنيه إختراق حاجز المسافة، وإسقاط الفاصل المعين بين المكان والمكان الآخر، ويتأتى هذا الإنجاز من أجل هدف معين، ويجاوب هذا الهدف إرادة الإنسان وحركة الحياة على الأرض بشكل مباشر أو غير مباشر.و قد تكون الرحلة هواية تشبع حاجة الإنسان وترضيه، وقد تكون إحترافا يخدم حاجة الإنسان ويشبعه، ولكنها تكون- في الحالتين- إستجابة مباشرة لحوافز ودوافع محددة تدعو بكل الإلحاح للحركة والتنقل »[2].

تجمع هذه التعريفات في جوهرها على أن الرحلة حركة، وهذه الحركة ذات هدف قد يتحقق وقد لا يتحقق، وسيتم في كلتا الحالتين، إكتساب خبرات عملية وفكرية ناجمة عن المخالطة. وبذلك يتم التقابل بين الرحلة في اللغة والإصطلاح حيث يجمعهما أنهما «حركة». هذه الحركة التي يتم من خلالها تسجيل أحداث السفر وما شاهده الرحالة، وما عاشه من أحداث، مازجا ذلك بانطباعاته الذاتية حول المرتحل إليهم[3].

---

1 – بطرس البستاني، دائرة المعارف، مطبعة المعارف، ج08، بيروت- لبنان، (د.ت)، ص564.

2 – صلاح الدين الشامي، الرحلة العربية في المحيط الهندي ودورها في خدمة المعرفة الجغرافية، مجلة عالم الفكر، مج13، ع4، وزارة الإعلام- الكويت، جانفي- فيفري- مارس1983م، ص 13.

3 – ناصر عبد الرزاق الموافى: الرحلة في الأدب العربي- حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ط1، دار النشر للجامعات المصرية- مكتبة وفاء، مصر، 1415هـ/ 1995م، ص ص23-25.

إن الإنسان الذي ينطلق في بداية الرحلة ليس نفسه عندما يعود منها، فالرحالة يمضي بثقافة معينة ويعود بعد رحلته وقد إكتسب ثقافة أخرى، حيث يقول في هذا الشأن الإمام الشافعي[1]:

سافر تجد عوضا عمن تفارقه....وأنصب فإن لذيذ العيش في النصب

إني رأيت وقوف الماء يفسده....إن سال طاب وإن لم يجري لم يطب

والشمس لو وقفت في الفلك دائمة....لملها الناس من عجم وعرب

أما أبو الحسن المسعودي فيقول: « ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمى إليه من الأخبار من إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع بين أيامه تقاذف الأسفار، وإستخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه »[2].

2.دوافعها: من الدوافع ماهو مرتبط بالمنظومة الثقافية (ثقافة الرحالة)، ومنها ما تعلق بالبيئة نفسها، وهي دوافع متعددة ومتنوعة نوجزها أهمها كما يلي:

1.2.دوافع دينية: كأن يكون الدافع زيارة الأماكن المقدسة كالحج تلبية لنداء الرحمن، بهدف التوبة وطلبا للمغفرة. أو تكون الرحلة من قبيل التبشير بالدين أو زيارة المقابر[3]. وعليه يتم تحديد طبيعة الرحلة من خلال أغراضها ومقاصدها، وبالتالي يصبح لدينا بما يسمى الرحلات الدينية، من أشهرها رحلة إبن بطوطة في كتابه " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"[4].

2.2. دوافع علمية و تعليمية: ومنها ما يذكره إبن خلدون في مقدمته الشهيرة: « والرحلة لا بد منها في طلب العلم، ولإكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرحال »[5]بمعنى أن الدافع هو السعي وراء لقاء العلماء والمشايخ والإستفادة منهم، أو الإقبال على مراكز العلم في أي قطر من المعمورة، طلبا لمختلف العلوم، من فقه وطب وهندسة ورياضيات وفلك وجغرافيا وغيرها، ولهذا وجدت الرحلات العلمية التي قام بها رحالة كثر من بينهم عبد الله بن عباس والغزالي وإبن منده والأحنف العبكري الشاعر، وكذلك رحلات البحوث[6]. وبهذا المقصد

---

1 – فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، الإسكندرية– مصر، 2002م، ص09

2 – حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989م

3 – فؤاد قنديل: مرجع سابق، ص19.

4 – شوقي ضيف: الرحلات، ط4، دار المعارف، القاهرة– مصر، 1987، ص ص 95– 96.

5 – عبد الرحمن بن محمد(إبن خلدون): مقدمة إبن خلدون، ط01، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت– لبنان، 2010م، ص606.

6 – فؤاد قنديل: مرجع سابق ، ص ص19–20.

أصبح لدينا ما يعرف بالرحلات العلمية، وأهمها رحلات الكشوف الجغرافية. وأهم الجغرافيين المسلمين الذين كان لهم الأثر البيّن في مجال الرحلات، نذكر اليعقوبي والإصطخري و إبن حوقل والمقدسي والمسعودي والإدريسي[1].

3.2. الدوافع تجارية: بهدف تبادل السلع والمنتوجات أو لفتح أسواق جديدة لمنتوجات محلية، أو لجلب سلع تكون متوفرة في مناطق دون أخرى، وقد يختلف الهدف ويكون هروبا من الغلاء نحو السلع الرخيصة والمتوفرة أو من أجل العمل[2] ولعل أشهر هذه الرحلات التجارية؛ التاجر العراقي سليمان بإتجاه الصين[3].

4.2. دوافع سياحية و ثقافية: وهي رغبة الذات في السفر وتغير الأجواء والمناظر وتجديد الدماء بالمشاهدة والمغامرة، والتعرف على كل ما هو جديد من خلق الله؛ الطبيعة والبشر، وقد يكون حبا في الإطلاع على مختلف حضارات الدول والتعرف على أشهر معالمها من أبراج وقصور ومسارح وغيرها[4].

5.2. الدوافع السياسية: وتتمثل في تبادل الآراء ووجهات النظر، أو تمتين العلاقات وتوطيدها بين الدول، مناقشة شؤون الحرب والسلام[5] وتندرج تحت هذه المقاصد الرحلات التكليفية والإدراية والسفارية. فالرحلة التكليفية أو التكليف كما يسميها الدكتور شوقي ضيف[6]، تكون بتكليف من الملوك أو الحكام والولاة، بغية القيام بمهمات رسمية، مثال ذلك رحلة ابن سلام الترجمان، الذي كلفه الخليفة الواثق بأن يذهب إلى حصون جبال القوقاز، لمعاينة سد الصين الكبير، الذي بناه ذو القرنين لعزل قوم يأجوج ومأجوج[7] أما التكليف الإداري، فهي الحاجة إلى جمع البيانات والمعلومات التي شملها الفتح الإسلامي، وجمع الضرائب وتقدير الثروات وتقديم التقارير، وسواء أطلق على هذا النشاط صفة (الجغرافيا الإدارية) أو (كتابة تواريخ الأقاليم)، فقد لعبت الرحلة دورا هاما في أدائه[8]. أما الرحلات السفارية، فقد تعددت تبعا للتقدم الحضاري في العصر الحديث تحديدا، ونشوء الدول. ومثال ذلك رحلات السفراء الذين أوفدهم الرسول (ص) برسائل إلى ملك فارس،وإمبراطورية بيزنطة، ونجاشي الحبشة، وعظيم

---

1 – عيسى علي إبراهيم: الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية– مصر، 2000، ص75.

2 – فؤاد قنديل: مرجع سابق، ص 20.

3 – شوقي ضيف، الرحلات: مرجع سابق، ص 29.

4 – فؤاد قنديل: مرجع سابق، ص 20.

5 – المرجع نفسه.

6 – سيد حامد النساج: مشوار كتب الرحلة (قديما وحديثا)، دار غريب للطباعة، القاهرة– مصر، (د.ت)، ، ص12.

7 – زكي محمد حسين: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت– لبنان، 1981، ص ص 15– 16.

8 – حسين محمد فهيم: مرجع سابق، ص81.

القبط في مصر[1]. وأشهرها حديثا رحلة الوزير في إفتكاك الأسير (1690- 1691م) لمحمد بن عبد الوهاب الغساني الأندلسي(ت: 1119هـ/ 1707- 1708م)[2].

وبناء على تعدد المقاصد والأغراض الذي حدد طبيعة الرحلة وهدفها؛ لابد للحديث عن أنواع الرحلات بشيء من الإختصار ما دمنا تكلمنا عن الدوافع التي تحدد طبيعة الرحلة.

3. أنواع الرحلات :

لقد اتخذت الرحلة أنواعا عدة تبعا لتعدد مقاصدها ودوافعها، ولهذا إختلف الباحثين المعاصرين في تصنيف الرحلات، وسبب هذا الإختلاف راجع إلى طبيعة المنهج الذي إتبعه هؤلاء، فالبعض منهم إتبع المنهج التاريخي، والبعض الآخر مزج ما بين المنهج التاريخي والمنهج الجغرافي، مثال ذلك، الدكتور (أحمد رمضان) قسم الرحالة- لا الرحلة- إلى: رحالة جغرافيين، ورحالة مشارقة، ورحالة مغاربة. والخلط في المنهج واضح. أما الدكتور شوقي ضيف صنف الرحلات إلى: رحلات جغرافية ورحلات بحرية، ورحلات في الأمم والبلدان، وهو تصنيف مماثل لسابقه. غير أن فريق آخر فكك وجزأ بين هذا وذاك فأخرج أنواعا لا رابط بينها . وعموم القول فإن أقرب تصنيف للواقع هو الذي حصر الرحلة في الأنواع التالية[3]: رحلات الدينيــة، رحلات علمية، رحلات رسمية (سياسية).

II. التعريف بالرحالة شارل دو غالون:

1. نشأته:

ولد الرحالة شارل دو غالون بالدويرة (الجزائر العاصمة) في 17ديسمبر1851م. وفي 21 أكتوبر1871م بدأ تكوينه الجامعي كطالب بثانوية الجزائر. ثم سافر إلى فرنسا ليلتحق بالمجمع المدرسي إيكس(Aix) سنة 1872م. عاد مجددا إلى ثانوية الجزائر في نهاية السنة نفسها وكلف بالتدريس. أما في سنة 1874م فتم تعيينه بثانوية تورنون (Tournon) ، ليصبح بروفيسور في علم البلاغة والبيان سنة 1875م بثانوية مونتوبان(Montauban). عاد إلى الجزائر سنة 1880 و لم يغادرها، حيث أسندت له مهمة تدريس الطور الخامس ثم الرابع ثم الثالث. وبتاريخ: 04 أوت1891م كلف بإدارة مهام ثانوية الجزائر الصغيرة إلى غاية فيفري 1902م. في هذه الفترة عين كممثل لمحافظة الجزائر في معارضها الدولية، من بينها معرض سنة 1900م.

---

1 - عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي: الرحلة في الإسلام – أنواعها وآدابها، ط1، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة- مصر، 1996م، ص ص30- 39.

2 - محمد الغساني الأندلسي: رحلة الوزير في إفتكاك الأسير 1690- 1691م، تحرير وتقديم: نوري الجراح، ط1، سيكو للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، 2002م، ص 12.

3 - عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي: مرجع سابق، ص ص 31- 34 .

و في عام 1908م ترأس قائمة إنتخابية بطلب من أصدقائه النواب الذين منحوه ثقتهم، لينتخب أول مرة رئيسا لبلدية الجزائر عام 1910م. أعيد إنتخابه مرة ثانية عام 1912م إلى غاية عام 1919م. بعدها تفرغ للفن والموسيقى التي أحبها كثيرا، كما أحب الأدب وخاصة منه الأدب الجزائري.

من أهم إنجازاته أثناء فترة رئاسته لبلدية الجزائر، حديقة الحرية التي أنشأئها سنة 1915م، تقع بشارع ديدوش مراد و تتربع على مساحة ثلاث هكتارات، تضم المتحف الوطني للآثار القديمة والآثار الإسلامية، بالإظافة إلى الإدارة المركزية والمكتبة، مدرسة إبتدائية ونصبا تذكرايا تخليدا له. كما تحتوي على أجمل وأروع الأشجار والنباتات والزهور المشكلة لمختلف المساحات الخضراء، وكذا المساحات أخرى للإستراحة مزينة بمربعات خزفية يرجع تاريخها للعهد الإسلامي. كل هذه الخصائص كانت سببا في تصنيفها سنة 1968م(01).

تجمعت في شخصه مجموعة من الصفات، فكان دائم الإبتسامة، لطيف، بشوش، يتسم بطيبة النفس وسماحتها و العدل، وكان بهذا يرغم خصومه على معاملته بكل إحترام وتقدير. توفي يوم 22 مارس 1923م عن عمر ناهز الواحد و السبعين سنة.

2. مؤلفاته:

وكانت له عدة مؤلفات نذكرها منها:

- كتاب روعة الجزائر (Alger pittoresque).
- كتاب بجاية (Bougie)
- رحلة إلى بوسعادة و زاوية الهامل[رحلة إلى بوسعادة ومسيلة]
- تاريخ ثانوية الجزائر (l'histoire du lycée d'Alger) (02)
- التسلق في جرجرة (Ascensions Dans Le Djurjura)(03)

2. مسار الرحلة :

حسب الخريطة المدرجة بالكتاب (Carte De L'itinéraire Parcouru)، التي توضح خط سير الرحلة من بدايتها إلى نهايتها وكذا المسافة المقطوعة، يمكن إبراز محطاتها المعلمية المزارة كالتالي[1]:

بداية الرحلة كانت من الجزائر العاصمة بإتجاه مدينة عومال(Aumal) سور الغزلان حاليا، ثم مدينة سيدي عيسى (Sidi Aissa) بعدها عين الحجل(Ain-hadjel)، فمدينة بوسعادة(Bou-saada)، وبتاريخ 29 جويلية 1897م[2]، يغدارها بإتجاه الهامل(El Hamel) ويعود إليها مجددا ويواصل رحلته متجها نحو مدينة

1 - Galland (DE) :Excursion de Bou_saada à M'sila .Ollendorf. Paris.1899, p08.

2 - Galland (DE) : Op.cit, p70.

المسيلة(M'sila)، وهي آخر محطة في هذه الرحلة، في الأخير يغادر شارل دوغالون ومرافقيه المسيلة ليعود إلى الجزائر عبر القطار بمدينة برج بوعريريج[1] في شهر مارس 1899م[2].

وللإشارة فقد إسطحب الرحالة معه الرسام غيوشين في هذه الرحلة وقام هذا الأخير برسم عدة مناظر مختلفة لمختلف المناطق المزارة، حيث قمنا بإدراج بعضها ضمن ملحق الصور لأجل إبراز أهمية هذه الرحلة في تبيان الصورة الجغرافية أنذاك للحضنة.

3. أهداف الرحلة :

إن الغاية المرجوة من هذه الرحلة، تكمن في رغبة الكاتب ومرافقية في إكتشاف كل ماهو جديد في شتى الجوانب الإجتماعية، الثقافية، الطبيعية، التاريخية، افقتصادية وغيرها، فيما تعلق بالمناطق التي شكلت خط سير هذه الرحلة، حيث عبر دوغالون عن الطموح والرغبة الجامحة التي ملأت قلبه وشغلت فكره، ودفعت به وباقي زملائه بشد الرحال نحو الجنوب الجزائري والتطلع عن كثب بجماله وروعته، الذي لطاما سحروا به. كذلك هي الرغبة في كتابة تاريخ المنطقة ومعرفة أسرار وخبايا الآخر، يضاف إلى هذا غاية أخرى غير مصرح بها، و قد تكون هذه الغاية إما سياسية أو عسكرية، ولاسيما وأن هذه الرحلة تم تأمين مسارها وتغطيتها من طرف السلطة العسكرية من جهة، ومن جهة ثانية مدة الرحلة التي قاربت عامين؛ فمعرفة الآخر بالنسبة للأجنبي تعني له الكثير خاصة في ظل الوضع السياسي والعسكري القائم.

إن الرحلة في غاية الأهمية لما قدمته لنا من معلومات متعددة ومتنوعة، شملت الجانب التاريخي، السياسي، العسكري، الإجتماعي، الإقتصادي، الديني، الثقافي، كما أنها أمدتنا بمادة جغرافية وصفية مهمة متباينة، تدخل في إطار الجغرافية الطبيعية و الجغرافية بشرية، رغم أن الكاتب لم يكن جغرافيا. وهذا ما سنحاول الوقوف عليه.

III. صورة الجغرافية الطبيعية لمنطقة المسيلة من خلال الرحلة

قدم لنا الرحالة شارل دوغالون معلومات جغرافية طبيعية[3] متنوعة، منها مايتعلق بجغرافية التضاريس[4] وجغرافية المناخ[1] وجغرافية الحياة (الحيوية) [2]وجغرافية التربة[3]، وتتجلى هذه الصور من خلال المحطة التي قادته إلى كل من مدينة بوسعادة ومدينة المسيلة.

---

1 - Ibid, p08.

2 - Ibid, p97.

3 - **الجغرافيا الطبيعية:** وتشتمل على عدة فروع و هي: جغرافية التضاريس، الجغرافية المناخية، الجغرافيا الحيوية، جغرافية التربة. أنظر: محمود محمد سيف: مرجع سابق، ص15.

4 - **جغرافيا التضاريس:** تهتم بدراسة أشكال سطح الأرض، والعوامل المختلفة التي تشكل هذا السطح، ويطلق عليها إسم الجيومورفولوجيا. وتعتمد على علم الجيولوجيا. أنظر: محمود محمد سيف: مرجع سابق، ص15.

1. منطقة بوسعادة:

بالنسبة للموقع الجغرافي ، تبعد مدينة بوسعادة 70 كلم عن عين الحجل[4] و تقع جنوب غرب الحضنة على سفوح جبل سلات، على إرتفاع 578م، أما عن مناخ المدينة فمو يتميز بحرارة شديدة عكس المناطق المساوية في الإرتفاع، وتتمتع بأجواء متقلبة وشديدة القوة من رياح وحرارة إلى غير ذلك بسبب خصوصية تضاريسها، فهي تقع وسط جبال ذات جدران صخرية ملساء، حيث تصل درجة الحرارة في الصيف إلى 42 درجة طيلة أربع أشهر، وعن معدل تساقط الأمطار يقول عنها الكاتب أنها منطقة جافة طوال العام و لا يسجل مقياس المطر سوى 250ملم فقط. كما تواجه ظواهر طبيعية صعبة أخرى مثل الضباب والجليد، الصقيع والزوابع الرملية.

تمتد جبال بوسعادة من القصور والعمور إلى غاية جنوب الهضاب العليا ويبلغ علوها 1500م عن سطح البحر[5] .

2. منطقة الحضنة (المسيلة):

جغرافيا تبعد المسيلة عن بوسعادة 70 كلم فتقع في سهل الحضنة، و هو عبارة عن سهل واسع يقع بين جبال أولاد نايل والزاب جنوبا وجبال ريرا شمالا، مشكلا حوضا يقع على إرتفاع 400م عن سطح البحر ويمتد من الشرق إلى الغرب بطول 70 كلم وعرض 25 كلم ويدعي شط الحضنة أو السبخة. يتألف من غطاء نباتي متنوع مشكل من: القطف، الحلفة، الدرين، السدرة، البلبال، الحد وهو طعام الجمال، الطرفة، الميكيربة الديس، الرتم، النيسي[6]. يتخلل هذا الشط وادي القصب ووادي الشلال، وواد البيضة[7].

IV. صورة الجغرافية البشرية لمنطقة المسيلة من خلال الرحلة:

---

1 – **جغرافية المناخ:** تتناول دراسة عناصر المناخ كالحرارة والضغط والرياح والمطار والعوامل المختلفة المؤثرة في هذه العناصر، كما تعتمد على علم الميتيورولوجيا. أنظر: محمود محمد سيف: مرجع سابق، ص15.

2 – **جغرافية الحيوية:** وتدرس مظاهر الحياة على سطح الأرض من نبات طبيعي أو حيوان وتعتمد على النبات والحيوان. محمود محمد سيف: مرجع سابق، ص15

3 – **جغرافية التربة:** تهتم بدراسة انواع التربة وتوزيعها واثرها على الإنتاج وتعتمد على التربة. محمود محمد سيف: مرجع سابق، ص15

4 – Galland (DE) : Op.cit, p29.

5 - Op.cit, p33.

6 - Ibid, p75.

7 - Ibid, p76.

تتجلى الصورة الجغرافية البشرية[1] لمنطقة الحضنة (المسيلة) من خلال العناصر التي تناولتها الرحلة والمتمثلة فيما يلي:

1. الجانب الإجتماعي:

تطرق الرحالة في رحلته هذه إلى الحديث عن السكان ومناطق إنتشارهم، في شكل أرقام وإحصائيات، كما زودنا أيضا بمادة خبرية هامة تتعلق بالعروش المكونة لهذا المجتمع وتعدادها، سواء فيما تعلق بالسكان المحليين أو المعمرين الأجانب مع ذكر بعض الجوانب من النشاطات وبعض الطبائع التي يمارسها هؤلاء. وهذا يدخل ضمن مجال الدراسات التي تهتم بها الجغرافية الإجتماعية كما سنرى.

أولا = دائرة بوسعادة: تمتد دائرة بوسعادة على مساحة 1484725 هكتار وتضم واحد وعشرون عرشا، بما في ذلك ملحقة سيدي عيسى، ويبلغ تعداد سكانها 29820 نسمة، وهذه العروش هي: أولاد سيدي إبراهيم، أولاد شريب، أولاد سيدي زيان، الرمانة، أولاد سليمان، الشرفات، الهامل، مسعد، أولاد علي بن محمد، أولاد خالد، أولاد عامر الظهارة، أولاد عامر لقبالة، أولاد محمد مبارك، أولاد عمارة.

أما ملحقة سيدي عيسى فهي تضم، العذاورة الشراقة، والعذاورة لغرابة، أولاد عبد الله، أولاد علي بن داود، سيدي عيسى، السلامات، أولاد سيدي هجرس، وتمتد هذه الملحقة على مساحة 20822 هكتار. و عليه يصبح مجموع الدائرة (بوسعادة) والملحقة (سيدي عيسى) : 56237 نسمة[2].

تنقسم المدينة إلى ستة أحياء سميت في بعض الأحيان نسبة إلى أولى العروش الذين نصبوا خيامهم بجوار الوادي وهذه الأحياء هي: حي المامين، حي أولاد زيروم، أولاد حميدة، أولاد حركات، أولاد عزيف، أولاد هلانف[3]. أما فيما يخص تعداد الفئات الإجتماعية المحلية وغير المحلية فقد جاء كمايلي:

أ- العنصر الأجنبي (المعمرون): يوجد بالدائرة جنسيات أجنبية متعددة وبنسب مختلفة، تشكلت بحسب طبيعة وجودها بالمنطقة. وقد قدم لنا الرحالة إحصائية رسمية أخيرة جاءت كما يلي:

---

1 - **الجغرافيا البشرية:** وتهتم بدراسة مظاهر الحياة البشرية المختلفة ومدى تاثيرها بالبيئة الطبيعية، كما تدرس الإنسان من حيث العدد والإنتشار وكذا مكان تواجده، بالإضافة إلى نشاطه الإقتصادي (التجاري، الفلاحي، الزراعي). وتحتاج الجغرافية البشرية إلى علوم أصولية مقابلة ومساعدة هي: الجغرافية الجنسية، الجغرافية الإجتماعية، الجغرافية الإقتصادية. أنظر: محمود محمد سيف: مرجع سابق، ص ص 15- 16.

2- Galland (DE) : Op.cit, p33

3 - Op.cit, p35

- **الإسرائيليون**: جاء ذكر فئة اليهود من طرف السلطة الإستعمارية بالإسرائليين (مصطلح الأمة) وتجنبت المصطلح الفئوي وهو اليهود، كما أنها لم تعمم هذا على باقي الفئات، مثل الأيبيريين (الإسبان) والرومانيين (الإيطاليين)، بالإضافة لهذا فإن الرحالة يشير في نفس الوقت إلى القرابة التي تجمع الإسرائليين بالعرب، حيث يقول:«...يمارس اليهود في بوسعادة على غرار أبناء عمومتهم أنواع التجارة والصياغة...»[1]، حيث بلغ عددهم 375 نسمة[2]، وهم يتواجدون منذ وقت غير معلوم وساعدهم في هذا الوجود تعايشهم مع العرب[3]، يمارسون التجارة والصياغة وبيع المجوهرات، وتجارة القماش وبيع الحبوب والخردوات، ويتبعون سياسة- الدورو أيجيب خوه- بمعنى الدورو يحصل دورو مثله، وسياسة القروض الغير مضمونة، حيث يصل القرض في دائرة بوسعادة إلى 850.000 فرنك فرنسي، لكن لا وجود لرهانات أو ضمانات صلبة، وهذا هو حال عموم الجزائر[4]. أما النساء اليهوديات فيمتهّن مهنة النسيج، غزل الصوف وحياكة البرانس والزرابي[5].
- **الأجانب (المعمرون)**: قدم الرحالة إحصاء لهؤلاء الأجانب المعمرون حيث بلغ تعدادهم 72 نسمة، وحدد أصولهم، فبعضهم من مالطا و البعض الآخر من إسبانيا و إيطاليا.

ب- العنصر المحلي: حيث بلغ عدد سكان العرب في هذه الفترة 5020 نسمة، بالإظافة إلى إحدى عشر تونسي ومغربي، ويمكن الإشارة هنا أن هذا الإحصاء الذي قدم للرحالة من طرف السلطات الإستعمارية الفرنسية يكاد يكون نفسه الذي قدم للرحالة بول أدال paul Audel، من خلال رحلته من الجزائر إلى بوسعادة alger à bou-saada التي كانت سنة 1899م، بعد رحلة دو غالون سنة 1897م. حيث يقول بول أدال: «...هذا المكان ستة مائة منزل لستة آلاف ساكن. هنا كما في كل مكان: عقدتنا الوطنية في العدد محزنة، بصعوبة شديدة صار عددنا منذ آخر إحصاء: 135 فرنسيا، على 72 مالطيا و إسبانيا و إيطاليا، 359 إسرائليا، و 5000 مسلما عربيا: تونسيين ومغاربة...»[6].

ثانيا = مدينة المسيلة : أما عن الحدود الإدارية للمدينة فهي حدود مشتركة مع منطقة البيبان والمعاضيد شمالا وملحقة بريكة شرق وأولاد دراج الشرائة وبوسعاد جنوبا، وسيدي عيسى وعومال(سور الغزلان حاليا)

---

1 - Ibid, p38
2 - Ibid, p35
3 - Ibid, p36
4 - Ibid, p38
5 - Ibid, p36
6 - Paul Eudel :d'Alger à Bou-saada ,Augstin CHLLAMEL,Editeur,Paris,1904, pp49-50.

غربا. تبلغ مساحتها 383،963 هكتار وعدد سكانها حوالي 30.000 نسمة، صنفهم الرحالة دي قالون De Galland إلى بدو وحضر.

أ- البدو: و حسب رأي الرحالة فهم قوم أميون ونادرا ماتجد بينهم طُلبة، ويتبعون نظام العرش، أين تعود مسؤولية الأسرة الكاملة بيد رب العائلة، كما تحرم المرأة لديهم من الميراث، وهم على المذهب المالكي ، ومن بين هؤلاء البدو المقيمين على أطراف مدينة المسيلة والمناطق المجاورة لها عرش أولاددراج وهم قوم متعصبين ، إلا أنهم يتمتعون باحترام كبير ووقار بين مختلف الأعراش والقبائل في المنطقة، بفضل الكرامات التي إمتاز بها مرابطيهم.

بالإضافة إلى هذا الوصف حدد الرحالة مناطق تواجد هذه الفئة وإنتشارها، فهؤلاء البدو يقيمون في مناطق؛ هي في شكل نزلات –جمع نزلة – والنزلة تتكون من أربعة خيم إلى ثمانية. ففي فصل الخريف يقوموا بأعمال الحرث والزرع تاركين باقي الأعمال والأشغال للخماسين ، و بحلول فصل الشتاء ينتقلون بقطعانهم من المواشي، والإبل، والخيول إلى شط الحضنة لتوفر المرعى والكلأ بشكل كاف. ثم يعودون إلى مضاربهم في فصل الربيع لبيع الشعير والقمح والصوف ، وبحلول فصل الصيف يرتحلون نحو المناطق التلية[1].

ب- الحضر: أما عن الحضر فيقيمون في مدينتي المسيلة وبوسعادة في منازل مبنية في الغالب باللبن أو من خليط الطين اليابس مع التبن وأسقف البيوت في الغالب من التراب المطلي بالجير يحمل على جريد النخل وجذوع الأشجار ،لا يملكون القطعان من الأنعام والإبل ، ولكن يكسبون الماعز والثيران ، البغال وتربية الخيل ، ومعظم السكان يعملون في البساتين التي تنتج التين ، المشمش، الخوخ ، إلى غير ذلك . وهم يورثن أراضيهم للبنات على العكس البدو[2].

بالإظافة إلى فئة البدو والحضر بتعداد 4222 نسمة، هناك فئة الأجانب التي تضم 120 أوربيا، و95 إسرائيليا يقطنون في الأحياء الأوربية بالمدينة[3]. لقد إكتفى الرحالة بذكر هذه الفئة دون التطرق لنشاطها، ولعله تجنب التكرار لأن نشاطهم المتمثل في التجارة وغيرها نفسه في مدينة بوسعادة.

2. الجانب الإقتصادي:

طبيعة المعلومات في هذا الجانب تتعلق بأهم الموارد الإقتصادية التي تتمتع بها منطقة الحضنة والكيفيات التي يتم بها تسويق هذه المواد، وكذا مناطق إنتشارها وتواجدها.حيث يدخل هذا في إطار دراسات التي تهتم بها الجغرافية الإقتصادية. وجاء الحديث عنها من خلال هذين العنصرين:

أولا= التجارة(أنواعها، طبيعتها، إنتشارها):

---

1 - Galland (DE) , op.cit, p84.

2 - Op.cit, p.84.

3 - Ibid, p86.

وهي عبارة عن مبادلات تجارية يقوم بها المجتمع الحضني القاطن بالمدن مثل مدينة بوسعادة ومدينة المسيلة (تجارة داخلية). فبوسعادة تعد مركزا للتجارة والأسواق الأسبوعية والصفقات المعتبرة، حيث تباع كل سنة 130 ألف رأس من الماشية و 150 ألف جزة صوف يجلبها أهالي وادي الرهير، وتتم مبادلتها بالحبوب الآتية من سهول الحضنة وسطيف في السوق الأسبوعية التي تقام كل ثلاثاء (تجارة خارجية). ويشير هنا الرحالة إلى الدور البارز لفئة بني ميزاب فهم منتشرون ليس فقط في بوسعادة بل في ربوع الجزائر، فهم قوم فطروا على التجارة منذ الصغر في بوسعادة، يتنافسون مع غيرهم من التجار بحيث يحتكرون السلع المفقودة من قماش وجواهر وحديد[1]. وهم إلى الآن معروفون بهذه الصفات التجارية.

أما بالنسبة لمدينة المسيلة، فتقام بها سوق أسبوعية ثلاث مرات في الأسبوع ،الأحد ،الأربعاء، الخميس، يتم فيه بيع كل شيء كما يقصده التجار والمتسوقون من المناطق القريبة من المدينة، و حتى البعيدة؛ فأحيانا يقصده متسوقي منطقة القبائل الذين يحملون معهم الزيت والتين المجفف ويأخذون الصوف والحبوب والجلود[2].

ثانيا = الحرف والصناعات اليدوية:

تنتشر هذه الحرف بشكل كبير في الشوارع الرئيسية للمدن، كما هو الحال في الشارع الرئيسي لمدينة بوسعادة، الذي يضم الأحياء العربية و تنتشر وتنشط فيه تجارة اليهود وحرف العرب وصناعتهم المحلية، المتمثلة في صناعة الجلود والحلي وكذا صناعة الخزف[3].بالإضافة إلى هذا هناك صناعة النسيج التي تمارسها النساء في مثل (الحايك، البرنوس، الزرابي)[4].

خاتمة :

يعد كتاب " رحلة إلى بوسعادة ومسيلة " للرحالة شارل دو غالون يمثل وثيقة تاريخية مهمة لما تحتويه من مادة خبرية متنوعة مست جوانب عديدة تتعلق بمنطقة المسيلة (الحضنة) مكانا وإنسانا، فبغض النظر عن الجوانب الإقتصادية، الإجتماعية، الثقافية، السياسية، العسكرية والتاريخية؛ عالجت الرحلة جانبا مهما ألا وهو الجانب الجغرافي للمنطقة.

---

1 - Ibid, p38.
2 - Ibid, p84.
3 - Ibid, p41.
4 - Ibid, pp 36-38.

جاءت الصورة الجغرافية المتنوعة بتنوع الفروع الجغرافية في حد ذاتها، حيث نجد الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية، و هذه الأخيرة بدورها تتنوعت بتنوع المعلومات، فتحديد الأماكن ومسافات وذكر السكان وتعدادهم وأصولهم وعاداتهم و مناطق إنتشارهم ومظاهرهم الحيوية، وكذا طبيعة الأرض والحيوان والنبات والإنسان والمناخ كما تم ذكره إنما يدخل في إطار الجغرافية البشرية و مختلف فروعها و هي: جغرافية التضاريس وجغرافية المناخ وجغرافية الحياة (الحيوية) وجغرافية التربة. وكلها عوامل نستشف من خلالها المكانة الجغرافية والإقتصادية لمنطقة الحضنة واهميتها، بحيث تعتبر المنطقة نقطة تواصل تجاري بين المناطق الشمالية للأطلس التلي والمناطق الجنوبية للأطلس الصحراوي، وهذا دليل أيضا على نشاط المنطقة في هذه الفترة وتفاعل المجتمع الحضني فيما بينه في شتى المجالات وإنفتاحه على باقي المناطق المجاورة.

وعليه معرفة الخصوصية الجغرافية لمنطقة الحضنة (المسيلة) في هذه الحقبة الزمنية أمر مهم، والرجوع لكتب الرحلات مثل هذه الرحلة، في غاية الأهمية، وذلك لسببين:

1. تعد الرحلة مصدرا هاما في كتابة التاريخ ولاسيما منه التاريخ المحلي.

2. يقوم الرحالة بتدوين كل مايراه أويشاهده من أحداث وصور من خلال إحتكاكه بالطبيعة أو الإنسان فبالتالي تكون المادة الخبرية متنوعة بين ما هو تاريخي، إقتصادي، إجتماعي، سياسي، جغرافي...إلخ. تخدم الباحثين كل حسب مجال إختصاصه.

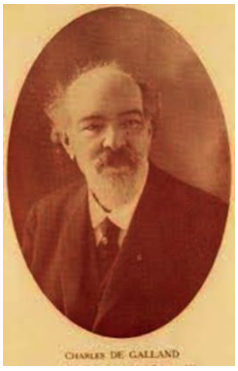

•صورة رقم 01: الرحالةشارل دوغالون

•صورة رقم 02 : واجهة الكتاب

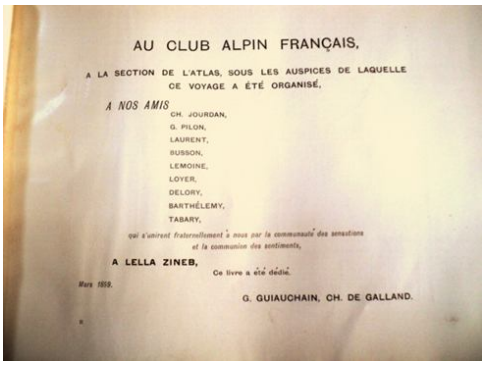
AU CLUB ALPIN FRANÇAIS,

A LA SECTION DE L'ATLAS, SOUS LES AUSPICES DE LAQUELLE CE VOYAGE A ÉTÉ ORGANISÉ.

A NOS AMIS

CH. JOURDAN,
G. PILON,
LAURENT,
SUSSON,
LEMOINE,
LOYER,
DELORY,
BARTHÉLEMY,
TABARY,

qui s'unirent fraternellement à nous par la communauté des sensations et la communion des sentiments,

A LELLA ZINEB,

Ce livre a été dédié.

Mars 1859.

G. GUIAUCHAIN, CH. DE GALLAND.

•صورة رقم 03 : الصفحة الأولى من الكتاب- الإهداء (صB)

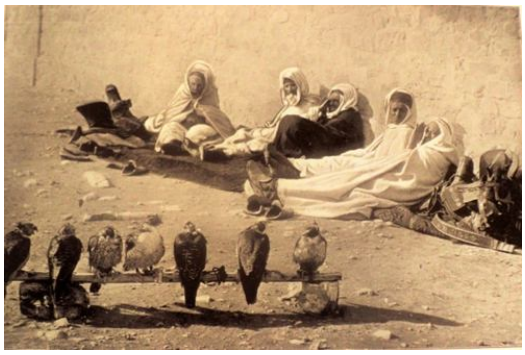

•الصورة رقم 04 : عين الحجل،الصقور وصياديها (ص23)

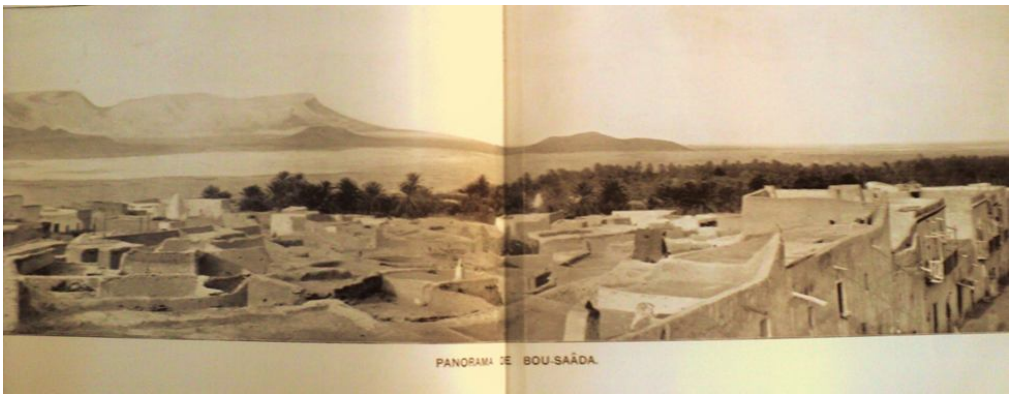

•الصورة رقم 05 : منظر عام لمدينة بوسعادة (ص31)

•الصورة رقم 06: المسجد والرواق- بوسعادة (ص39)

•الصورة رقم 07 : وادي بوسعادة (ص50)

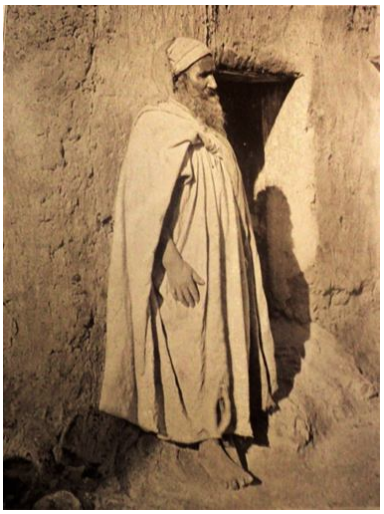

•الصورة رقم 08 : صورة ليهودي – بوسعادة (ص37)

• الصورة رقم 09: الراقصات- بوسعادة (ص57)

•الصورة رقم 10: رقصة نايلية فردية – بوسعادة (ص 60)

•الصورة رقم 11: رقصة ثنائية سعداوية – بوسعادة (ص61)

• الصورة رقم 12: منظر عام لمدينة الهامل (ص 72)

•الصورة رقم 13: في الحضنة (ص78)

•الصورة رقم 14: منظر عام لمدينة المسيلة بالقرب من الجهة اليمنى للوادي (ص85)

•الصورة رقم 15: المسيلة (ص 90)

•الصورة رقم 16: مسجد بوجملين – المسيلة (ص93)

•الصورة رقم 17 : قبة داخل مقبرة- المسيلة (ص87)

• الصورة رقم 18: سكنات بالمسيلة (ص91)

•الصورة رقم 19 : خريطة تمثل مسار الرحلة (ص08)

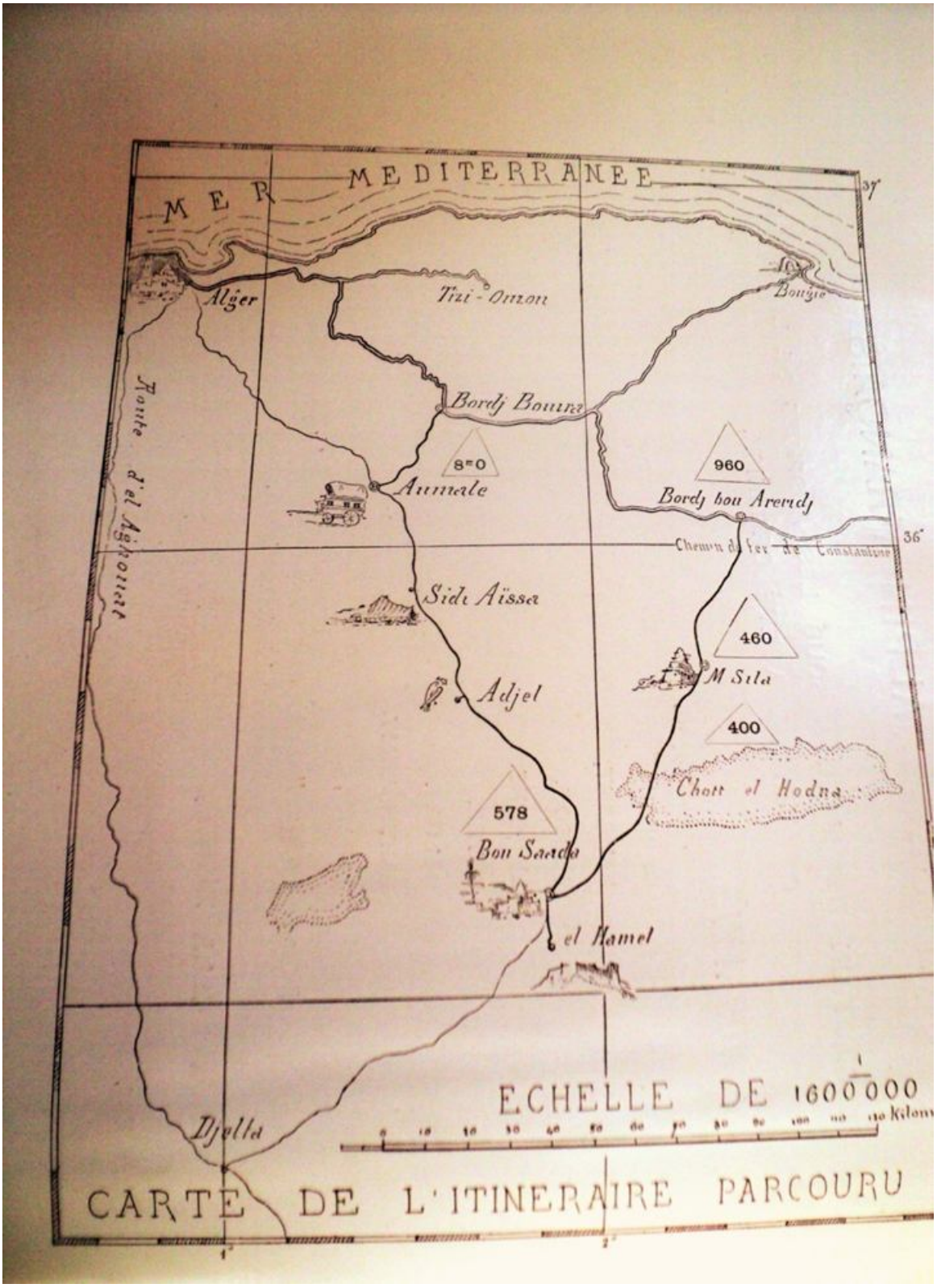
MER MEDITERRANEE
Alger
Tizi-Ouzou
Bougie
Bordj Bouira
Aumale
Route d'el Aghouat
Chemin de fer de Constantine
Sidi Aïssa
Adjel
M Sila
Chott el Hodna
Bou Saada
el Hamel
Djelfa
ECHELLE DE 1/600 000
CARTE DE L'ITINERAIRE PARCOURU

ظاهرة التصوف النسائي في المغرب الأوسط
خلال العصر الوسيط

د.الطاهر بونابي قسم التاريخ –جامعة المسيلة–

مقدمة:

يندرج موضوع ظاهرة التصوف النسائي في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط ضمن طابع المساهمة النسائية في الحياة الاجتماعية والدينية، وهي ليست من الموضوعات الجاهزة كي تمكن الباحث من الخوض فيها بسهولة، وذلك لضعف تجلياتها ضمن مختلف نصوص الكتابة الوسيطية بتأثير عوامل شتى.

ومن هنا نأمل أن تساهم هذه الالتفاتة في الكشف عن سر هذا التكتم الاستوغرافي حول هذه الظاهرة، وكذلك في التأسيس لمسارات قراءة الحضور النسائي في النص الوسيطي، والتنبيه إلى الظروف التي استغلتها النساء، والمستويات التي ولجناها لإثبات مساهماتهن في تيارات التصوف واتجاهاته، وفي التأكيد على موقعها ضمن التراتب الاجتماعي المشكل لبنية الحركة الصوفية.(1)

1– معوقات التصوف النسائي:

نعنى بمعوقات التصوف النسائي كل العقبات الاجتماعية والممارسات من جانب الفعاليات الاجتماعية والدينية كأرباب الأسر وشيوخ القبائل والفقهاء الذين كانوا يحدون من نشاط النساء ويمنعهن من المشاركة في مظاهر التدين الجماعي، ويغمطون حقوقهن في اختياراتهن الدينية بما في ذلك منعهن من ولوج حقل التصوف والمشاركة في طقوسه.

فقد اتسم مجتمع المغرب الأوسط في العصر الوسيط بسمته الرجالية أي سيطرة الرجال على مظاهر الحياة الدينية والفكرية والثقافية، وتعدى ذلك إلى تقويض الحضور النسائي في الاختصاصات النسائية بما في ذلك صناعة الحاكة(2)، وممارسة طب الولادة، فقد كان يمارسه في مدينة بجاية خلال القرن 7هـ/13م، خواص من الأطباء على حد تعبير أبي العباس أحمد الغبريني ت704هـ(3)

---

(1) سبق للباحثة الفاضلة: دحماني سهام أن خاضت مغامرة البحث في موضوع المرأة والتصوف في المغرب الإسلامي من القرن السادس إلى القرن التاسع الهجري، تحت إشراف الدكتورة مجاني بوبة.

(2) حول حرفة الخياطة وحياكة الصوف التي كان يمارسها الرجال بسوق الصوافين في بجاية . أنظر: أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 177.

(3) نفسه، ص 102.

فضلا على تغييب أصحاب كتب الطبقات والتراجم للمساهمة النسائية في شتى الميادين(1)، وإن ساقوها على سبيل الإستدلال فهي في صورتها المحتشمة التي لا تفي بالغرض، وإذا كانت النساء في المجتمع الصنهاجي قد نالت حظهن من المشاركة في قضايا مجتمعهن، ولهن هامش من الحرية في الحضور بالأسواق والأماكن العامة وفي لباس ما يكشف عن زينتهن كما تردد في المصادر.(2)

فإن الحضور الهلالي بالمغرب الأوسط منذ أواخر النصف الأول من القرن الخامس الهجري /14م قد ساهم في التضييق من حرية النساء اللاتي كن من أفضل المتاع المستهدف في أثناء الغارات، وأعمال الحرابة التي كانت القبائل الهلالية تمارسه على مدار أزيد من ثلاثة قرون(3)، وحتى داخل المجتمع الهلالي كان هامش حرية النسوة ضيق يعكسه لباس الهلاليات اللواتي كن يلبسن البرقع ويضعن فوق رؤوسهن القطيب.(4)

---

(1) ترى الباحثة الفاضلة دحماني سهام أن القهر الاجتماعي الممارس على المرأة في بلاد المغرب الإسلامي من القرن الثالث إلى القرن الرابع، هو عادة سيئة متجذرة في ذهنية الإنسان المغربي منذ العهد الوثني . المرأة والتصوف في المغرب الإسلامي من القرن 6 إلى القرن 9 هـ/ 12 إلى15 م، مذكرة ماجستير في التاريخ الاجتماعي لدول المغرب العربي، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة قسنطينة، 2007/2006 ، ص 28.

(2) حول اختلاط الرجال بالنساء في الأسواق والأماكن العامة بالمجتمع الصنهاجي . أنظر : أبو بكر الصنهاجي (البيدق) ت أواخر 6هـ/12م: أخبار المهدي بن تومرت، تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1788، ص 33 ؛ وكذلك، الغبريني: عنوان الدراية، ص 165 ؛ حول الصورة القاتمة التي قدمها عبد الواحد المراكشي في النصف الثاني من القرن 7هـ/13م عن النساء المرابطات . أنظر: المعجب في تلخيص أخبار المغرب تحقيق سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، 1368هـ/1949م، ص 177.

(3) حول سبي الحريم والأبكار والثيب من طرف الفرسان الهلالية . أنظر أحمد بن أحمد بن يحيى الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والمغرب، ج6، تحقيق محمد حجي وآخرون، مطبوعات الدار الإسلامي، 1981، ص 153.

(4) ورد شكل لباس النساء الهلاليات في سياق وصف الكفيف الزرهوني للنساء الهلاليات أثناء معركة بني هلال في مواجهة التوسع المريني بقيادة أبي الحسن المريني سنة 749هـ/1348م، وفيها يقول باللهجة العامية:

ما تشهيك غير براقع العُذرا كف تسقط مع عمايم الفرسان

فإذا لحقم وحركم تقوم وتحمي النار بين شاشية وقطيب . ملعبة الكفيف الزرهوني، تحقيق محمد بن شريفة، المطبعة الملكية، الرباط، 1987، ص 93.

وليس هذا هو المشهد الوحيد على المستوى القبلي، فقد كانت نساء زناتة ملزمات بارتداء العجار والنقاب أيضا(1)، نظًرا للتشابه في نمط الحياة والأنثروبولوجيا بين العرب وزناتة وفق منظور عبد الرحمان بن خلدون.(2)

وإلى جانب ذلك تطفح كتب النوازل بأشكال الإكراه الاجتماعي المسلط على النساء شفيعنا في ذلك أن نوازل أحمد الونشريسي التي أوردها حول هذه الظاهرة، وشملت مرحلة طويلة من التاريخ الاجتماعي لبلاد المغرب الإسلامي تمتد من القرن الخامس الهجري/ 10 م إلى القرن التاسع الهجري/15م(3)، قد عكست حرمان النساء من ميراثهن خاصة في المجتمعات القبلية، وفي الكثير من الأسر كان الآباء يلجؤون إلى إخفاء صداق بناتهم(4)، فضلا على ما كانت النساء تلقاه من أكراه بدني من طرف أزواجهن.(5)

وزاد من تضييق الخناق عليها أن حرَّم عليها الفقهاء حضور حلقات الذكر والرقص والغناء(6)، والاجتماع بالرجال ليلة الجمعة وعاشوراء(7)، وعدم السماح لهن بأداء صلاة الفريضة جماعة «لأن النساء في رأيهم لسن من أهل الجماعة في صلاة الفريضة، وبالتالي فإن تأديتهن للصلاة في بيوتهن أفضل لهن والقعود في بيوتهن على مغازلهن أفضل لهن من الخروج شيء من العبادات الظاهرة».(8)

فشكل هذا المناخ خنق لحريتها الاجتماعية والدينية ومحاولة لعزلهن عن موجة التدين الشعبي، وقد أدركت النساء أهمية حقل التصوف ومؤسساته في حمايتهن من أشكال الإكراه، مما جعلهن تعتبرنه الخلاص، فهذه امرأة

---

(1) ورد في ملعبة الكفيف الزرهوني: وصفا لنداء أبي الحسن المريني باللهجة الزناتية موجًها إلى النساء الزناتيات المرافقات له في حملته على تونس عندما انهزم أمام العرب الهلالية في الجولة الأخيرة بالقيروان سنة 749هـ/1348م .

قال لنساه:أَنْساَسْتْ لغيَ ـاد مافيها اليَوم نْقب ولاَ ـعجّر . ملعبة الكفيف الزرهوني، ص 135

(2) يبدوا أن تقارب وضع النساء الهلاليات بنظيراتهن الزناتيات له ما يبرره في نظر عبد الرحمان بن خلدون الذي يرى أن زناتة كانت آخذة بشعائر العرب في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل والتغلب في الأرض وإلاف الرحلتين وتخطف الناس من العمران والإباية عن الانقياد للنصفة. العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، ج7، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1983، ص3.

(3) حول تاريخية هذه النوازل ومضمونها أنظر: المعيار: ج11، ص 293 وما بعدها.

(4) أبو القاسم البرزلي: جامع مسائل الأحكام لما نزل بالقضايا من المفتيين والأحكام، ج4، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص 154.

(5) يدل على ذلك تلك المرأة التي جاءت إلى الفقيه وهي تدمي . المعيار، ج10، ص 230.

(6) نفسه، ج11، ص 42.

(7) نفسه، ج11، ص 228.

(8) نفسه، ج11، ص 227.

شكت قلة النفقة من زوجها والتضييق عليها في الخروج إلى الحمام(1)، وأخرى أجبرت على الزواج بأحد شيوخ القبائل المتنفذين على الرغم مسلك أسرتها المتدين(2)، مما جعلهن يطالبن بوضعهن في كفالة الصوفية والأولياء(3)، بل أن المرأة التي أُكرِهت على الزواج فرت إلى الزاوية واحتمت بها.(4)

2- مستويات ظاهرة التصرف النسائي

رغم أن ظاهرة التصوف النسائي بالمغرب الأوسط قد ورد حضورها في أشعار العرفانيين منذ القرن السابع الهجري، إلا أنها جاءت محتشمة ضمن نصوص كتب التاريخ والمناقب والطبقات والتصوف العائدة إلى المرحلة الممتدة من القرن السابع إلى القرن التاسع الهجري، بل وفي أحيان كثيرة كانت مغيبة، بما في ذلك كتابات النخبة الكاتبة والعالمة مثل ابن مرزوق الخطيب ت781هـ/1379م، ويحي بن خلدون ت780هـ/ 1378م، وأخيه عبد الرحمن ت808هـ/1405م ومعاصرة ابن القنفذ القسنطيني ت810هـ/1407م الذين وردت مساهماتهم في هذا المضمار مجرد عبارات قصيرة وكلمات تجريدية، لكنها دقيقة ومفعمة بالمعاني الصوفية، لذلك هي عدت المؤرخ الاجتماعي في تكوين تصور حول هذه الظاهرة الدينية والاجتماعية والتاريخية في آن واحد، وتفسير ذلك أن تجاهل أخبار التصوف النسائي كان عن قصد تحكم فيه اعتبارات منها:

أن الموضوع في حد ذاته يرمز إلى حرمة البيوتات التي لا يجوز الحديث فيها، لذلك جاءت رواياتهم محدودة ومضبوطة بخطوط العرف والحشمة، وإذا كان ابن مرزوق الخطيب قد أظهر لينًا نوعا ما في الكشف عن أسماء الصالحات من بيت المرازقة(5)، فإن ابن القنفذ القسنطيني تكتم عن ذكر الأسماء بما في ذلك اسم والدته، ولم يفصح عنه(6)، بينما تجنب عبد الرحمان بن خلدون الخبير بأوضاع وثقافة عصره الخوض في ظاهرة التصوف النسائي في كتابيه: «شفاء السائل» و «المقدمة»، ولم يعرج على هذه الظاهرة سوى في سياق الأحداث التاريخية ضمن كتابه «العبر».

---

(1) نفسه، ج11، ص 131.

(2) يحي بن أبي عمران موسى بن عيسى المازوني: الدرر المكنونة في نوازل مازونة، القسم الأول، مخطوط المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم1335، ورقة 240.

(3) الونشريسي: المعيار، ج3، ص 131.

(4) المازوني: الدرر المكنونة، القسم الأول، ورقة 240.

(5) من أسماء صوفيات بيت المرازقة اللائي ذكرهم محمد بن مرزوق الخطيب: أم جده محمد بن أبي بكر وهي زينب بنت أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الدلايلي، وزوجة جده فاطمة من بيت بني النجار وأمها مني بنت ابن الحسين. المناقب المرزوقية، تحقيق: سلوى الزاهري، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2008، ص ص 149، 168، 188.

(6) أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي الرباط، 1965، ص 50.

وبعد تجميع وفرز مختلف هذه العبارات والكلمات تبين أن ظاهرة التصوف النسائي قد وردت في أشكال من الممارسات الصوفية، يمكن تصنيفها إلي أربع مستويات هي:

أولاً: مستوى الحضور النسائي في النص العرفاني.

ثانيًا: مستوى الصلاح السني وممارسة الطريقة الصوفية.

ثالثًا: مستوى تجربة التصوف العملي والتصوف العرفاني.

رابعًا: مستوى تفعيل الحركة الصوفية.

أ- الحضور النسائي في النص العرفاني

تجسد الحضور النسائي في النص العرفاني بالمغرب الأوسط خلال القرن 7هـ/13م في أعمال كوكبة من صوفية التصوف الفلسفي في كل من بجاية وتلمسان، والذين اتخذوا من النساء رموزًا لتمثيلاتهم وتشبيهاتهم في التعبير عن مجاهداتهم ومراتب الوصول وحالات السكر والمشاهدة نحو الكشف واكتساب العلوم اللّدنية وتحقيق الوحدة والإتحاد بالله، فقد أثرى صوفية الاتجاه الإشراقي في بجاية النص الصوفي المنظوم بقصائد في الغزل الصوفي، صبوا فيها تجربتهم في التصوف الإشراقي متخذين من المرأة مصدر إلهام في وصف منظومتهم ومراتبها، حيث يعد أبو الحسن محمد الحرالي ت638هـ/1239م شيخ الاتجاه الإشراقي في بجاية أول من أشاع هذا اللّون من الغرض الصوفي بالمغرب الأوسط كقوله:

جَلتْ لكَ ليلَى من مُثنَّى نِقَابَهَا ... طريقًا وأبْدَتْ لَمْعَةً من لَمَاهَا

فَطبتَ بهَا عيشًا وتهتَ لذَاذَةً ... وفَيأكَ الإلَماعُ بَرد ظلالهَا.(1)

وقد حذى حذوهُ تلامذته مثل: تلميذه أبي محمد عبد الحق بن الربيع البجائي ت675هـ/1276م في قصيدته الطويلة التي يصف فيها حالة الكشف بقوله:

سَفرتْ عَلى وَجهِ الجَميل فأَسفَرا ... وبَدا هِلالُ الحُسنِ منْها مقمَرا

ودنتْ فَكاشفت القلوبَ بسِّرِها ... وسَقتْ شَرابَ الأُنْسِ منْها كَوثَرا(2)

وفي نفس الاتجاه استخدم أبو زكريا يحي بن محجوبة القرشي السطيفي ت677هـ/1238م أيضا المرأة في وصفه لمجاهداته النفسية أثناء الليل بقوله:

تتْ واللَّيلُ مَمْدُودُ الجَنَاح ... تَعُودُ مُسَهدًا طِبَ الجَراحِ

فَقالتْ كَيفَ وأنتَ ولاَ تَجَاح ... فقلتُ العُودُ يَذْهُب بالجَنَاح.(1)

---

(1) الغبريني: المصدر السابق، ص 119.

(2) يذكر الغبريني أن هذه القصيدة تتألف من خمسمائة بيت وقد نظمها قائلها أثناء قراءته على شيخ الاتجاه الإشراقي في بجاية أبي الحسن الحرالي، الذي قام بدوره بتلخيص هذه القصيدة الإشراقية . المصدر السابق، ص87.

3

غير أن قمة توظيف العنصر النسائي في القصائد العرفانية ورد ضمن أشعار صوفية تلمسان، فقد وظف عفيف الدين التلمساني ت690هـ/1291م المرأة إلى جانب الخمر والحب والمكان والمناول في ديوانه ليظهر تصوفه في وحدة الوجود لقوله:

ولم ْ نَر للغِيدِ الحسانِ بِهِ سَنَا ... وهم من بُدور التَّم في حُسنها أسنى

بسنابلِ بناتِ الحَمى عن قُدودهم ... ولا سيمَا في لينَها البانة الغنا

ونلثُم منهم التُربَ أن قد مشَتْ ... به سليمى ولبنى لا سلمى ولا لبنا(2)

وكذلك نعثر في أشعار بلديه أبي عبد الله محمد بن الخميس ت708هـ/1309م، نزوعا إلى توظيف الغزل النسائي والخمريات في التعبير عن اتجاهه في الوحدة المطلقة في قوله على سبيل المثال:

ولو لم يكُن خمرًا سُلافًا ريقَها ... تزري وتلعبُ بالنهي لم ْ تُحْظَر

وكذاكَ ساجي جفنُها لو لَم يكن ... فيه مُهنَد لحظلها لم يُحذرِ

لو عَجْتَ طرفك في حديقة خدِّها ... وأمنْتَ سطوةَ صَدغِها المتنمِّرِ.(3)

ومن هذه القرائن يتضح أن النساء كن مادة التصوف العرفاني الفلسفي في التعبير عن مقاماته ومنازله وتجريديته العالية.

ب– مستوى الصلاح السني وممارسة الطريقة الصوفية.

أظهرت إشارات أبي مرزوق الخطيب ويحي بن خلدون وأخيه عبد الرحمان من أن نشأة البيوتات الصوفية في المغرب الأوسط وتحديدا بتلمسان يعود إلى العهدين المرابطي والموحدي في القرنيين الخامس والسادس الهجريين /11 و12 الميلاديين(4) والتي صارت الحقل الطبيعي ومنبتَ التصوف النسائي بفضل المناخ الملائم الذي وفره

---

(1) نفسه، ص 120.

(2) شمس الدين ابن عبد الله محمد الجزري: حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، دراسة وتحقيق خضير عباس ومحمد خليفة المشداوي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1408هـ/1988م، ص 351.

(3) يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980، ص 111.

(4) يرمز لفظ البيوتات في العصر الوسيط الإسلامي الوسيط الإسلامي إلى مميزات شتى تكسبها أسرة معينة ويستمر فيها على مدار ثلاثة أو أربعة آباء في حقول العلم والتصوف والثروة والجاه والفروسية أو هي أيضا من الألفاظ التي شاع استعمالها في القرن 8هـ/14م من طرف نخبة المغرب الأوسط الذين كتبوا في مناقب أسرهم الصوفية أو في البيوتات التي عاصروا أحفادها وأرخوا لها، فبينما استعمل ابن مرزوق الخطيب لفظ البيتات في عرض حديثه عن بيوتات التصوف بتلمسان، استخدم بلديه يحي بن خلدون لفظ البيوتات وفيها يظهر التواصل لدى الأسرة الواحدة في حقل التصوف بصفة شبه دائمة تكون خلالها الأسرة مرتبطة بتيار أو طريقة صوفية معينة كان الأول قد اختارها مسلكا تعبديا له ثم يتوارثها أفرادها ويعتكفون على قراءة مؤلفاتها وممارسة طقوسها فيكسبون من ذلك سند الطريقة

شيوخ هذه البيوتات –الفقهاء والصوفية والعلماء–، عن قصد أو غير قصد للمرأة التي تندمج في منظومة التصوف وطرقه وطقوسه. فعلى المستوى الشرعي صارت المرأة داخل هذه البيوتات ملزمة بالمحافظة على الشريعة ومستفيدة من مقرراتها القانونية فكانت لا تستثني من ميراث والدها(1)، وغير ملزمة بإلزامات الفقهاء الذين سلم بعضهم بجواز شهادة الصالحات من النساء، وهذا ما حررها من أشكال الإكراه الاجتماعي الذي كان يمارسه الرجل على المرأة العادية، أضف إلى ذلك استفادتها كغيرها من أعضاء البيت الصوفي من الامتيازات المخزنية المتمثلة في أعطيات السلاطين وإدراراتهم(2)، الأمر الذي جعلها تتشبث بالتصوف منهجًا في الحياة، وحتى تستمر المرأة المنتمية إلى البيوتات الصوفية محافظةً على منظومتها الصوفية وانتمائها إلى الطريقة الصوفية، كان كبراء هذه البيوتات يعملُون إلى تعزيز علاقاتهم الصوفية وأخوتهم وصحبتهم في الطريقة بالمصاهرة، وحسبنا من النماذج في تلمسان مصاهرة بيت بني النجار لبيت المرازقة وبيت ابن صاحب الصلاة لبيت بني العزيز «الحزين»(3)، وفي قسنطينة مصاهرة بيت يعقوب بن يوسف الملاري لبيت ابن القنفذ(4)؛ الأمر الذي جعل المرأة الصوفية تغادر بيت أبيها إلى بيت زوجها فتعيش في ذات الوسط الروحي الذي غادرتهُ ، وهذا ما عناه الصوفي أبو الهادي مصباح بن سعيد الصنهاجي ت748هـ/1347م عندما سألهُ الخطيب حسن بن علي بن القنفذ عن زوجته بنت الشيخ يعقوب بن يوسف الملاري بقوله: «كيف هي بنتُ الشيخ مازالت فقيرة أم رجعت فقيهة؟»، إشارة إلى تتبع وضع المرأة المنتمية إلى البيت الصوفي بعد انتقالها من بيت أبيها.(5)

ومن هذا المنظور تلون تصوف المرأة باختيارات البيت الذي تعيش فيه، ونعتقد أن ذلك لم يؤثر في المسار الصوفي للمرأة المتزوجة طالما أن المصاهرة كانت تتم بين البيوتات المنتمية إلى نفس الطريقة، فقد كانت البيوتات السابقة الذكر منذ القرنين السادس والسابع الهجريين على نهج الطريقتين المدينية والشاذلية، مما جعل الزوجة في وضع روحي ثابت، وفي الوقت نفسه يكشفُ عن رغبة هذه البيوتات في تعزيز طريقتها الصوفية التي تنتمي إليها بروابط دموية تعزز من نفوذها في تماثلها مع الصورة العصبية القبلية.

ولما صارت البيوتات الصوفية من البنى الأساسية للحركة الصوفية والخزان الذي يمدها بالأطر بالصوفية وكذلك كونها راعية للطريقة الصوفية ومنظوماتها طقوسها من الغزالية والمدينية والشاذلية وفق ما يلائم مركزها

ويصبحون بدورهم من شيوخها ويلبسون الخرقة عن بعضهم البعض، ويتصافحون فيثبت لهم سند الاتصال بالخرقة . المناقب المرزوقية، ص 175 ؛ بغية الرواد، ج1، ص 116.

(1) المازوني: المصدر السابق، القسم الثاني، رقم 1331، ورقة 31.

(2) الونشريسي: المصدر السابق، ج6، ص 172.

(3) ابن مرزوق الخطيب: المصدر السابق، ص ص 161، 163.

(4) ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 50.

(5) نفسه، ص 50.

الاجتماعي، فأدرجوا الطقوس في نظام الطريقة بعد أن أعادوا لها مشاريع في التأصيل والتقعيد، فأسندوها إلى السنة وسيرة الصحابة والسلف.

فصارت بذلك حلقات الذكر الجماعي ومظاهر الإنشاد والتواجد والرقص وأشكال التراتيب في القول بالعهد والمصافحة، ولباس الخرقة الوجه البارز في الحركة الصوفية من القرن السابع إلى القرن التاسع الهجري(1)، فشكل كل ذلك مناخًا مناسبًا أخروج المرأة للمشاركة في اجتماعات الصوفية وحلقات الذكر وحضور احتفالات المواسم الدينية(2)، ويعزى إلى أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن مرزوق ت629-681هـ/1231-1282م الفضل في وضع بيت المرازقة على خط الطريقة المدينية وإدماج النساء في حقل الطريقة الصوفية، فقد أسكن في دويرة ملحقة نساء أندلسيات من أهل مرسية كن من الصالحات وجعل معاشهن على نفقته وكان يزورهن كل ليلة ويتذاكر معهن في أمور الدين والتصوف.(3)

لكن السؤال الذي يفرض نفسه بإلحاح هو: ما هو نوع التصوف الذي مارسته النساء داخل هذه البيوتات؟ خصوصًا وأن النخبة الكاتبة العالمة التي أشارت إلى التصوف النسائي في القرن 8هـ/14م قد وصفت النساء الصوفيات بالصالحات وتبعهم في ذلك أصحاب كتب المناقب والتصوف في القرن 9هـ/15م، ويزداد الموقف حيرة في ظل غياب الكتابة الصوفية النسائية المنظومة والمنثورة، ما عدى تأليف عائشة بنت الفقيه أحمد بن الحسن المديويني لكتاب «في الأدعية الصوفية»(4)، مما أثار شكوك الباحثين في وجود بنية فكرية وسلوكية مستقلة خاصة بالتصوف النسائي.

والواقع أن مصطلح «الصلاح» أو «الصلحاء» قد أطلقه أصحاب كتب الطبقات في القرنين 3 و4 الهجريين 9 و10 الميلاديين على العلماء والفقهاء والزهاد الذين مارسوا تجربة الزهد والتعبد المقرون بالشريعة ثم ما لبث بعد ذلك في القرنين 6 و7 الهجريين/ 12 و13الميلاديين أن عرف اتساعًا في مجاله الدلالي، وصار يرمز إلى عدة أنماط من المعرفة والتدين هي الفقه والتصوف السني والتصوف الفلسفي، وارتبط بأدوار اقتصادية واجتماعية وسياسية شتى تُجَسد في نشاطهم الفلاحي والتجاري وفي مساعدة المجتمع على تجاوز ظروف الأزمات وكذلك في

---

(1) من أبرز مشاريع التأصيل والتقعيد لمجالس الذكر الجماعي أثناء القرن 9هـ/15م ذلك العمل الذي قام به شيخ بيت ابن زاغو، أحمد بن زاغو ت845هـ/1441م من خلال كتابه الموسوم «جلاء الظلام عن طريقة أولياء الله الكرام ومن شاركهم في شيء من أعمالهم من الخواص والعوام»، وفيه دعى إلى الذكر الجماعي وبين فوائده وآثاره الروحية والتعليمية . مخطوط ضمن مجموع، الخزانة الحسنية، رقم 12343، ورقة 44 وما بعدها.

(2) البرزلي: المصدر السابق، ج4، ص 188.

(3) ابن مرزوق: المصدر السابق، ص 156.

(4) أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ج2، ط1، تحقيق على عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2004، ص 182.

التوسط عند السلطة لقضاء حوائج العامة، لذلك خص أبوا العباس أحمد الغبريني ت704هـ/1304م صوفية التصوف السني والتصوف الفلسفي والفقهاء وعلماء العلوم العقلية بالصلاح واستعمل في خطابه للدلالة على ذلك ألفاظ «الفقيه الصالح» و «الولي الصالح» و«الفقيه الصالح الزاهد» و «الفقيه الولي الصالح».(1)

كذلك لم يبتعد يحي بن خلدون ت780هـ/1478م عن هذا التركيب المعرفي والديني والاجتماعي في وصفه لصوفية تلمسان في القرن 8هـ/14م على نحو «الولي الصالح» و «الصالح الوالي» و «الصالح الفقيه» و «الصالح الزاهد» و «الصالح الولي الفقيه»(2)وتبعه في ذلك بلديه ابن مرزوق الخطيب ت781هـ/1379م، حيث وصف الصوفية السنة والصوفية المتجردين الذين كانوا يحضرون مجلس جده محمد بن أبي بكر بن مرزوق في القرن السابع الهجري بصلحاء البلد، بل أنه اعتبر طريق التصوف هو طريق الصلاح(3)، في حين شرح ابن القنفذ القسنطيني ت810هـ/1407م لفظ الصالح وحدد ماهيته ومراتبه فاعتبر الصالح كل «من امتثل لأوامر الله واجتنب نواهيه ورزق الخوف من الله تعالي لا من خلقه واجتهد في طاعته جل وعلا وبحث عن أم كسبه ووقف عند حدود ما حد له ورجع عن كل ما لا يعلم حكمه ...»(4)، وبالتالي فإن الصالح في القرن 8هـ/14م هو من التزم الشريعة واجتهد في الطاعة واشتغل في طلب الرزق، وهو أيضا درجات وأعلى درجة من هذا المفهوم في رأيه «حصول الورع وترك الطمع وبفض الدنيا وما تمسك بها والفرار من دواعيها ومن أهلها والقناعة باليسير منها»(5).

ومن هنا يتضح اتساع وعاء الصالح ليشمل الشريعة والزهد والتصوف، ومع ذلك يبقى الصلاح بالنسبة إليه درجات تختلف بالترقي في ذلك على حسب العناية من الله تعالى في المماليك.(6)

الأمر الذي يفسر استخدامه للفظ الصالح مرافقا لألفاظ الفقيه والعالم والعارف والسالك على نحو «الفقيه الصالح» «العالم الصالح» و«الصالح العالم الوالي» و «الصالح العارف» و «الصالح السالك»(7)، أما في القرن9هـ/15م فقد وقع تبسيط مفهوم الصلحاء فعرف أحمد زروق ت899هـ/1493م الصالح بأنه من كان «بريء من باطل أهلها».(8)

---

(1) عنوان الدراية، ص ص 104، 121، 132، 221، 251.

(2) بغية الرواد، ج1، ص ص 122، 199، 118، 106، 115، 121.

(3) المناقب المرزوقية، ص 157.

(4) أنس الفقير، ص 3.

(5) نفسه، ص 3.

(6) نفسه، ص 3.

(7) نفسه، ص ص 26، 30، 32، 34، 49، 73، 77.

(8) قواعد التصوف، تحقيق عبد المجيد خيالي، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005، ص 96.

أي باطل الدنيا وحمّل ابن صعد التلمساني ت901هـ/1495م مفهوم الصالح دلالات ولائية فقال في الصلحاء بأنهم «الذين صلحت أحوالهم فيما بينهم وبين الناس وأخلصوا لله الدين والدعوى بصدق الإتباع للسلف الصالح وخاصة الأولياء الزاهدين بقصر الأمل على الاجتماع بلا أمر والنهي والعمل بالمعرفة واليقين والبصيرة»(1)، وبذلك يتضح امتزاج صفات الصلاح بصفات الولاية.

مما يعنى في مجموع هذه الآراء أن لفظ الصلاح أو الصلحاء ظاهرة دينية وسلوكية وزهدية واجتماعية، ليست مقترنة بفئة اجتماعية دون غيرها بل وعاء اتسع لكل الأنماط التعبدية والمعرفية والزهدية والصوفية عن حد تعبير محمد حسن(2)، بما في ذلك الصلاح النسائي، فقد اهتم ابن مرزوق الخطيب برصد صالحات تلمسان داخل البيوتات الصوفية ووصفهن بأنهن كن من أهل الزهد والتقشف والمجاهدات، منهن إحدى بنات الفقيه أبي عبد الله الكتاني بتلمسان خلال العهد الموحدي، والتي كانت مؤثرة للخلوة بموضع كهف الضحاك، ولما تزوجت من الصوفي أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن مرزوق ت681هـ/1282م صارت ملازمة للتقشف والعبادة على الطريقة المدينية مثل زوجها و «مقتصرة على ما يقتصر عليه من القوت»(3)، فقد كان متقشفا إلى الغاية في مأكله مقتصرا على القوت الذي لا يكاد يحفظ البنية ويكثر من الصوم ولا يفطر إلا أحيانا، في حين كان يلبس اللباس الجميل ويركب الفاره من الدواب.(4)

وقد اعتبر الأستاذ فيلالي عبد العزيز ذلك ثورة على المفهوم السطحي للتصوف(5)، وعلى خطاه كانت زوجته متوخية الحلال من القوت، متورعة عن أكل طعام أبيها لأن رزقه كان من المخزن الموحدي.(6)

وكذلك كانت فاطمة بنت أبي زيد بن النجار زوجة أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن مرزوق، الثانية أيضا من الصالحات(7)، وعائشة والدة محمد بن مرزوق الحفيد ت842هـ/1438م بصيرة تفسير الرؤية ومهتمة

---

(1) النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب، ج1، مخطوط الخزانة العامة للمخطوطات والوثائق، الرباط، رقم 1910/ د، ورقة 35.

(2) الفقراء والزوايا بوسط إفريقيا من أواسط القرن السادس الهجري إلى نهاية القرن الثامن الهجري، مأخوذ من كتاب المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي، تنسيق الهادي التيمومي، ط1، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، 1999، ص 313.

(3) ابن مرزوق: المصدر السابق، ص 150.

(4) نفسه، ص ص 159، 160.

(5) تلمسان في العهد الزياني «دراسة سياسية وعمرانية واجتماعية وثقافية»، ج2، دكتوراه دولة، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1995، ص 397.

(6) كان والدها الفقيه أبو عبد الله الكتاني من كبراء فقهاء دولة الموحدين بتلمسان وصاحب المشورة والمفوض من قبلهم على المدينة . ابن مرزوق: المصدر السابق، ص 149.

(7) ابن مرزوق: المصدر السابق، ص 168.

بمطالعة الكتب(1)، ومن بيت أبي إسحاق إبراهيم التنسي كانت أمه أم الفتح المدعوة بفتحون مجابة الدعوة، وقد تمنت الموت في بيت المقدس، فكان لها ذلك ليلة سبع وعشرين من رمضان سنة 724 هجري.(2)

بالإضافة إلى ابنته زوجة الفقيه أبي العباس أحمد بن القاضي بن أبي عمران الزرهوني التي كانت من خيار الصالحات على حد تعبير بن مرزوق الخطيب.(3)

ومن بيت بني الجلاب المرأة الصالحة يستُم بنت الشيخ أبي علي حسين بن الجلاب ومن بيت بني عبد العزيز اشتهرت الصالحة المباركة فاطمة بنت العالم أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز(4)، ومن بيت ابن القنفذ والدة الخطيب القسنطيني(5)، وفي القرن 9هـ/15م استمرت هذه الظاهرة ممثلة في والدة الحسن أبركان من بيت أبركان(6)، ومن بيت السنوسي ابنة محمد بن يوسف السنوسي(7)، بل أن الخادمات في هذه البيوتات كن يتأثرن بالمناخ التعبدي السائد وحسبنا أن مملوكة الصوفي علي التالوتي المدعوة بسعيدة المملوكة كانت تقول بالمرائي الصوفية.(8)

وإذا كانت مساهمة النساء الصالحات في الكتابة الصوفية ضعيفة فإن دورهن على مستوى الكتابة المناقبية وفي الجانب الاجتماعي كان فاعلا، فقد أدى قربهن من مشهد الحركة الصوفية والمشاركة في تفعيلها إلى تحولهن إلى أحد المصادر الأساسية في رواية أخبار الصوفية والكشف عن تفاصيل حياتهم الاجتماعية، وحسبنا أن بن مرزوق الخطيب اعتمد في رصد أخبار ومناقب أسرته وكذا بيوتات التصوف في تلمسان على روايات النساء الصالحات يدل على ذلك استخدامه لعبارات : «أخبرتني الصالحة المباركة فاطمة بنت الشيخ العالم أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز الحزين»(9) و «حدثتني الشيخة الصالحة عائشة بنت الأكحل»(1) و «حدثتني الشيخة الصالحة أم الفتح»(2) و«أخبرني هو والمرأة الصالحة يستم بنت الشيخ أبي علي حسين بن الجلاب».(3)

---

(1) نفسه، ص ص 277، 292.

(2) نفسه، ص 228.

(3) نفسه، ص 228.

(4) نفسه، ص ص 162، 175.

(5) ابن القنفذ: أنس الفقير، ص 48 وما بعدها.

(6) محمد بن صعد التلمساني: روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، مراجعة وتحقيق يحي بوعزيز، ط1، مشورات A.N.E.P الجزائر، 2002، ص 126.

(7) محمد بن عمر الملالي: المواهب القدسية في المناقب السنوسية، مخطوط دار الكتب التونسية، رقم 15354، ص 10.

(8) أحمد بابا التنبكتي: اللآلئ السندسية في الفضائل السنوسية، مخطوط الخزانة العامة للمخطوطات والوثائق، الرباط، رقم 471/د، ص 97.

(9) أحمد بابا التنبكتي: المصدر السابق، ص 175.

في حين تمثل دورهن الاجتماعي في التأثير على منطق العلاقات داخل التراتب الاجتماعي فإذا كان تغلغل التصوف في البنية الاجتماعية قد فرض تراتبا اجتماعيا أساسه القيمة الروحية لا التفاوت الطبقي، فإن النساء الصالحات عمقن من هذا التراتب بأن قبلن الزواج من الصوفي بصرف النظر عن موقعه الاجتماعي، فأسقطن اعتبارات المال والجاه في شروط اختيار الزوج وعززنا من القيمة الروحية كأساس ثابت في معادلة التراتب الاجتماعي وحسبنا من القرائن أن أبا عامر في تلمسان كان من الأولياء الصلحاء الخطباء وبنته معروفة بالدين والصلاح بتلمسان لكنه زوج ابنته لأبي العباس بن القطان الضعيف المحتاج.(4)

وقبول فاطمة بنت أبي زيد بن النجار وهي من بيت ثري يمارس أفراده حرفة صناعة الثياب، الزواج من الصوفي محمد بن أبي بكر بن مرزوق بل أن أمها منى بنت حسين كانت تخدمه وتبره وقد استمر ذلك ثمانية سنوات(5)، وغيرها من القرائن التي لا يتسع المقام لذكرها.

ج– تجربة التصوف العملي والتصوف العرفاني.

إلى جانب تجربة التصوف النسائي داخل البيوتات الصوفية مارست النساء كذلك أسلوب المجاهدات العملية الفردية القائم على الزهد والتقشف في المأكل والملبس والانقطاع في الخلوة بالصيام والقيام المتواصلين مع النزوع إلى الكشف، كما خضعت مجتمعات أيضا إلى تجربة التصوف العرفاني، ومن النماذج النسائية في هذا السياق تمكن حضيبة والدة سعادة الرياحي خلال القرن السابع الهجري من داخل الوسط الهلالي بمنطقة طولقة نواحي الزاب من أن تصل إلى أعلى مقامات العبادة والورع على حد قول عبد الرحمان بن خلدون.(6)

كما لا نستبعد أن تكون هناك نساء هلاليات تمارسن نفس تجربة حضيبة خصوصا وأن المرحلة الممتدة من القرن السادس إلى التاسع الهجري قد شهدت تغلغل أشكال من تصوف القبائل الهلالية منها في وسط قبيلة زغبة التي استقرت بالقرب من مديونة نواحي تلمسان، والتي تسرب منها بنو عامر إلى داخل المدينة، واشتهر بيتهم بالدين والصلاح(7)، وكذلك الشأن مع قبائل سويد في ممارستها لتجربة الرباط نواحي الشلف(8)، وانبثاث تجربة

---

(1) نفسه، ص 235.

(2) نفسه، ص 277.

(3) نفسه، ص 162.

(4) نفسه، ص ص 161، 162.

(5) ابن مرزوق: المصدر السابق، ص 168.

(6) تزعم سعادة الرياحي حركة المرابطين السنة لمنطقة الزاب بين 703-750هـ/1303-1305م والتي استمر نشاطها العسكري ضد الحكم الحفصي حتى سنة 740هـ/1339م . العبر، ج6، ص ص 81، 85.

(7) ابن مرزوق: المصدر السابق، ص ص 161، 276.

(8) ابن خلدون: العبر، ج7، ص 335.

المرابط من قبائل الرياح في السهول الداخلية الشرقية(1)، فلا يعقل أن تبقى النساء خارج هذا المناخ ولا تتأثر بأفكاره وطقوسه.

وإلى جانب ذلك عكست تجربة المجاهدات والغربة عن الأوطان عند مؤمنة التلمسانية في القرن الثامن الهجري نموذجا بارزا في ولوج النساء مجالا كان حكرا على الصوفية الرجال فقد كانت بشهادة معاصرها ابن القنفذ القسنطيني تتميز بالورع والزهد والانقطاع، خصوصا في أشهر رجب وشعبان ورمضان، وقد انتقلت من تلمسان إلى فأس، فكانت «لا تساكن أحد ولا يراها في زمن انقطاعها أحد من الناس ولا تكلمه».(2)

وكان قوتها من عمل الغزل الذي كانت تمارسه وتقتني بثمنه ما تحتاج إليه، وهي في ذلك تتحرى الحلال في مأكلها، لذلك كانت تمتنع عن أكل طعام الناس(3)، وقد عادت بعد رحلة سياحتها إلى وطنها بتلمسان وتوفيت به.(4)

ولما صار علم التوحيد في المغرب الأوسط خلال القرن 9هـ/15م طريقًا للوصول إلى كشف حجاب الحسن واكتساب العلوم اللدنية والعطايا والمواهب الإلهية(5)، واتخذ الصوفية المعرفة بأسماء الله الحسنى الخاصة لهم بالبراهين أساسًا للمعرفة الذوقية بواسطة سلوك طريق الذكر(6)، انخرطت النساء في هذه الموجة حيث تفيد رواية أبي حامد محمد العربي ت988 هـ/1052م بأن أحمد بن يوسف الملياني الراشدي ت931هـ/1524م، صاحب الطريقة الراشدية، قد رتب الذكر الجماعي بأسماء الله الحسنى للنساء في زاويته بسهل الشلف مما يعكس

(1) حول نماذج من تجربة المرابط عند قبائل رياح في السهول الداخلية الشرقية من المغرب الأوسط . أنظر: إبراهيم بن عبد الله بن الحاج النميري: فيض العباب وإفاضة قداح الأدب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تحقيق محمد بن شقرون، الرباط، بدون تاريخ، ص 112.

(2) أنس الفقير، ص 81.

(3) نفسه، ص 81.

(4) محمد بن الطيب القادري: الإكليل والتاج في كفاية المحتاج، تحقيق ماريا دادي، ط1، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، مطبعة شمس وجدة، 2009، ص 581.

(5) ظهر علم التوحيد في المغرب الأوسط كطريق للوصول إلى الكشف واكتساب المواهب والعطايا الإلهية ضمن نشاط فقهاء مدرسة بجاية خلال القرن السابع الهجري/13م . الغبريني: المصدر السابق، ص ص 100، 104، 170، 321.

(6) على حمدان أحمد: فلسفة الفكر الديني بين السنوسي والمغيلي، دبلوم دراسات العليا في الفلسفة، جامعة محمد الخامس، كلية الأدب، الرباط، 1978، 1979، ص ص 279، 280.

ممارسة النساء للتصوف العرفاني السني عبر المعرفة الذوقية، لأسماء الله الحسنى بواسطة الذكر بصيغة «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، والتي لا تتحقق بدورها إلا بالمعرفة الرسمية لأسماء الله وأوصافه الجمالية والجلالية.(1)

ورغم أنها الرواية الشاهدة الفريدة التي تظهر اقتحام النساء مجال التصوف التوحيدي العرفاني السني، إلا أنها تكشف عن الدور الاجتماعي والأخلاقي الذي كان يقوم به كبار الصوفية في احتواء أزمة النساء اللائي كن بدون مأوى عبر إدماجهن في طريق التربية الصوفية.

د- مستوى تفعيل الحركة الصوفية

وإلى جانب المستويات السابقة ساهمت النساء أيضا في تفعيل الحركة الصوفية ونشر التصوف الشعبي من خلال حضور حلقات الذكر الجماعي وتنشيط عنصري الغناء والرقص فيها(2)، خصوصا في البوادي حيث سلطة الفقهاء ومراقبتهم ضعيفة، ورغم ذلك فقد طالت انتقادات فقهاء المدن لهذه الظواهر لما كان يتخللها من الخروج عن قاعدة الشرع لذلك وصفوا أدعياء الرباط المنظمين لهذه الحلقات بالجهل وحّرموا حضورها وتنظيمها.(3)

فظلا على مواظبتهن في زيارة الأضرحة والقبور والتبرك بها(4)، بعد أن استحسن قطاع واسع من الفقهاء مبدأ الزيارة(5)، وتشديدهم في طقوسها كطريقة الصلاة على القبر ووضع اليد على القبر ومسح الوجه بها وتقبيل القبر وأخذ ترابه للاستشفاء به فقد عد ذلك من الممارسات البدعية خصوصا في القرنين 8 و9 الهجريين.(6)

إلى جانب هذه المساهمات الطقوسية ورد أيضا في نوازل الونشريسي ما يفيد مساهمة المرأة في أوجه الصلاح مثل تأسيسها للزاوية(7)، وحبس الأرض المزروعة كي يقدم قمحها للصوفية الفقراء في ليلة المولد النبوي(8)، ناهيك على أشكال الهبات التي كانت تقدمها في أوجه الخير وخدمة الدين بشكل هباتها للمسجد والزاوية وعتقها للعبيد(9)، وافتدائها للأسرى(1)، وهذه الأعمال لا يمكن للمرأة القيام بها إلا إذا كانت من بيوتات

---

(1) مرآة المحسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، تحقيق محمد حمزة الكتاني، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003، ص 292.

(2) الونشريسي: المعيار، ج11، ص 30.

(3) حول هذه الظاهرة التي كان ينظمها مرابطوا الطقوس بالبوادي . أنظر أحمد زروق: الرد على أهل البدعة، مخطوط ضمن مجموع، دار الكتب التونسية، رقم 8172، ورقة 94.

(4) الونشريسي: المعيار، ج2، ص 499 ؛ ابن القنفذ: أنس الفقير، ص 73.

(5) أحمد زروق: عدة المريد الصادق، تحقيق إدريس عزوزي، ط1، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب،1998، ص353.

(6) الونشريسي: المعيار، ج2، ص 490.

(7) حول نماذج من تأسيس المرأة للزاوية . أنظر: المعيار، ج7، ص ص 115، 118.

(8) نفسه، ج7، ص 114.

(9) نفسه، ج9، ص ص 237، 253.

الثراء أو من كانت في وضع مادي مريح يسمح لها بهذا النوع من النشاط، وقد يكون النشاط في مجموعه نوعا من رد الفعل على تيار المُجون واللهو النسائي الذي تصاعدت موجته في هذه المرحلة التي أشار إليها الونشريسي ورصد ظواهرها في استفحال موضة تسمين النساء وتبرجهن واجتماعهن بالرجال في أسواق الغزل والصوف والمشي في الأزقة عاليات الأصوات باديات الوجوه.(2)

ورغم أن فهم النساء للتصوف ورد في مستويات مختلفة إلا أنهن يتقاطعن في إشاعة كرامات الصوفية وخوارقهم وحكاياتهم وكان ما يشغفه ينتقل من جيل إلى جيل مكونا ثقافة شعبية هي عزاء مجتمع المغرب الأوسط في ظروفه الصعبة.

ويجدر التنبيه إلى أن هذه الإطلالة حول ظاهرة التصوف النسائي بالمغرب الأوسط قد كشفت عن ضعف مساهمة السلطة في الإحكام بشأن الصوفيات من النساء في المجتمع حلم تتحرك إلى تأطيرهن أو الاهتمام بهن بصفة مستقلة كما هو الحال في تجارب اهتمام السلطة في المشرق بالتصوف النسائي.

حيث شيدت أماكن تجمع النساء وتدار من قبل شخصيات نسوية، فقد شيد الخليفة المستعصم العباسي ت656هـ/1258م رباط للنساء يدعى «رباط الشط» كانت تديره بنت المهدي(3)، وقيام «تذكار ياي خاتون» بنت الملك الظاهر بيبرس سنة 684هـ/1285م بتشييد رباط البغدادية في القاهرة للمرشدة زينب بنت أبي بركات(4)، وهذا ما لم نعثر عليه ضمن المشروع السياسي في المغرب الأوسط، وربما يكون ذلك خلف ظهور المبادرات الفردية الحرة من جانب كبار الصوفية كما تتبعناه في نشاط كل من أبي بكر محمد بن مرزوق في القرن 7هـ / 14 م ومحمد بن يوسف المليانى الراشدي ت9 هـ / 15 م.

لكن مع نهاية العصر الوسيط واختفاء نظام التراتب الصوفي والطريقة الصوفية من مجتمع المدينة والبادية واكتساح المرابطية للساحة الدينية، صارت النساء مادة خصبة في نشاط المرابطين تساهمن في نشر ثقافة دينية شعبية بالية لا تمُد إلى التصوف والشريعة بصلة.

---

(1) يتحدث الونشريسي عن ظاهرة افتداء المرأة للأسرى بمقياس الذهب . المعيار، ج8، ص 253.

(2) نفسه، ج2، ص ص 488، 499، 500.

(3) فروزان الراسخي: المرأة في العرفان الإسلامي والمسيحي، تعريب عبد الرحمان العلوي، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، 1435هـ/2004م، ص ص 249، 255، 256.

(4) يذكر تقي الدين أبوا العباس محمد المقريزي بأن رباط تذكار ياي خاتون كانت له شيخة دائمة تعض النساء وتذكرهن وتفقههن وفي القرن الثامن الهجري/14م، صارت تودع فيه النساء اللاتي طلقن أو هجرن حتى يتزوجن أو يرجعن لأزواجهن صيانة لهن . المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاعتبار (الخطط المقريزية)، ج4، تحقيق خليل المنصور ط1، دار الكتب العلمية، 1998، ص 303.

مقاومة الأوراس للاحتلال الروماني
ثورة تاكفاريناس أنموذجا (17–24م)

الأستاذة: يمينة بن رحال أستاذ مساعد أ. جامعة المسيلة

من المعروف أن نفوذ الرومان أخذ يتسع، ويمتد شيئا فشيئا في مراحله الأولى، على المناطق المجاورة لروما، ثم بلاد ايطاليا الوسطى و جنوب شبه الجزيرة الايطالية، وواصلوا توسعاتهم الخارجية فتحصلوا على مكاسب إقليمية خارج ايطاليا، والفضل يعود في ذلك إلى تل[1]ك الحروب التي خاضها الرومان، قصد الحصول على مناطق جديدة لبسط نفوذهم، ولم يقف الرومان عند هذا الحد وفقط بل اخذوا ينظرون بعين الطمع إلى شمال إفريقيا، لما تحتويه المنطقة من خصائص جغرافية وبشرية أهلتها على أن تكون محط أنظار العالم الخارجي، ومن ثمة التناحر والتكالب على ممتلكاتها، وخير دليل على ذلك أنه بعد نهاية الصراع الذي دار بين قرطاجة والإغريق، حدث صراع مماثل بين روما وقرطاجة، هذه الأخيرة التي كانت تعتبر أكبر منافس ومزاحم للإمبراطورية الرومانية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط[1]، فتخوف الرومان منها جعلها تفكر دون تردد في تصفية وجودها في المنطقة، لذلك دخلت معها في صراع عسكري مرير،عرف بالحروب البونيقية الثلاث،امتدت فيما بين (264 ق.م – 146 ق.م)، فهذه الحروب لعبت دورا تمهيديا في احتلال الرومان لبلاد المغرب القديم، وعلى اثر نهاية الحرب البونيقية الثالثة (149 ق.م– 146 ق.م) تمكن الرومان من القضاء على وقرطاجة وتدميرها وحـــلوا محلها [2] وأزالو ملكها، ليتم إنشاء على أنقاضها الولاية الرومانية، سميت بمقاطعة إفريقيا الرومانية واشرف على هذا الانجاز سبيون الاميلي سنة 146 ق.م[3] ،وبالتالي فان زوال الدولة القرطاجية عزز من أمن الرومان في المنطقة، ودعم فكرة الإرادة الرومانية التي لا تقهر.

إن حصول الرومان على قرطاجة، التي كانت تمثل الحصن المنيع لبلاد المغرب القديم، فتح المجال واسعا أمام الرومان، للتوغل أكثر في بلاد المغرب، قصد توسيع مناطق نفوذهم والحصول على مكاسب إقليمية في المنطقة، فكان ذلك إيذانا بمصير مشابه بالنسبة لبقية الممالك الوطنية المغربية، التي أصبحت ترى في زوال قرطاجة انهيار الجدار الحصين، الذي كانت تحتمي خلفه بلاد المغرب و بالتالي أصبحت بقية المناطق المغربية الداخلية مكشوفة أمام الهجمات الرومانية و متوقع الاستلاء عليها و ميسور أمرها متى حان الأوان، فوجد المغاربة أنفسهم وجها لوجه أمام أطماع الرومان التوسعية، فراحوا يسلكون أساليب مختلفة لمقاومة و تمديد الأجل إلى حين، وزاد في إصرارهم

1

– مبارك محمد الميلي: تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1976، ص252.

(2) – محمد الهادي حارش: التاريخ المغاربي القديم (السياسي والحضاري) منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، الجزائر،1992، ص 71.

(3)– محمد البشير الشنيتي: سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا (146 ق.م – 40م) ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1982، ص 54.

ذلك الشعور القوي بوجوب تحرير بلادهم من الغزاة الرومان، الأمر الذي جعلهم لا يترددون في الثورة ضد الرومان، لذلك نجد بلاد المغرب القديم قد عرفت العديد من الثورات المتتالية التي اندلعت في عدة جهات وخلال فترات زمنية متباينة، تعددت فيها القيادة والأسلوب العسكري، ولعل ثورة تكفاريناس إحدى النماذج الحية التي برهنت عن موقف سكان منطقة الاوراس، من التواجد الروماني و توغله نحو الداخل، فيا ترى كيف كانت إسهامات تكفاريناس في مقاومة الاستعمار الروماني؟ وما هي أبرز العوامل التي ساعدته على اندلا ع ثورته؟ ما هي مراحلها؟ إلى أي مدى استجاب سكان المنطقة لنداء تكفاريناس ؟ وهل حققت الثورة هدفها المنشود؟ وما انعكاساتها على الطرفين؟

لمحة تاريخية عن تاكفاريناس: TACFARINAS

تاكفاريناس هو أحد أبناء منطقة الأوراس، ينتمي إلى قبيلة المزالة[4] نشأ في أسرة نبيلة، كان غيورا على وطنه مخلصا لأمته، شجاعا وصنديدا، يتميز بشخصية حربية ممتازة[5]، أهلته بأن يسطع نجمه إلى الأفق، عمل كمساعد في الجيش الروماني[6] وهو في ريعان شبابه، وظل هنالك عدة سنوات يتعلم خلالها فنون القتال[7] إلى أن برع في قيادة الجيش حيث اكتسب خبرة عسكرية في أسلحة الفرسان والمشاة، ولما صار ماهرا في ساحة القتال وعلى دراية كافية بأسرار القتال، فر من الجيش الروماني، وفي ظل قلة المعطيات التاريخية التي تتوفر لدينا يصعب علينا تحديد الأسباب الحقيقية التي دفتعته إلى الانسحاب من الجيش الروماني، لكن أغلب الظن أنه تحركت فيه عزة النفس خاصة بعد أن تألم حسرة لما رآه في بني قومه من استغلال واستعباد على حد سواء من طرف السياسة الرومانية المجحفة في مختلف المجالات التي بات يعاني منها سكان بلاد المغرب القديم، الأمر الذي دفعه إلى تنظيم جيش وطني جعله تحت قيادته فاستبسل في محاربة القوات الاستعمارية الرومانية[8].

أسباب الثوة:

لثورة تاكفاريناس عدة عوامل نذكر منها :

1- وجود الاستعمار الروماني وما ترتب عنه من سياسة قهر واستغلال وسوء معاملة النوميديين.

---

(4)- المزالة : تعد أكثر القبائل شهرة وصلابة جاء اسمها في أشكال مختلفة منها موزولامي، ميزولاني، وميزولامي، اقترن اسمها بالمقاومة الأولى التي واجهت حركة التوسع الروماني نحو الداخل النوميدي، إذ قاومت جيش الاحتلال سنتي 5 و6 م، تواصلت انتفاضاتها ضد الاستعمار الروماني في وطنها بمنطقة الأوراس وظلت طيلة فترة الاستعمار تقاوم بإصرار و عناد حتى اعتبرت أكثر القبائل النوميدية إيذاءا للرومان في نظرا المؤرخين.

(5)- محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير، ج1،ط1، مطبعة الحلبي وشركاؤه 1964، ص 344.

(6)- أحمد سليماني: تاريخ ملوك البربر في الجزائر القديمة، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007، ص 188.

(7)- محمد البشير شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1999، ص53.

(8)- أحمد صفر: مدينة المغرب العربي في التاريخ، ج1، دار النشر بوسلامة، تونس، ص289.

2- قيام الغزاة بتهجير السكان وإجلائهم عن أراضيهم وممتلكاتهم بهدف تثبيت وجودهم في بلاد المغرب على حساب البربر، الأمر الذي ولد لديهم رغبة ملحة في استرجاع أراضيهم.

3- بناء الطريق المحصنة " الليمس الأول[9]" الذي يربط بين خليج السرت شرقا ومعسكر حيدرة بالقرب من تبسة غربا، حيث عسكرت الكتيبة الثالثة الأوغسطية وكانت هذه الطريق تشق الأراضي التي ينتجع فيها المزالمة فعرقلت تحركاتهم.

4- سوء معاملة واحتقار الرومان للسكان المحليين، فقد كانوا يرونهم طبقة دنيا خلقت من أجل خدمة أغراض الرومان.

5- احتكار الرومان للوظائف العليا لأنفسهم ولا يتركون للسكان سوى الوظائف الصعبة التي لا يستطيع أبناء روما المدللون القيام بها.

6- شعور البربر بضرورة تحرير بلادهم من أطماع الرومان التوسعية في بلاد المغرب القديم.

مراحلها:

تم تقسيم ثورة تاكفاريناس إلى مجموعة من المراحل وفق القيادات العسكرية الرومانية التي تعددت و تعاقبت الواحدة تلوى الاخرى في بلاد المغرب القديم، و يمكن إيجازها في مايلي:

ا) المرحلة الأولى(17-18م): حملة البر وقنصل فريوس كاميلوس Furius Camillus

قبل قيام الثورة عزم تاكفاريناس على جمع شباب كثيرين من خيرة أبناء القبائل الأوراسية،الناقمين على الملك يوبا الثاني[10] وحلفائه الرومان[11]، فدربهم على أساليب القتال، خاصة وإنه تشبع وأخذ الخبرة الكافية في

---

(9)– الليمس: هو عبارة عن حزام عسكري واقي ومركب، يتكون من ثلاثة عناصر رئيسية هي:

أ – الخندق تتخلله أسوار وأبراج وحصون ومراكز محصنة مبنية بالحجارة أو بالطوب بحسب الجهات.

ب– أجهزة محصنة منفردة تقع أمام الخندق ووراءه.

ج– شبكة من الطرقات مسطرة بالاعتماد على الضرورات الاستراتيجية.

ومعنى ذلك أن الليمس ليس مجرد خط دفاعي فقط، إنما هو جهاز معقد يحكم وضعه ثم يشرع في عملية الاستعمار، ولقد نشأ الليمس عبر مرحلتين الأولى خلال القرن1 ق.م يمتد من خليج السيرت الليبي شرقا إلى مدينة مليلية المغربية غربا والثاني خلال القرن 2 ق.م يمتد إلى وليلي غربا. للمزيد أنظر شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي/البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر 1969، ص184.

(10)– يوبا الثاني: ينتمي يوبا الثاني إلى السلالة النوميدية، غير أنه يختلف عن أسلافه من الملوك، وهو يوبا الأول، ولد عام 46 ق.م، توفي والده عام 50 ق.م، وكان عمره 4 سنوات، أخذه يوليوس قيصر ونقله إلى روما حيث تبناه ورباه تربية رومانية، ولما توفي يوليوس قيصر عام 43 ق.م خلفه أغسطس قيصر واعتنى به ثم سلمه لأخته أكطافية، زوجة أنطونيوس، فنشأ يوبا الثاني رومانيا وأجلسه الرومان على عرش آباءه وزوجوه كليوبترا سليني ابنة الملكة المصرية كليوباترة حتى بقي مخلصا للرومان، اتخذ مدينة شرشال (يول) عاصمة له، اهتم كثيرا بالأدب والمسرح والعمران، اتسعت مملكته إلى أن توفي عام 23م، للمزيد أنظر: محمد الصغير غانم: المملكة النوميدية والحضارة البونية، ط1، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 1998، ص138 وما بعدها.

قيادة الحروب،كونه كان ضمن الجيش الروماني، فراح يعرف ما تعلمه من تقنيات وفنون حربية لمن إنحاز إليه من النوميد، من اجل تحرير بلادهم من الرومان أنفسهم ومن البربر الموالين لهم، فكان تاكفاريناس شديد الحماس من أجل تحقيق أهدافه؛ ولقد ساعدته في ذلك طبيعة العنصر البربري في تحمل المشاق وسرعة الحركة، وهو ما سيكفل له تحقيق الانتصارات المنشودة[12] ، فوقفت إلى جانبهم قبائل الجيتول[13] الذين كانوا ناقمين على الرومان فتولدت لديهم رغبة ملحة في طرد الغزاة وتطهير بلاد المغرب القديم، ولما ثار تاكفاريناس عام 17م فرحوا فرحا كبيرا واستبشروا خيرا بمقاومته، وعندما قصدهم آزروه وأيدوه، استطاع آن يجمع منهم جيشا دربه أحسن تدريب وعلمه الأساليب الرومانية في القتال[14].

ولما كان على رأس الولاية الرومانية في إفريقية كاميلوس[15] فجهز جيشه وسار ليخمد المقاومة قبل أن تتقوى وتنتشر نيرانها، ولما رأى تاكفاريناس جيوش الرومان أبى إلا أن يخوض معهم معركة كبرى وسانده في ذلك قبائل المزالمة، وانظم إليهم الموريون جيرانهم الذين كان يقودهم قائد بربري موريطاني وهو مواليا لتاكفاريناس وثورته ويدعى مازيبا Masippa هذا الأخير تولى احدى القيادات العسكرية بجانب تاكفاريناس[16].

لقد تمكن الثوار من إدخال أسلوبا جديدا لمخطط القتال، وهي طريقة عصرية مماثلة للتي يستخدمها الجيش الروماني، وهذا لم يمنعهم من الاحتفاظ بطريقتهم التقليدية التي اعتادوا عليها[17]، وهو أسلوب الكر والفر (حرب العصابات) الذي يجيده النوميد يون، ويرهق الرومان المتعودون على المعارك المنظمة[18].

اقتسم القائدان الجيش، فتولى تاكفاريناس بنفسه قيادة الرجال المقاتلين على الطريقة الرومانية بإعتباره جنديا مطلعا على الأساليب الرومانية أيام تواجده في صفوف الجيش الروماني، وترك لزميله مازيبا الرجال المقاتلين على الطريقة المعتادة عند النوميد والمور، بما في ذلك أنواع السلاح والعتاد الحربي[19] غير أن قادة المقاومة لم يأخذوا

---

(11)– أحمد السليماني: المرجع السابق، ص188.

(12)– رشيد الناضوري: المغرب الكبير، العصور القديمة أسسها التاريخية الحضارية والسياسة، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص 323.

(13)– الجيتول: هي قبائل ضاربة فيما بين المحيط الأطلسي غربا حتى فزان شرقا، تتميز بالتنقل والترحال بين إقليم التل والصحراء المتميز الاقتصاد الرعوي وهي متعددة الأصول، جمعها إطار جغرافي متجانس نسبيا، للمزيد أنظر: محمد البشير شنيتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص164 ومابعدها.

(14)– محمد علي دبوز: المرجع السابق، ص445.

(15)– مبارك بن محمد الميلي: المرجع السابق، ص 228.

(16)– رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص 323.

(17)– محمد البشير شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ص54.

(18)– محمد الهادي حارش: "ثورة تاكفاريناس (17–24م)"، مجلة الدراسات التاريخية، العدد9، معهد التاريخ، الجزائر، 1995، ص130.

(19)– محمد البشير سنيتي: المرجع السابق، ص54.

الوقت الكافي للاستعداد الجيد، مما صعب عليهم السيطرة على تقنيات القتال الرومانية وتمرين الرجال عليها بقدر يضمن لهم تحكم أفضل يضمنون به فرض الثبات في ساحة المعركة، وكسب النصر على عدو يسود صفوفه النظام والانضباط والطاعة لقادته وبهذا يكون تاكفاريناس ورجاله قد دخلوا في معركة اختبارية خاضوها ضد جيش روماني بقيادة فريوس كاميليوس Furius camillus فتقهقروا فيها وانسحبوا نحو الداخل عام 17م، وكان ذلك بضواحي وادي المثول.[20]

لقد نجح الرومان في بداية الأمر وانتصروا على قوات تاكفاريناس، ولكن لم تكن مهمة الحرب مع البربر لتنتهي بتلك السهولة أو بمجرد معركة واحدة، ذلك أنهم سرعان ما كانوا يلجؤون إلى الهضاب ويعيدون تاسيس وتنظيم قواتهم مرة أخرى بسرعة البرق، ويبدؤون في مهاجمة المراكز الرومانية والبربرية المعادية لهم، بصورة خاطفة تثير الاضطراب لدى أعدائهم.[21]

بعد التراجع والانهزام الذي ألحقته القوات الرومانية بالجيش النوميدي، ظن كاميلوس بأنه أحرز نصرا عظيما، يستحق عليه شرف التتويج، فعاد إلى روما ولم يعبأ بالجناح الموري، الذي كان يقوده مازيبا في مناطق أخرى من الجنوب الغربي النوميدي في المدن والقرى، مثيرا للرعب والفزع في كل مكان يحل به، في الوقت الذي تقدم فيه تاكفريناس رفقة قواته نحو الشمال، ليسيطر على الأقاليم الزراعية التي كانت بأيدي المستوطنين الرومان[22] حيث هاجم بجنده الرومان قرب وادي باجيدا شمال الأوراس، أين كان الرومان معسكرين بقوة كبيرة هناك، ففاجأهم تاكفاريناس بجنوده، فهزمهم شر هزيمة، واحتل مراكزهم وغنم منها غنائم كبيرة، ثم أسرع إلى مدينة تالة في غرب إفريقيا فحاصرها واحتلها [23] و نجح في تشتيت سرية رومانية والقضاء عليها بعد أن اعترض سبيلها ديكوريوس Decoruis فسقط في ساحة القتال ولم ينجو من رجاله سوى من لاذ بالفرار[24].

وبهذا النصر العظيم يكون تاكفاريناس قد تمكن من رد الاعتبار لمقاومة النوميدية المورية، حيث كشفت عن قدرة زعمائها في قيادة المعارك، وكسب نتائجها المثمرة بمعنى آخر أنه تحول نصر البر وقنصل كاميلوس إلى هزيمة نكراء يشهد لها التاريخ.

II – المرحلة الثانية (18–21م): تاكفاريناس يواجه الرومان تحت قيادة البر وقنصل ل.أمبرونيوس L. Ampronius

(20)– محمد الهادي حارش: المرجع السابق، ص 130.

(21)– رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص 321.

(22)– محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص 55.

(23)– مبارك الميلي: المرجع السابق، ص 228.

(24)_ محمد البشير شنيتي: المرجع السابق ، ص 55.

أمام الانتصار الباهر الذي حققه تاكفاريناس وحلقائه على الجيش الروماني، سارع الإمبراطور الروماني تيبر يوس كلود يوس نيرون الذي حكم في الفترة الممتدة من 14 إلى 37م [25] ،إلى تعيين بروقنصل جديد على المقاطعة الإفريقية، وكان يهدف من وراء ذلك إلى محو عار الهزيمة والنهوض بأمور الحرب من جديد، وكان البر وقنصل الجديد يدعى أمبرونيوس L.ampronius [26] تزود هذا الأخير بتعليمات صارمة من شأنها أن تضع حدا لنشاط المقاومة، وتمحو آثار الهزيمة التي أحرزها ديكوريوس في أوساط الجند الروماني بإفريقيا، وأول ما قام به هو معاقبة الجنود الذين فروا من المعركة عقابا قاسيا، هدفه من ذلك هو إثارة الرعب والفرع في صفوف الجنود الآخرين حتى لا تكون هناك خيانة في صفوفهم، ولا يفكر أحدهم في الهروب من ميدان المعركة مهما كانت النتيجة، وهي طريقة شبيهة بطريقة قيصر أوكتافيوس وأغسطس، الذي حكم في الفترة الممتدة من 31 ق م إلى 14 م[27] في معاملة الجنود.

لقد تمكن المور و النوميديين من فرض أنفسهم في ساحة القتال خاصة بعدما سيطروا على الوضع، وحاصروا المدن والمواقع العسكرية في شمال وشرق الأوراس، التي أقامها الرومان بعد احتلاهم لأراضي المملكة النوميدية، في هذا الوقت أمر البر وقنصل أمبرونيوس بالاستعداد لاستئناف القتال، كما إن الثوار النوميديين اضطروا إلى تغير أسلوب القتال، فتحولوا من حرب المواجهة إلى حرب العصابات بعد فشلهم في التصدي لقتال كتيبة رومانية مكونة من الجنود القدماء المتمردين [28] فلجأ تكفاريناس إلى الصحراء واعتصم بها وصار يغير على المراكز الرومانية كلما أتيحت له الفرصة، فيضربهم الضربات القاسية.[29]

آزر البربر تاكفاريناس و أيدوه في مقاومته، التي استبسل فيها وواصل القتال بالجنوب النوميدي بينما كان المور بقيادة مازيبا يسطرون على الجنوب الموريتاني، مكبدين جيش يوبا الثاني وفصائل الرومان خسائر كبيرة، وكان لحرب العصابات اثر سيء على معنويات الرومان سواء المدنيون منهم أو الجنود مما تسبب في تعطيل العمل الفلاحي لانعدام الأمن وسيطرة الثوار على الطرق و القرى الفلاحية فكان على قيادة الجيش الروماني ان توزع نشاطها جغرافيا تبعا لمواقع الخطر،فترتب عن ذلك ضعف في فعاليتها العسكرية،مما شجع المقاومة على مضاعفة نشاطها العسكري و تطوير طموحاتها السياسية[30] إزاء هذا الوضع كان الرومان مرتاعين لهذه الثورة، يحسبون لها ألف حساب، وكان تاكفاريناس يشعر بالقوة في ظل تزايد عدد أنصاره في المغرب، وهو ما جعله يراسل إمبراطور الرومان تيبريوس كلود يوس يطالبه بان يرجع الرومان إلى الولاية الرومانية والاكتفاء بها، وأن ينسحبوا عن بقية إفريقيا

(25)– رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص 179.

(26)– شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص 179.

(27)– رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص 319.

(28)– محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص 56.

(29)– محمد علي دبوز: المرجع السابق، ص 346.

(30)– محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص 57.

ونوميديا حتى يرجع إليها ملك أجدادهم [31] عن طيب خاطر، كما هدده إن امتنع عن ذلك فسيشن حربا لا هوادة فيها فرفض الإمبراطور ذلك المطلب واعتبر هذا الإنذار وقاحة و جرأة نادرة [32]. الأمر الذي جعل الإمبراطور يرسل إلى الثوار وعدا بالعفو إن هم تخلو عن تاكفاريناس ووضعوا السلاح و جعل جائزة كبيرة لمن يغتال تاكفاريناس، غير أن الثوار كانوا مخلصين للوطن ولزعيمهم وقائدهم النوميدي، فازدادوا حماسة للثورة وحبا لقائدهم[33] .

إن تأزم الأوضاع و تفاقمها نحو الأسوأ، جعلت مجلس الشيوخ يعمل جاهدا من أجل إختيار قائد آخر، يكون أكثر كفاءة وقدرة على إخضاع الثورة وإنهاء وجودها والتي طال أمدها ونالت من هيبة روما وهزت سمعة جيشها العتيد، خاصة وان تهديدات تاكفاريناس لدليل قاطع وواضح على قوة المقاومة وتضعضع الجيش الروماني في إفريقيا.

III– المرحلة الثالثة (21–23م): تاكفاريناس يواجه الرومان بقيادة بليزوس

وقع اختيار الإمبراطور عام 21م على بروقنصل جديد يدعى يونيوس بليزوس Younius Blaesus، تزود هو الآخر بتعليمات عسكرية وسياسية من شأنها أن تخمد لهيب الثورة، و من ضرورة أن يبدو القنصل الجديد في مظهر القوة والبطش إزاء الثوار، واللين والملاطفة أمام القبائل الحيادية أو الجانحة إلى السلم، إضافة إلى قطع الوعود لها بالعفو و المكافأة والصداقة إن وضعت سلاحها أو قدمت عونا مفيدا للجيش الروماني، أو سهلت مهمتها العسكرية في مواطنها[34] غير أن الخوف الشديد الذي يتميز به بليزوس من تاكفاريناس، جعله لا يقدر على النزول بجيشه إلا في الأماكن الحصينة خوفا من هجماته المفاجئة عليه، ودام تاكفاريناس فترة زمنية طويلة وهو ينازل بقواته بليزوس حتى تكاثر عليه الرومان فالتجأ الى الصحراء، ليستعد و تنسجم قواه ويظفر بفرصته ليجدد كرته على الرومان[35]، وكون بليزوس يتميز بالنباهة والخبرة إذا ما قورن مع سابقيه الأمر الذي جعله يحيك خطة جديدة في طريقة القتال و توزيع جيشه وفقا للضرورات الإفريقية[36] حيث جهز فرقا عسكرية سريعة التنقل وخفيفة الحركة من أجل مناوشة عدوه، ووزعها على ثلاثة أقسام جعل على رأس كل قسم قائد، بحيث كان على رأس القسم الأول كورنيليوس سيكبيو Corneluis Scipio، مهمته السيطرة على أقليم طرابلس والمناطق المجاورة لبلاد الغرامنت والأنصار التقليديين لثوار الشمال، وكان مركز قيادة هذا القسم لبدة، أما القسم الثاني مهمته

(31)– محمد علي دبوز: المرجع السابق، ص 346.
(32)– شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص 179.
(33)– محمد علي دبور: المرجع السابق، ص 346.
(34)– محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص 58.
(35)– محمد علي دبوز: المرجع السابق، ص 346.
(36)– شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص 180.

مراقبة منطقة الوسط النوميدي إنطلاقا من مدينة سيرتا Cirta [37] عاصمة المقاطعة، أسندت قيادته إلى إبنه–، أما القسم الثالث أشرف بنفسه على قيادته واتخذ من البروقنصلية(تونس) منطقة لعملياته ثم أمر بإقامة التحصينات و تشديد المراقبة لرصد تحركات الثوار ومباغتتهم سيرا على طريقتهم في القتال بدلا من استجماع الجيش في المعسكرات، كما أنشأ بليزوس حصونا وقلاعا لفرق الجيش وأمرها بالمكوث في النقاط الملائمة للمعارك، ومتابعة العدو كلما أمكن ذلك، وهو ما ساعد العدو من تحقيق عدة انتصارات مما جعل تاكفاريناس يتراجع نحو الصحراء باتجاه حلفائه الغرامنت قصد إجماع قواته والإعداد من جديد[38].

أثناء هذه الحروب كان يوبا الثاني هو الوالي على غرب نوميديا وعلى موريتانيا، يساعد ويؤيد الرومان في إخضاع الثورة وقمعها بكل ما يستطيع من إمكانيات مادية ومعنوية، غير أنه توفي عام 23م دون أن يصل إلى تحقيق مبتغاه، والمتمثل في إيقاف الموجة البربرية التحررية، فتولى مكانه ابنه بطليموس[39] فاقتصر طيلة أيام ملكه على التباهي ببذخه موكلا السلطة إلى المعتقين من عبيده الأمر الذي دفع بعدد كبير من الموريين إلى مناصرة تاكفاريناس، الذي لم تقدر عليه كتائب روما حينذاك[40] الأمر الذي جعل تاكفاريناس يتحايل الفرص، من أجل محاصرة بعض المراكز الرومانية في الشمال، فكان له ذلك حيث شدد عليها الخناق[41] و دعمه في ذلك الموريون الذين جمعوا أنصارا جددا من قبائل الغرامنت، فوقفوا إلى جانبه بالمجهود الحربي إذ زودوه بالرجال والعتاد و الأموال.

وما شجع النوميديين على الانضمام إلى صفوف المقاتلين، أن فرقا رومانية غادرت إفريقيا باتجاه شبه الجزيرة الايبيرية، فشاع في البلاد أن الرومان بدؤا ينسحبون وأن ساعة التحرر من احتلالهم قد قربت[42].

V– المرحلة الرابعة (24م): تاكفاريناس يواجه الرومان بقيادة دولابيلا Dolabella

لما اتسع نطاق الثورة وامتد لهيبها من موريتانيا (أعمدة هرقل) غربا إلى سيرتا الكبرى شرقا أصبح الوضع حرجا يسوده التوتر والخوف أكثر من أي وقت مضى، وهو ما دفع بالإمبراطور إلى تعيين بروقنصلا جديدا وقائدا

---

(37)– سيرتا Cirta: معناها القلعة أو المدينة المحصنة، وهو ينطبق تماما على مكانها الحصين مدينة قسنطينة القديمة والحالية، للمزيد أنظر: محمد الصغير غانم: المرجع السابق، ص 152.

(38)– محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص 58. 59.

(39)– بطليموس: هو ابن الملك يوبا الثاني، ورث لقب الملك عن أبيه عام 23م أقامه الرومان على عرش الولاية، عرف بحياة الرفاهية والميل إلى اللهو والخمول والضعف، حيث ترك شؤون الدولة لحاشيته وعبيده المحررين وهو ما سهل عملية إزاحته والقضاء عليه ومن ثمة الاستلاء على ولايته، حيث قتله الإمبراطور كاليقولا عام 40م، غيرة منه أثناء حفل ببلاد الغال، إثر ذلك استولى الرومان على الموريتانيين وجعلوها ولايتين رومانيتين، موريتانيا القيصرية وهي الشرقية وطنجة غربية، للمزيد أنظر: مبارك بن محمد الميلي: المرجع السابق، ص227.

(40)– شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص 173. 174.

(41)– محمد علي دبوز: المرجع السابق، ص 346.

(42) – محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص 59.

عاما للجيوش الرومانية في شمال إفريقيا بعد بليزوس سنة 24م، يدعى هذا الأخير دولابيلا حيث قام بإقامة مراكز عسكرية كثيرة على حدود الصحراء لتمنع تاكفاريناس من الالتجاء إليها[43]، ، في هذه الأثناء حاصر تاكفاريناس مستوطنة عسكرية لقدماء الجنود الرومان تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة صلداي (بجاية) تبوسوتكو Tubusuctu كانت قد تأسست في عهد أوكتافيوس وهي تتميز بموقع عسكري واقتصادي ممتاز، أطلق عليها اسم الفرقة السابعة الأوغسطية[44]، فقد سارع إليها دولابيلا رفقة فرقة هامة من قواته، من أجل فك الحصار عليها، الأمر الذي أجبر تاكفاريناس ورجاله على التخلي عنها فتوجهوا غربا حيث عسكروا بموقع أوزيا Ausia [45]، وفيه كان تاكفاريناس يعتقد هو ورجاله بأنهم في مأمن بعيدين عن كل خطر، غير أن دولابيلا كان يترصد تحركاته ويتابعه، ثم باغته ليلا في الوقت الذي لم يكن فيه الثوار على استعداد للمقاومة، وقد تمكن جيش دولابيلا من تطويق المكان، ولما أدرك تاكفارناس بأنه مقتول أو مأسورا، فاختار الموتة الكريمة الشريفة، لذلك خرج من ملجئه ورمى بنفسه مواجها العدو ومقاوما لضرباته بضراوة وشجاعة نادرة، إلى أن سقط شهيدا في ساحة الشرف رفقة جمع غفير من رجاله سنة 24م، لتخمد بذلك ثورته الشهيرة التي دامت حوالي 8 سنوات، كلها صفحات لامعة من مقاومة النوميد للاحتلال الروماني.

وحسب ما جاء في كتاب على دبوز تاريخ المغرب الكبير فإن بعض المؤرخين يرون بأن تاكفاريناس سار إلى موريتانيا ليجعلها ميدان حربه، لأن حاشية بطليموس قد طلبت منه ذلك وواعدته بالعون والتأييد، وهي نية لا تتسم بالروح الوطنية ولا تتحمس للثورة، وإن كانت الحاشية قد استدعته فعلا فما هي إلا مكيدة مدبرة من أجل إخراجه من الصحراء مما يسهل من مهمة محاصرته في الشمال والقبض عليه[46].

ولما كان بطليموس يقف إلى جانب الرومان وقفة الرجل المخلص المطيع في حروبهم من أجل إبادة الثورة التي أرعبتهم لفترة طويلة من الزمن، امتدت إلى 8 سنوات، فبعد نجاح مساعداته التي توجت بمقتل زعيم الثورة، كافأه مجلس الشيوخ بهدية تمثلت في كرسي من العاج و حلة مزركشة، وكيل من الذهب وهي من هدايا روما التقليدية التي دأبت على منحها لأتباعها على تخوم المقاطعات إشعارا بضرورة بقائهم حلفاء أوفياء لها [47]، فلقد أتحفوه بها ليزداد إخلاصا وركوعا لهم وتنكرا للمغرب في الوقت الذي تشتت و تفككت مقاومة المغاربة بعد مقتل زعيمهم النوميدي تاكفاريناس، الأمر الذي ترك فراغا وأثرا سيئا في صفوف الثوار النوميديين غير أن ذلك لن يقف حاجزا أمام موقفهم تجاه الرومان الغزاة، بل سيزيدهم عزما وإصرار على مواصلة درب الكفاح التحرري، من أجل

---

(43)– محمد علي دبوز: المرجع السابق، ص 347.

(44)– محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص 59.

(45)– أوزيا Ausia: نسبة إلى قصر قديم روماني، كان قد هدمه ثوار تاكفاريناس أثناء ثورتهم يوجد بمنطقة سور الغزلان حاليا.

(46)– محمد علي دبوز: المرجع السابق، ص 477.

(47)– محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص 60.

تطهير أرض بلاد المغرب، وهو ما تجسد بالفعل بدليل قيام ثورات أخرى تحت قيادة رجال تشبعوا بالروح الوطنية وتحمسوا لتحرير الوطن.

نتائج الثورة:

أفرزت الثورة مجموعة من النتائج يمكن إيجازها فيما يلي:

1 – نهاية الثورة وتكبد الطرفين خسائر مادية وبشرية فادحة.

2 – مقتل الزعيم النوميدي تاكفاريناس عام 24م الذي كان له بالغ الأثر في تشتيت صفوف المقاومة.

3 – اتساع رقعة الاحتلال الروماني حيث وقع التوسع في عملية تقسيم الأراضي الجديدة فأصبح لها خطوط رئيسية تتركب من خط يمتد عرضا من الشمال الغربي من مكان يقع بين سكيكدة وعنابة لينتهي في الجنوب الشرقي قرب قابس ومن خط ينزل طولا من الوطن القبلي ويكون مع الخط الأول زاوية قائمة في حيدرة على بعد 32 كلم من الشمال الشرقي من تبسة[48].

4 – التعديلات التي اتخذتها الإدارة الرومانية، حيث أحدثت تغيرا في تخطيط حدود المملكة النوميدية وجعلت الناحية التي بين دلس وواد الرمل شبه وطن مستقل تحت اسم موريطانية السطايفية وقاعدته مدينة ستفيس.

5 – استفادة البربر من التقنيات العسكرية المعاصرة إثر احتكاكهم بتاكفاريناس، الذي اكتسب الخبرة العسكرية الرومانية أيام تجنيده في الجيش الروماني.

6 – خضوع البربر خضوعا سطحيا لسلطة روما[49].

7 – نجاح خطة القادة الرومان في التخلص من زعيم الثورة تاكفاريناس وإبادة ثورته التي أرعبت العدو الرومان.

في ختام هذه الدراسة توصلت إلى مجموعة من الاستنتاجات يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

1 – تعد ثورة تاكفاريناس من أبرز الثورات الجزائرية التي هزت الكيان الروماني هزا عنيفا، وجعلتهم يحسبون لها ألف حساب.

2 – ثورة تاكفاريناس صورة واضحة وتعبير راسخ عن أولئك النوميد الأحرار الذين أبو إلا أن يساهموا بمجهوداتهم الجبارة في عملية تحرير بلادهم من الرومان ومن النوميد الموالين لهم.

3 – دهاء وشجاعة تاكفاريناس جعل الدولة الرومانية تأخذ احتياطاتها وتلجأ إلى خطط أكثر صرامة من أجل إبادة الثورة وإنهاء وجودها، ولعل أكبر دليل على قوة الثورة هو تعدد القيادات الحربية الرومانية وتعاقبها الواحدة تلو الأخرى.

---

(48)– شارل أندري جوليان: المرجع السابق ، ص 180. 181.

(49)– أحمد توفيق المدني: قرطاجنة في اربعة عصور من عصر الحجارة إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص92.

4 – نجحت الثورة في بدايتها لكنها لم تصل إلى مبتغاها، بسبب عناصر الخيانة المدسوسة في بعض صفوف النوميد نتيجة تحريض الرومان لهم ومساومتهم بشتى الطرق.

5 – إن ثورة النوميد الثائرين لم تقتصر فقط على الذين استوطنوا في الأودية والمدن والقرى ودخلوا في نطاق المدينة بعد اتصالهم بالفينيقيين والقرطاجيين، بل أيضا بربر المناطق الجبلية والصحراوية، وكانوا لا يزالون على نزعتهم القبلية فكانت مقاومتهم للرومان شديدة.

6 – إن إرسال تاكفاريناس لوفد إلى الإمبراطور تيبريوس يهدده باستمرار الثورة لدليل قاطع عن انتصاراته وقوة المقاومة وقدرتها علو مواصلة الكفاح ضد العدو.

7 – نجاح الثورة في المرحلة الأولى مكن من رد الاعتبار للمقاومة النوميدية المورية، التي كشفت عن قدرة زعمائها في قيادة المعارك.

8 – شمولية الثورة وتوسيع نطاقها الجغرافي، الدليل على نجاحها واستبسال زعمائها في مواجهة الرومان ومقاومتهم رغم الظروف الصعبة التي لاحقت الثوار.

9 – القائد النوميدي تاكفاريناس لا يقل طموحا وقوة وشجاعة عن سابقيه أمثال يوغرطة، حنبعل، فرغم هزيمته وقتله، ونهاية ثورته، إلا أننا نحكم بنجاح الثورة أكثر من فشلها.

10 – لم تكن ثورة تاكفاريناس الأولى ولا الأخيرة بل كانت ضمن سلسلة المقاومات التحررية في بلاد المغرب القديم، ولعل من بين الثورات التي واصلت مسيرة النضال بعد ثورة تاكفاريناس نجد ثورة الشباب الريفيين (الدوارين)، ثورة فرموس وأخيه جيلدون الذين حملوا شعار التحرر ورد الاعتبار لبلاد المغرب القديم.

مقاومة الأوراس للاحتلال البيزنطي

أ.حفيظة لعياضي. أستاذة مساعدة "أ" جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

ظلت بلاد المغرب القديم عامة تواجه الاحتلال الأجنبي خلال عدة قرون من العصر القديم، الاحتلال الروماني، الوندالي فالبيزنطي. وتمثل منطقة الأوراس جزء جغرافي وسياسي مهم من هذه البلاد أثبتت وجودها في فترة استقلال بلاد المغرب القديم مكونة نواة الممالك النوميدية، وقاومت الاحتلال الروماني طيلة مدة وجوده سياسيا واجتماعيا، مثلما فعلت ذلك مع الوندال خلال القرن الخامس ميلادي. ومع محاولة البيزنطيين دخول بلاد المغرب واسترجاع الممتلكات الرومانية بها سنة 533م، أردنا أن نعالج في هذا الموضوع إشكالية ما كان موقف مور الأوراس من الصراع الوندالي البيزنطي؟ وما رد فعلهم اتجاه السياسة البيزنطية الادارية، العسكرية والاقتصادية والاجتماعية؟ ثم ا انعكاس ثورات الأوراس على المور البيزنطيين؟

ولكن قبل كل هذا علينا أن نفهم أولا ماذا يعني مصطلح المور في الكتابات التاريخية القديمة. فالمور في الأصل كانوا يمثلون أحد شعوب شمال إفريقيا المتواجدة في المنطقة الأطلسية للمغرب الأقصى قبل الاحتلال الروماني، وبالضبط من نهر مولوشا إلى المحيط الأطلسي، مثلما أوردته مصادر تلك الفترة أمثال "تيت ليف" عند حديثه عن الحرب البونية الثانية وجيش القائد القرطاجي "أصدروبال" بأن معظم أفراده كانوا نوميد أو مور[1]. أما بقية بلاد المغرب فقد كان يشغلها النوميد. لكننا نلاحظ أنه بعد ثورة "يوغرطة" (112-103 ق.م) بدأ اسم نوميد يختفي ببطء وامتد مقابل ذلك اسم "المور" تدريجيا نحو الشرق، فهذا الاتساع للمصطلح كان مرتبطا بالتقلبات السياسية لإفريقيا. ذلك أنه مع الاحتلال الروماني لبلاد المغرب نجد بأن الارتباط الطويل لنوميديا بمقاطعة أفريكا الرومانية جعل اسم نوميديا يختفي ويصبح مقتصرا على قبيلة صغيرة حول مدينة " Thubursicu Numidarum"[*]. أما تسمية "مور" فقد استمر في تطور مجال استعماله نحو الشرق، وأنه انطلاقا من القرن الثالث ميلادي أستحدم هذا المصطلح لتمييز الأشخاص (les gentes) الذين لا تحكمهم الادارة الرومانية، ثم لاحقا عني به كل الأفارقة غير المترومنين من المحيط الأطلسي إلى خليج السرت[2]. وهو المعنى الذي انتهى اليه المصطلح الموري خلال القرن الرابع فالخامس والسادس ميلادي، أي جميع العاصر غير المترومنة سواء انتمت أم لا إلى القبائل المستقرة داخل التراب الخاضع للسلطات السياسية الأجنبية[3]، أي الذين كانوا خارج السيادة الرومانية

---

(1) Tite Live, Histoire romaine, XXII.

(*) لقد أحتفظ بهذا السم خاصة لتمييز هذه المدينة (طبرسقة النوميدية) عن مدينة " Thubursicu Bure " (أنظر: G. Camps, « L'inscription de Béja et le problème des Dù Mauri », Revue Africaine, T. 98 office des publications universitaires, Alger, 1954, p.253.

(2) G. Camps, Ibid.

(3) " ويقابل مصطلح "موري" في ذلك الوقت مصطلح "الروماني"، الذي كان يقصد به من خلال المصادر كل عنصر أثبت انتماءه للحضارة الرومانية. فالفصل بين العناصر المترومنة والموريين كان قائما على اختلاف نمط الحياة لدى كل منهما، فيكون الروماني هو

فالوندالية، ثم البيزنطية. فقد عم مفهوم المور سكان المناطق الفالتة من أيدي حكام المقاطعات في كل من موريطانيا القيصرية ونوميديا منذ القرن الرابع ميلادي. حيث تكرر الاسم لدى "أميان مارسلان"[1] عند حديثه عن ثورة فيرموس وجيلدون ضد الرومان، وورد في النقوش دالا على الأقوام المتمردة على الرومان بما فيهم الأمراء المور والعشائر الحليفة التي انتفضت وناوأت السيادة الرومانية. ثم تردد هذا اللفظ على لسان الأساقفة الكاثوليك المعاصرين للعهد الوندالي، أمثال "فيكتور دي فيتا" عندما تحدث عن سياسة الوندال الدينية بعد الاحتلال[2]، ثم على لسان بروكوب الذي استعمله بصفة دائمة للدلالة على حلفاء الوندال من الأهالي دون تمييز بين أسماء الأقوام العديدة. فالمور بالنسبة لبروكوب هم سكان الأوراس، الحضنة، السهوب والمرتفعات الموريطانية الوسطى والغربية على السواء[3]. ولم يكن يميز بين سكان المقاطعات الافريقية سوى من حيث درجة العلاقة بالسلطة المركزية الممثلة في المدن. فسكان المدن والمزارعون التابعون لهم كان يدعوهم بروكوب بالأفارقة دون تمييز بين أعراقهم وطبقاتهم الاجتماعية ونحلهم الدينية، بينما دعا جميع الأهالي الذين لا يندرجون تحت هذا الوصف بالمور[4]. وقد حذا حذوه الشاعر كوريبوس[5](Corippe). بل إن أولئك المور قد اتخذوا ألقاب سامية مثل أمير أو قائد أو ملك، ففي القرن السادس ميلادي تشكلت على يد تلك القبائل المورية نواة مؤسسات سياسية يرأسها قادة موريون اتخذوا في بعض الأحيان اللقب الملكي، وهذه المؤسسات ليست مؤسسا محدثة ناتجة عن اندحار سلطة الوندال، بل تعود إلى بداية تراجع الامبراطورية الرومانية عن أجزاء هامة من شمال إفريقيا، ومع سقوط الوندال اتسعت حركة استقلال القبائل المورية في مناطق واسعة من نوميديا، بيزاكينا، وموريطانيا القيصرية وغيرها. ويبدو أن كوريبوس حينما أشار إلى استقلال القبائل المورية نعت زعيم الموريين بلقب لاتيني وهو "Princeps" الذي يعني الأول بين أقرانه ويترجم عادة بالأمير. أما بروكوب فقد استعمل مصطلح "أرخون" الاغريقي الذي يقصد به أحد الحكام التسعة في أثينا، ويستعمل أحيانا تفاديا لاستعمال مصطلح "ملك"، أي أن كل من "Princeps" و"أرخون" يستعملان في معان تندرج من القائد الأعلى للحرب إلى الملك، لأن القبائل المورية كانت تحتفظ باستقلالها في تسيير شؤونها الخاصة،

ذلك الشخص المخلص للحياة الحضرية وجميع المظاهر الرومانية التي انتشرت بشمال إفريقيا، وعلى رأسها اللغة اللاتينية والدين المسيحي، أما الموري فهو من بقي مخلصا لتقاليده القبلية ومحافظا على أعرافه المحلية"(أنظر: جميل، حمداوي، المقاومة الأمازيغية عبر التاريخ، منشورات المعارف، الرباط- المملكة المغربية، 2013، ص269-270)

(1) Ammien Marcellin, Histoire de Rome, XXIX, 5.

(2) Victor. Evèque de Vita, Histoire de la persécution des vandales, I, VIII.

(3) Procope, Guerre es Vandales, I, VIII, 3.

(4) محمد البشير، شنيتي، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني. بحث في منظومة التحكم العسكري (الليمس الموريطاني) ومقاومة المور، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 443.

(5) Corippe, Johannide, chant V, T. VII, Revue tunisienne, 1900, Tunis.

وهي لم تكن لتلتف حول زعيم أعلى تفوق سلطته شيخ القبيل إلا في ظروف الحرب، لذلك يظهر الملوك الموريون في النصوص التاريخية كمحاربين وقادة للجيش[1].

فقد دون أحد الملوك المور ويدعى "مازوناس" (Masuna) في إحدى النقائش اللاتينية في "ألتافا" (Altava)[*] يحمل لقب رائع وهو "Rex gentium" و "Romanorum"، أي أنه ملك شعبي المور والرومان في نفس الوقت[2]. حيث تحمل هذه النقيشة تاريخ 508م، أي أن هذا الملك عاصر"تراسموند" (Trassamond) ملك الوندال، إذ كان لمملكته أحواز وقلاع ومدن على رأسها حكام أقاليم نصت على أسمائهم هذه النقيشة.

كما وثق زعيم موري آخر وجوده في منطقة الأوراس، وهو المدعو "مستياس" [**](Masties) وذلك في نص نقيشة تذكارية تم العثور عليها في "أريس"، جاء فيها أنه حمل لقب قائد امبراطور، وأنه كان أثناء حطمه متصفا بحسن السلوك والعدل إزاء رعاياه المور والرومان، وعاصر ملوك وأمراء آخرين حكموا أقاليم مختلفة كبلاد الحضنة، وجنوب شرق الأوراس ، إلى تخوم طرابلس[3] التي كان يسيطر عليها أمير القبائل الرحل "غباوون" (Gabaon) الذي كان ذو تجربة كبيرة في القتال كما ذكر بروكوب[4].

فهذه المعطيات حول ممالك المور نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس ميلادي، المعاصرة لنهاية الحكم الوندالي في بلاد المغرب القديم، تجعلنا نتساءل عن نوعية العلاقة التي ربطت أولئك المور سيما منهم مور منطقة الأوراس بالوندال[5]. حيث أن ما يمكننا استنتاجه من خلال المصادر أمن أوضاع المور كانت متغيرة مع الوندال من حيث المصالح، فقد مرت العلاقة بينهما في بداية الأمر بحالة مسالمة قامت على احترام مصالح الطرفين، إذ لم يعترض المور سبيل الحملة الوندالية المتوجعة إلى مركز السلطة الرومانية في قرطاجة[6] سنة 455م، كما شاركوا في

([1]) جميل، حمداوي: المرجع السابق، ص271.

([*]) ألتافا هي ولاد ميمون الواقعة شرقي تلمسان بالغرب الجزائري.

([2]) G. Camps, Op. Cit, p. 254.

([**]) هذا النقش عثر عليه سنة 1942 في أريس بباتنة، كتب باللغة اللاتينية حيث يقول نص النقيشة: "إلى الاله Manes. إنه أنا Masties، دوق (Dux) لمدة 67 سنة وامبراطور لمدة 40 عام..." (للمزيد أنظر: J. Carcopino, « Encore Masties l'empéreur maure inconnu », Revue Africaine, Tome 100, 1956, p. 340.)

([3]) محمد البشير، شنيتي: الجزائر. قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، دار الهدى، عين مليلة– الجزائر، 2013، ص244.

([4]) Procope, Guerre des vandales, I, VIII, 3.

([5]) " توجه الوندال إلى إفريقيا سنة 429م، كان أول نزولهم بطنجة ثم تتبعوا مسيرة حملتهم باتجاه الشرق، حيث اصطدموا بالرومان على حدود البروقنصلية، ثم أخذوا "هيبون" التي سقط خلال حصارها القديس أوغسطين، ودخلوا قرطاج سنة 439م" (للمزيد أنظر: Claude Bourgeois, « Vandale et vandalisme en Afrique »n Antiquité Africaine, Tome. 16, By Creative Commons, 1980, p. 216.

([6]) محمد البشير، شنيتي: نفسه، ص 255.

الحملات الموالية، وقد أوكلت لهم مهمة الدفاع عن سردينيا بعد احتلالها من طرف الوندال[1]. لكن الظروف تغيرت على ما يذكر بركوب بوفاة "هونوريق" (Honoric) (477-484م) بعد 8 سنوات من الحكم، إذ خرج مور الأوراس عن السلطة الوندالية وصرحوا باستقلالهم، وأنه منذاك لم يستطع الوندال اخضاعهم لأن المنحدرات الحادة والمحززة لجبل الأوراس منعتهم من نقل الحرب اليها[2].

فهذه الثورة كان سببها ما أحدثه الاحتلال الوندالي من تصدع في اقتصاد بلاد المغرب القديم، مما نتج عنه اضطراب في النظام الاجتماعي واستغلال الفلاحين للقلاقل التي حدثت خلال القرن الخامس للميلاد مثلما ذهب اليه جوليان، لإعلان تمردهم –إن صح القول- بعدما قاموا به من استغلال الملاكين الفاحش وتعسف رجال السلطة الذين كانوا يعملون السيف في الدوناتيين والمتمردين على حد سواء. فلم يقف زحف تلك الثورة بالأوراس إلا على حدود قسنطينة[3]. فثورة الأوراس هذه تعد حدثا أساسيا في مملكة الوندال، لا لأنها مست الوندال في قوتهم الأساسية، ولا لأنها سببت لهم هزيمة كبرى، لكن لأنه معها بدأت الممالك المورية تنمو في إفريقيا المستقلة، ومنها مملكة الأوراس التي كل ما نعرفه عنها في عهد الاحتلال الوندالي هو استيلاؤها على تاموقادي وباغاي، الذي يبين لنا نزول سكان الأوراس إلى السهول، وكذا استيلاؤها على المناطق الخصبة والغنية غرب الأوراس والمجاورة لمملكة الحضنة[4].

وإذا كان بروكوب قد اعتقد في هذا الصدد بأن مور الأوراس كانوا شديدي الحذر من الوندال أو أي احتلال أجنبي آخر لدرجة أنهم قاموا بتدمير هذه المدن لكي لا يسمحوا للأجنبي بالاستقرار بها، فإن الأبحاث الأثرية تثبت أن العمارة المدنية خلال القرن الخامس والسادس كانت متراجعة في نوميديا الجنوبية، وأن مدنا مثل تيمقاد، باغاي أو لامبيز قد فقدت أساس ازدهارها السابق، فمن التهور أن نجعل المور الجبليين مسؤولين عن تهدم هذه المدن، لأن الآثار لم تستخرج أبدا أثرا لهذا التحول العمراني، وأن الأسباب الحقيقية لهذا التراجع يعود ربما للتحولات الاقتصادية أو السياسية أواخر الامبراطورية الرومانية والتي ساهمت في انحطاط الحياة العمرانية[5].

([1]) محمد الهادي، حارش: التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الاسلامي، الجزائر، 1992، ص 246.

([2]) Procope, Guerre des vandales, I, VIII, 1. ، فالأوراس في نظر بركوب يقدم مظهرين مختلفين، الأول منهما كونه بمثابة جنة بالنسبة للقاطن به أو لمن يجتازه مسالما، ولكنه ضد العدو الذي يجتاحه يمنح لساكنته مصادر تحصينه وترسانة كاملة من الفخاخ" (أنظر: Michel. Janon, « l'Aurès au VI siècle. Note sur le récit de Procope », Antiquité africaine, T. 15, 1980, p. 346.

([3]) شارل أندري، جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، تريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1969، ص 347.

([4]) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص247.

([5]) Michel. Janon, Op. Cit, p. 346.

والواقع أن بلاد المغرب كلها كانت تشتعل بالثورات المحلية ضد الوندال ولم تقتصر على الأوراس فقط، كزحف القبائل البدوية القادمة من الجنوب الشرقي بقيادة "غباوون" (Gabaon) والتي استعملت الجمل في تنقلاتها وفي القتال، فسميت بالقبائل الجمالة[1]، وكذا ثورة "أنتلاس"[*] الذي كان ملكا على المزاق. فتلك الثورات لم تتوقف بوفاة "هونوريك"، بل تزايدت في عهد خليفته "قوثاموندوس"، وقد تكون غاراتهم وراء اختفاء لوحات ألبرتيني في وقت لاحق (21 أفريل 496م)، وهي الفترة التي كان على الملك أن يدافع فيها أيضا على السكان الذين كانوا يتعرضون للنهب. لكن هذه الغارات كانت من الشدة لدرجة أن القديس "فولجانتيوس" (Fulgence) اضطر لمغادرة المونستير (Monastere)إلى منطقة المدينة القديمة (Thelepte) (قفصة). ويبدو أنه بعد ذلك بقليل لم تفلت من هذه الثورة غير المناطق الساحلية للمزاق. وأمام هذا الخطر المتزايد قرر "هلدريك" إرسال قوات تحت قيادة "هيلديمير" (Hildimir) الذي برهنت هزيمته على أن " أنتلاس" كان سيد الموقف، ولم يعد بإمكان الوندال التصدي لثورات المور التي عمت متلف المناطق وحصرت الوندال في البروقنصلية ومناطق محدودة من المزاق، وهو ما سهل دخول البيزنطيين[2].

فقد وجد البيزنطيون جميع البلاد الواقعة على تخوم المقاطعات من طرابلس إلى الأوراس ونوميديا الجنوبية مستقلة في شكل إمارات قوية كانت تبسط سيطرتها على معظم الأراضي الموالية لها، سواء برضا الوندال أو من غير رضاهم، ولعل الكثير من تلك الامارات كان حليفا لملوك الوندال الذين أحسوا بالضعف فاحتموا بهم من جهة الجنوب ليأمنوا شرهم. ومن بين الملوك المور المشهورين في كتابات ذلك العصر نجد "يبداس" (Ibdas) الذي كان باستطاعته أن يجمع 30 ألف فارس حوله، مثلما ذكر بركوب، كما كان إلأى جانبه ملك الحضنة وجنوبي الأوراس المدعو "أورتياس" (Orthias)، كما كانت موريطانيا كلها تحت قيادة ملك سماه بروكوب "مستيغاس" (Mastigas) باستثناء مدينة قيصرية. أما غرب القيصرية فقد أنشأ الملك "مازونا" (Masuna) منذ أوائل القرن الخامس مملكة واسعة الأرجاء ضمت مدنا شعيرة مثل "تيهرت" و" فرندة" و"ألتافا" (ولاد ميمون) مثلما ذكرنا[3].

والواضح أنه مثلما أورد مصدرنا بروكوب الذي ساير الحملة البيزنطية على بلاد المغرب، أن المور التزموا الحياد في الصراع بي الوندال والبيزنطيين، واعتبر ذلك خبثا ومكرا منهم خلافا للبعض الآخر الذي اعتبره تكتيكا

([1]) محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 256.

([*]) "أنتلاس (Antalas) من أهم ملوك الفركسيس (الفرشيش) التي كانت تتواجد بجبال الظهر التونسية، ابن الزعيم الموري "كوينيفان" (Guenefan)، ظهر أنتلاس في القرن السادس ميلادي، حيث حارب الوندال والبيزنطيين مدة طويلة إلى أن وسع نفوذه في الكثير من المناطق بليبيا وتونس ونوميديا. تقع مملكة أنتلاس في قلب ولاية بيزاكينا (المزاق) بجبال الظهر التونسية، في المثلث الذي يجمع بين تالة، قفصة (Thelepte) (المدينة القديمة)، وتبسة (Théveste). فداخل هذا المثلث نشأت النواة الأولى لمملكة الفركسيس (Frexes)." (للمزيد أنظر: جميل، حمداوي: المرجع السابق، ص 242).

([2]) محمد الهادي، حارش: نفسه، ص 248.

([3]) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج2، ص 411.

عسكريا تعود عليه الأهالي عامة، فقد رأوا في هذا الصراع استنزافا لقوة الخصمين[1]، وهو ما توضح عندما حاول "بيليزار" استمالة أولئك المور وتثبيتهم على مجال نفوذهم، باعثا اليهم صولجان من فضة مذهبة، وإكليل من فضة مزخرف وبرنس أبيض أقفاله من ذهب، ومئزر مزركش وأحذية مطرزة بالذهب، إضافة إلى كمية وافرة من النقود، وهذا بعد ما أرسل مور بيزاكينا (المزاق)، نوميديا وموريطانيا سفراء إلى "بيليزار" (Bélisaire) مثلما أشار بروكوب، ليقدموا اليه دعم أسلحتهم وتأكيد خضوعهم للامبراطور، لكن لا أحد من أولئك الأمراء المور منحه فيالق عسكرية في حملته ضد الوندال، بل التزموا الحياد الصارم وانتظروا نهاية الحرب[2].

فتلك البروتوكولات التقليدية لم تعبر بصدق عما كان يضمره كل طرف إزاء الآخر. ف "بيليزار" كان عليه تنفيذ أوامر الامبراطور بالاستيلاء على المقاطعات الرومانية سابقا، بينما أمراء المور كانوا حريصين على الاحتفاظ بإماراتهم وممتلكات رعاياهم بمعزل عن أسياد إفريقيا الجدد. ومن ثمة كان الصدام أمرا حتميا بين الطرفين، وهو ما سيحدث عندما يتحرك البيزنطيون نحو الداخل[3]. فبمجرد إقلاع "بيليزار" في مراكبه قاصدا القسطنطينية مطمئنا إلى حياد المور، إذا بهم يثورون في المزاق ونوميديا، هذا ما عزاه بركوب إلى الحقد الدفين الذي كان يكنه المور نحو الغاوين وإلى تحول طباعهم وتقلبات مزاجهم، ومهما يكن فإن البيزنطيين قد واجهوا منذئذ حربا مزمنة ضد القبائل المورية[4]، لأن هؤلاء الأخيرين رفضوا الانصياع للأمر الواقع الناجم عن سقوط الوندال وانتصاب البيزنطيين بدلهم في بلاد المغرب، سيما وإدراكهم أن هؤلاء لن يكتفوا بأملاك الوندال، وأنهم عازمون على استعادة السيطرة العسكرية المباشرة على المقاطعات الرومانية السابقة دون الاهتمام لتغير أوضاع هذه البلاد في عهد الاحتلال الوندالي، خاصة وأن أهلها ذاقوا طعم الاستقلال والحرية وعدم التقيد بإرادة الأجانب في تسيير شؤونهم الاقتصادية والدينية[5]، كما أن الوعود التي قطعها البيزنطيون على أنفسهم لم ينفذوها ولم ينل المور عموما من البيزنطيين غير الدمار. فالحروب أثرت على الانتاج الزراعي، إضافة إلى عودة الاضطهاد الديني والضرائب، وهي كلها عوامل تدعو إلى حمل السلاح. والجدير بالذكر أن تفوق الأسلحة البيزنطية والقواع التكتيكية لن تجدي نفعا مع أولئك الثوار المور، لأنه في مواجهة خفة الفرسان المور تبدو الجيوش البيزنطية ثقيلة وبطيئة الحركة، وتعجز خطط المعارك المنظمة التي تعود عليها القادة البيزنطيون أمام أسلوب الكر والفر والكمائن لدى المور[6].

([1]) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص 270.

([2]) Procope, Guerre des vandales, I, XXV, 2.

([3]) محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 260.

([4]) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 365.

([5]) محمد البشير، شنيتي: نفسه، ص 260.

([6]) محمد الهادي، حارش: نفسه، ص 279.

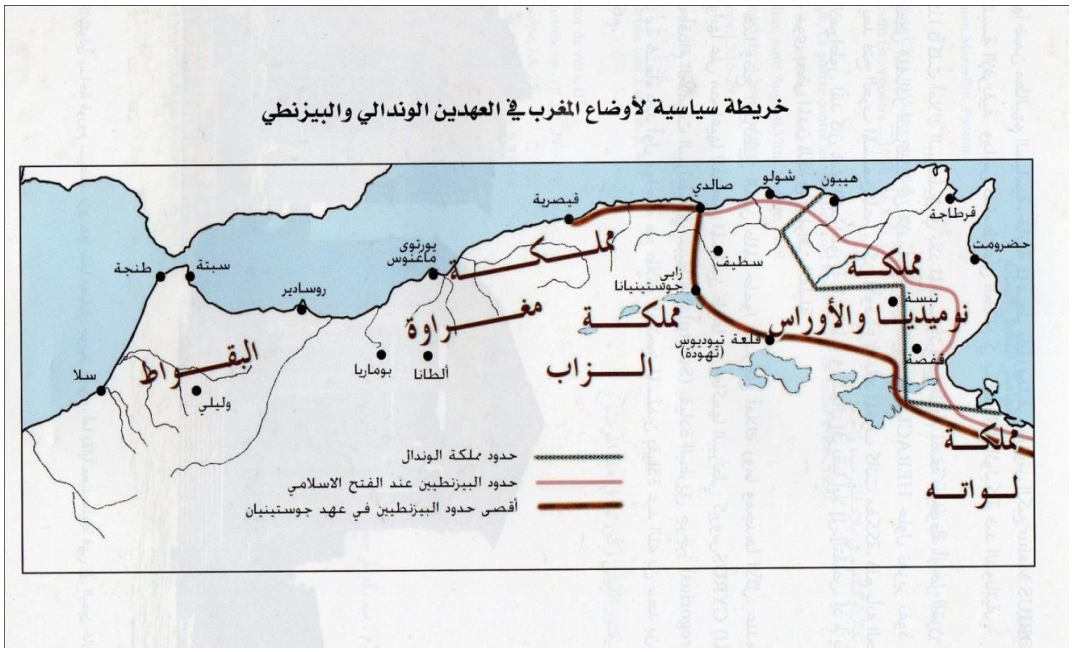

(نقلا عن: محمد البشير، شنيتي، الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 265)

وهذا ما تشهد به حدود السيطرة البيزنطية في بلاد المغرب، رغم اختلاف آراء المؤرخين حول حدود خط الليمس البيزنطي[1]، الذي يراه جوليان غير مخالف تماما لليمس الروماني في طرابلس والمزاق ونوميديا[2]، على خلاف البعض الآخر الذي رأى بأن البيزنطيين لم يتمكنوا من الوصول بحدودهم إلى الحدود الرومانية. والواضح من النصوص والأحداث التاريخية أنهم لم يسترجعوا كل ما كان بأيدي الرومان سابقا[3]. فقد كان الحاكم العسكري يعتمد على التحصينات أكثر من اعتماده على الجند، ولأن الوندال هدموا أو أهملوا البناءات الرومانية، وجب ترميمها وتشييد مباني جديدة، وهو ما قام به "صولومون" (سليمان) الذي وطد وعمم السياسة الدفاعية التي كان يطبقها "يوستينيانوس" في كامل الامبراطورية[4]، وذلك بإحاطة إفريقيا البيزنطية بحزام من القلاع بعد وصوله إلى قرطاجة مباشرة. ورغم أن الحروب لم تمهله في الفترة ما بين 536-539م لاستكمال مشروعه، إلا أنه استأنفه عند استتباب الأمن وسيطرة الجيش البيزنطي على الوضع العسكري داخل المناطق المحتلة عموما، حتى قيل أن هذا القائد

---

(1) Ch. Courtois, « De Rome à l'Islam », Revue africaine, Vol. 86, 1942, p. 39.

(2) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 363.

(3) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص 277.

(4) شارل أندري، جوليان: نفسه، ص362.

بنى أكثر من 150 مدينة إفريقية، أي أعاد تعميرها، وهو ما يشير إلى انعدام الأمن الناتج عن العداء بين البيزنطيين والمور الرافضين للانصياع للوضع الجديد الذي رأوا فيه تكرارا للاحتلال الروماني[1].

ففي مقاطعة نوميديا[*]، وهي المنطقة التي يقع الأوراس داخلها، يعتقد جوليان أن الليمس كان يمر جنوب الأوراس لا بشماله، لكنه كان يميل قليلا إلى الغرب. فالحدود تتجه من "تودة" (Thouda) إلى الشمال الغربي نحو شط الحضنة، ومنه إلى الشمال، ووجود قلعتي "زابي جوستينيانا" (Zabi Justiniana) قرب المسيلة، و "تاملولا" (Thamallula)قرب راس الواد يدعو إلى التفكير في أن الحدود كانت تحاذي تقريبا وادي القصب، ومن المرجح أنها تصل إلى بجاية[2]. لكن الطرف الآخر من المؤرخين يرى خلافا لذلك، مذكرا بدخول "يبداس" الأوراس بعد 7 سنوات فقط من حملة "صولومون" (سليمان)، وكذا اشتراك سكان الحواف الجنوبية للأوراس، وسكان الحواف الجنوبية للشطوط في الثورة سنة 546م، وهو ما لا يشهد على سيطرة بيزنطية فعلية، وأن البيزنطيين على هذا الأساس لم يتمكنوا من مد الليمس، لا في نوميديا، ولا في المزاق، أكثر مما كان عليه الليمس الروماني في القرن الأول للامبراطورية، باستثناء منطقة الحضنة[3].

وهكذا غطت خريطة المنشآت المناطق الحدودية المتاخمة لمرتفعات الأوراس شمالا (قلعة تيمقاد–تبسة–أميدارا(حيدرة)، وجنوبا باديا‌س–تبوديوس (شمالي سيدي عقبة –بسكرة–)، بغرض محاصرة مملكة الأوراس والتصدي للقبائل الرحل. ثم مرتفعات بلزمة والحضنة (قلعة تاملولا– باغاي) من الجهة الشمالية، و"زابي جوستينيانا" من الجنوب، على نقطة حدود استراتيجية تحمي الجنوب النوميدي ومدخل مقاطعة نوميديا السطايفية في آن واحد. فجهود "صولومون" اقتصرت على إقامة تحصينات تمكن الجيش البيزنطي من السيطرة على معابر البدو نحو بلاد التل الزراعي، وذلك بإنشاء مدن محصنة تشرف على الطرق المعتادة بين الحضنة والسهول الشمالية عبر وديان ومرتفعات بلزمة، وجبال الحضنة، منها أنه تم تحصين "طبنة" و "زراريا" و "تاملولا"، وربط بينها بمراكز حراسة تشرف من خلالها الحاميات العسكرية على الطريق الواصل بين الحضنة وسهول سطيف[4]. وقد ذكرت النصوص التاريخية بأن القبائل الضاربة جنوبي الشطوط (ملغيغ والجريد...)، والتي اجتهد البيزنطيون في إبعادها قد عادت من جديد

([1]) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج2، ص 414.

([*]) " أعيد تقسيم المقاطعات الافريقية بعد الاحتلال البيزنطي إلى سبع مقاطعات إدارية هي: 1–زوغيتانا (زغوان) (Zeugitana)، وتضم شمالي الأراضي التونسية على وجه التقريب. 2– بيزاكينا (المزاق) (Bisacena)، وتشمل الجزء الجنوبي من تونس. 3– تريوليتانا (طرابلس) (Tripolitana)، تضم المناطق المحاذية للبحر من بيزاكينا إلى السرت الكبير بليبيا الحالية. 4– نوميديا، وتضم ما بقي من نوميديا الرومانية نظريا. 5– موريطانيا السطايفية. 6– موريطانيا القيصرية. 7– سردينيا (أنظر: محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 260).

([2]) شارل أندري، جوليان: نفسه، ص 363.

([3]) محمد الهادي، حارش: نفسه، ص 279.

([4]) محمد البشير، شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج2، ص 416.

واستقرت في السفوح الجنوبية لمنطقة الأوراس ابتداء من سنة 546م، وهذا ما يؤكد بأن الاحتلال البيزنطي قد كان ضعيفا، وهو ما مكن المور من السيطرة على الوضع والتحكم في المسالك الرابطة بين بلاد التل والصحراء، وبذلك تقلصت السيطرة البيزنطية في الشمال فتخلت عن الأوراس مكتفية بالسفوح الشمالية منه، حيث شدد البيزنطيون تواجدهم بالقلاع والحصون المنتشرة هناك قصد التحكم في الاقليم الزراعي بالسهول العليا القسنطينية[1].

هذه المراقبة الشديدة للبيزنطيين على حدود خط الليمس كان ناتجا عن ثورات المور التي اشتعلت في كل المناطق بمجرد انتهاء الحملة البيزنطية، بما فيها منطقة الأوراس سنة 535-536م، بقيادة "يبداس". لكن قبل ثورة الأوراس نجد بأن "كوتزيناس" (Coutsinas) قد ثار بالمزاق سنة 534م، وإذا كان الشاعر اللاتيني "كوريبوس" (Coripe) قد عبر بصمت عن ثورة هذا القائد الموري، لأنه اعتبره دائما حليفا للإمبراطورية البيزنطية، فإن بروكوب قد أعطى رأيا مخالفا لذلك من خلال ما أورده من أن كوتزيناس كان إلى جانب الثوار في بيزاكينا، كما أصر على مشاركته في انقلابين متعاقبين[2]، فـ "كوتزيناس" تمكن رفقة ثلاثة من زملائه على رأس 50 ألف من المور من إفناء الوحدات البيزنطية التي جاءت لنجدة المنطقة بقيادة "إيقانوس" (Aigan)، و "روفانوس"(Rufin) ، وهوما دفع "صولومون" إلى الاسراع إلى المواق حيق دارت معركة "ماما" (Mamma) الكائنة بين سبيبة والقيروان، والتي فقد فيها المور 10 آلاف مقاتل حسب بروكوب، لكن تحدث هذا المؤرخ عن تلقي صولومون نبأ انتشار المور في المزاق على إثر وصوله إلى قرطاجة يدل على مبالغة مؤرخ الحملة، التي توضحت أكثر حينما تحدث عن المعركة الثانية في ضواحي جبل "برقوان" سنة 535م، والتي فقد فيها المور –حسبه- 50 ألف مقاتل دون أن يفقد البيزنطيون أحد[3].

ويبدو أنه في الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الأحداث بالمزاق، نزل "يبداس" (Iabdas) ملك الأوراس صيف 535م على رأس 30 ألف مقاتل يجوب الهضاب العليا النوميدية حتى وصل حدود التل دون أن تتمكن الحاميات البيزنطية من صده[4]، حيث يذكر بروكوب أنه اجتاح نوميديا وسجن الكثير من الأشخاص[5]، حينها قرر صولومون أواخر سنة 535م غزو الأوراس بعد أم آمن جانب "أورتياس" (Orthaias) ملك الحضنة، و"ماسوناس"[6](Massonas)(*) . هذين الأميرين الموريين حدثنا بركوب عن أسباب تحالفهما مع صولومون ضد

---

(1) نفسه، ص 430.

(2) Yves. Modéron, « Corippe et l'occupation byzantine de l'Afrique : pour une nouvelle lecture de la Johannide », Antiquité africaine, T. 22, 1986, p. 202.

(3) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص 272.

(4) نفسه، ص 273.

(5) Procope, Guerre des vandales, II, XIII, 1.

(6) محمد الهادي، حارش: نفسه، ص 272.

"يبداس". ف ماسوماس كان يتهم "يبداس" بمقتل والده "Méphanias" إثر خيانة، رغم أنه قد تزوج بإحدى أخواته. أما "أورتياس" فكان دافعه هو التحالف السابق بين يبداس وماسوناس ملك مور موريطانيا بهدف طرده رفقة المور التابعين له من المنطقة التي كان يحكمها (مملكة الحضنة)[1]. لكن الحملة فشلت بعد أزيد من أسبوع في مخانق الأوراس، اضطر سليمان (صولومون) بعدها إلى العودة إلى قرطاجة على أمل أن يعاود الكرة في الربيع الموالي (536م). لكن انقلاب القائد العسكري "ستوتزاس" (Stotzas) تسببت في إبعاده وعودته إلى القسطنطينية[2]. وحسب جوليان فإن انقلاب "ستوتزاس" سنة 536م راجع إلى أن سليمان كان فظا غليظا يعامل جنوده معاملة العبيد، مما أدى إلى كره ضباطه وجنده له على حد السواء، وهو ما أدى إلى استبعاد سليمان واستقدام ابن عم الامبراطور "جوستينيان" وهو " جرمانوس". لكن سليمان أستقدم مرة أخرى سنة 539م بعد القضاء على التمرد[3].

وإذا كانت المرحلة الأولى لثورة الأوراس (535-539م) قد انتهت بفشل البيزنطيين بسبب تمرد الجيش البيزنطي والطرق الوعرة في جبال الأوراس، وقلة الماء، وأيضا بسبب استخدام مور الأوراس للتحصين، ومعرفتهم الجيدة بالمنطقة، وكذا استعمال حرب العصابات ونهج سياسة الكر والفر، إضافة إلى استدراج البيزنطيين إلى المناطق الوعرة بغية مراقبتهم وتطويقهم عسكريا[4]، فإن الحملة الثانية التي قادها سليمان سنة 539م ضد الأوراس، وقصد حسب بروكوب الجبال الممتدة جنوبي خنشلة وتيمقاد ولمباز[5]، قد أسفرت في البداية عن انتصار يبداس الذي أحسن التحكم في منابع مياه وادي "أبيقاس"، حيث أغلق جميع مجاري النهر باستثناء المجرى المتجه نحو مدينة باغاي، أي نحو المعسكر البيزنطي الذي غمرته المياه، مما دفع القائد الروماني "قونتاريس" (Guntharis) إلى

(*) أن إفريقية في عهد الامبراطور "هيراكليوس (Héraclius) (توج إمبراطورا في 5 أكتوبر 610م)، الذي أوكل أمرها إلى ابن عمه قد عرفت في عهده فترة من الهدوء، وأن المسيحية والسلطة الامبراطورية انسجمتا وسجلتا بعض التقدم في الجريد والأوراس والزاب، وإن لم تقم الحجة على هذا التقدم فهناك على الأقل دليل على تغلغل المسيحية في موريطانيا بـ "بني جدار" يتمثل في 13 ضريحا تعود إلى القرنين السادس والسابع ميلاديين تقع في الجنوب الغربي من تيارت. فهذه القبور تدل على وجود روابط معنوية على الأقل بين عائلة حاكمة مورية قوية دينها المسيحية، وبين الامبراطورية البيزنطية. وقد افترض الباحثون أن "ماسوناس" (Massonas) الذي ذكره بركوب ولمح إلى علاقاته الطيبة مع سليمان ينتمي إلى هذا البيت، وهو نفسه الأمير الموري الذي نجده في نقائش ألتافا (Altava) سنة 508م تحت اسم "ماسونا"(Masuna) الذي كان يسيطر على كامل مقاطعة وهران وحتى على الأوراس" (أنظر: شارل أندري، جوليان، المرجع السابق، ص 381).

(1) Procope, Guerre des vandales, II, XIII, 2

(2) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص 272.

(3) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 369.

(4) جميل، حمداوي: المرجع السابق، ص 274.

(5) شارل أندري، جوليان: نفس المكان.

الفرار مع الجيش متجها نحو سليمان الذي غادر قرطاجة وعسكر بجيوشه كاملة[1] في أسفل جبل "بوروغل" (Bou Roughal)، ومنه انطلق فهزم يبداس، حيث نهب المحاصيل الزراعية حول تيمقاد ثم تعقب ملك الأوراس ورجاله البالغ عددهم 20 ألف حتى حصن "زربولة"(Zerbula) ، ولكنه لم يتمكن من دخوله إلا بعد فرارهم، ثم نجح بعد عناء شديد في اقتحام تحصينات "تومار" (Toumar) العجيبة المقامة فوق جبل أوراس، وبعدها تحصينات صخرة "جمنة" (Geminianus) المنيعة، وقد تكون في فج واد مسرور، أين أودع يبداس كنوزه والنساء تحت حراسة شيخ[2]. ويبدو أن انتصار البيزنطيين راجع إلى تمكن أحد القادة البيزنطيين والمدعو "كنزو"(Genzo) من تسلق جبل الأوراس والاقتراب من معسكر الأوراسيين وقتل ثلاثة من أتباع يبداس، مما ساعد على اندفاع باقي أفراد الجيش لبيزنطي على هذا الممر. فكانت وسيلة الأوراسيين للخلاص هي الفرار، خاصة بعد اصابة يبداس في ذراعه وفراره كذلك عبر الطريق المؤدية إلى موريطانيا، فتحقق لسليمان بذلك السيطرة على منطقة الأوراس[3]. كما أسفرت حربه عن نجاح باهر دعمه ببناء سلسلة من التحصينات المنيعة في قلب الأوراس، وفي نوميديا وموريطانيا القيصرية، مما جعله يحافظ على السلم طيلة أربع سنوات[4].

ورغم انتهاء الثورة بالأوراس إلا أن بقية مناطق بلاد المغرب ظلت الثورات بها بين الحين والآخر، مثلما حدث بعد انقضاء أربع سنوات من ثورة الأوراس، وهي ثورة قبيلة لواتة سنة 544م، والتي شارك فيها أمير الأوراس يبداس. ذلك أن تعيين "سرجيوس" (Sergius) دوقا على إقليم طرابلس تسبب في ثورة قبيلة لواتة التي هاجمت لبدة. ورغم تمكن القوات البيزنطية من صدها، فإن ثورة إقليم طرابلس دفعت "سرجيوس" إلى الفرار نحو قرطاجة ليستنجد بسليمان الذي خرج لملاقاة المور عند حدود نوميديا–المزاق، ورغم تمكنه في اللقاء الأول من تحقيق انتصار جزئي في ضواحي تبسة، فقد هزم في معركة "كيليوم" (Cillium) التي لقى فيها مصرعه سنة 544م[5].

وبعد مقتل سليمان وتعيين "سرجيوس" خلفا له استغل الأمراء المور فرصة تمرد الجيش البيزنطي بقيادة "ستوتزاس" سنة 544م، فتحالف "أنتلاس" ملك المزاق رفقة قادة مور آخرين مع المتمردين، حيث تمكنوا من السيطرة على المقاطعات البيزنطية كالمزاق وحضرموت (سوسة) حتى وقفوا على أبواب قرطاجة. فكاد جوستينيان أن يفقد إفريقيا جراء هذه الأحداث، مما جعله يوفد اليها قائد جيوش الشرق الامبراطوري المحنك والمتمرس "يوجنا تروقليتا"(J. Troglida) سنة 546م، حيق تمكن هذا الأخير من إخضاع الجنود البيزنطيين المتمردين وقتل قائدهم ستوتزاس، ثم استطاع أن يفك الحصار على أهم المدن، لكنه لم يقو على إزاحة المور إلا بالاستعانة بأمراء

([1]) جميل، حمداوي: نفسه، ص 275.

([2])شارل أندري، جوليان: نفسه، ص 369

([3]) جميل، حمداوي: المرجع السابق، ص 275.

([4]) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 370.

([5]) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص ص. 273، 274.

مور آخرين لم يشاركوا في قتال البيزنطيين من " أنتلاس" بسبب خلافات قديمة حول الزعامة أو الحدود، فبقوا على الحياد، لكن "تروقليتا" استمالهم إلى جانبه مقابل مكتسبات اقليمية، إضافة إلى اعتراف الامبراطور بهم كأسياد على ممالكهم، حيث كان من بينهم قائد ثورة الأوراس يبداس، وكذلك الأمير "كوتزيناس"[1] الذي كان يسيطر على مناطق من نوميديا بالجوار من مقاطعة بيزاكينا. هذا التحالف الذي جعل النصر حليفا للبيزنطيين سنة 548م[2].

وهوما كان وراء الهدوء الذي نعم به البيزنطيون على مدى 14 سنة على الأقل، ليتجدد بعدها إثر مقتل كوتزيناس في قرطاجة سنة 563م، وكذا آخر الثوار المور المدعو "غرمول" (قسمول) سنة 579م بتواطؤ من أمراء مور منافسين له أرادوا الاستفادة من مهادنة البيزنطيين[3]، فإن هؤلاء الأخيرين قد تعذر عليهم التحكم في أوضاع المور عموما، فاكتفوا بمهادنتهم أحيانا ومحاولة التصدي لطموحاتهم نحو مزيد من المكاسب الاقليمية على حساب البيزنطيين أحيانا أخرى. إذ نجد في وصول المور إلى أبواب قرطاجة يعد ثورة 598م ما يدل على هشاشة الوجود البيزنطي وتراجعه. فالاحتلال البيزنطي رغم نجاحه ظاهريا، إلا أنه يخفي مساوئ كثيرة وحروبا شرسة ضد المور، ومنهم مور منطقة الأوراس التي ظل فتيل الثورة بها مشتعلا إلى سقوط البيزنطيين على يد الفاتحين المسلمين.

قائمة البيبليوغرافيا

أولا: المصادر:

1-Ammien Marcellin, Histoire de Rome, XXIX.

2-Corippe, la Johannide, Revue tunisienne, Tunis, 1900.

3-Procope, Guerre des Vandales, I.

4-Tite-Live, Histoire romaine, XXII.

5- Victor, évêque de Vita dans la Bysacène. Histoire de la persécution des vandales, I.

ثانيا: المؤلفات:

6-حارش، محمد الهادي: التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الاسلامي، الجزائر، 1992.

7- حمداوي، جميل: المقاومة الأمازيغية عبر التاريخ، منشورات المعارف، الرباط- المملكة المغربية، 2013.

(1) Yves. Moderon, Op. Cit, p. 202.

(2) محمد البشير، شنيتي: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، ص 264.

(3) محمد الهادي، حارش: نفسه، ص 277.

8– شارل أندري، جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية ، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة،ج1، الدار التونسية للنشر، 1969.

9– شنيتي، محمد البشير: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

10– شنيتي، محمد البشير: الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة، دار الهدى- عين مليلة، الجزائر، 2013.

ثالثا: الدوريات:

1–Ch. Courtois, « De Rome à l'islam », Revue africaine, Vol. 86, Office des publication universitaire, Alger, 1942.

2–Claude. Bourgeois, « Vandale et vandalisme en Afrique », Antiquité Africaine, Tome. 16, by creative commons, 1980.

3– G.Camps, « L'inscription de Béja et le problème des Dù Mauri », Revue africaine, Vol. 98, 1954.

4–J. Carcopino, « Encore Masties l'empéreur maure inconnu », Revue Africaine, Vo. 100, 1956.

5– Michel. Janon, « L'Aurès au VI siècle. Note sur le récit de Procope » , Antiquité africaine, Tome. 15, 1980.

6–Yves. Moderon, « Corippe et l'occupation byzantine de l'Afrique : pour une nouvelle lecture de la Johannide », Antiquité africaine, Tome. 22, 1986.

ANOM11H28 COLONNE HERBILLON 1849 رية للجنرال هيربيون

المبادلات التجارية القرطاجية في العصور القديمة

الأستاذة: مليزي ريمة، أستاذة مساعدة صنف "أ"، جامعة المسيلة.

يعتبر القرطاجيون من أبرع الأمم في التجارة، وكانت لهم شخصية تجارية ممتازة، حببتهم إلى الأمم المجاورة لهم، وفتحت لهم الأسواق العالمية، وقد أشاد بلينوس الكبير بالتجارة القرطاجية، حيث قال: «إذا كان الفضل في تأسيس النظام الملكي في العالم القديم يعود إلى المصريين وإقامة الديمقراطية إلى الأثينيين، فإن الفضل في ابتكار التجارة يعود إلى البونيين».[1]

وتتفق كل المصادر القديمة الإغريقية والرومانية على أن قرطاجة اعتمدت على التجارة أكثر من أي مدينة أخرى، والتي جعلت منها أكبر سوق وأغنى دولة في عالم البحر المتوسط، ودليل هذه الرفاهية هو سك العملة القرطاجية من الذهب وتجنيد الجيوش الضخمة من الجنود المرتزقة[2]، وبالرغم من ذلك فلم تترك الثروة التجارية آثارا تتفق وما اشتهرت به قرطاجة من غنى وجاه، فضلا عن كون هذه الآثار أقل بكثير من آثار المدن الكبرى الإغريقية- والأترورية التي ترجع إلى نفس الفترة.[3]

أولا: المبادلات التجارية:

لقد تنوعت مناطق التبادل التجاري لقرطاجة، ومع ذلك فالنصوص الأدبية القديمة لا تشير إلى ما كانت تستورده قرطاجة وما تصدره، إلا بعض الإشارات النادرة هنا وهناك[4] .

1-الواردات: لقد استطاع علماء الآثار التعرف على بعض واردات قرطاجة من خلال الأثاث الجنائزي الذي عثر عليه في المقابر البونية[5]، ففي البداية كانت قرطاجة تتزود بمنتجات الحوض الشرقي للمتوسط عن طريق صور، حيث كانت هذه الأخيرة تزود قرطاجة بالمصنوعات البرونزية والطينية المجلوبة من جزيرة قبرص، بالإضافة إلى الأصداف من البحر الأحمر والمحيط الهندي، وكذا البخور واللبان والصبور والمر المكاوي من بلاد العرب، والجعلان وقناني العطور والمسوخ والدمى من مصر.[6]

---

(1) Pline l'ancien: **Histoire Naturelle**,(VII, 57, 8,9.), Traduire par Ajasson le Grand sagne, Edition Panckoucke, (Paris, 1829-1833).

(2) ب.هـ. وارمنجتون: "**العصر القرطاجي**"، تاريخ إفريقيا العام، مج2، إشراف جمال مختاري، مطابع كانالي تورنتو، (إيطاليا، 1985)، ص، 462.

(3) محمد الخطيب: **الحضارة الفينيقية**، دار علاء الدين للنشر، ط2، (دمشق، 2007)، ص، 156.

(4) Gsell (St):**Histoire Ancienne de l'Afrique du nord**,(T5),Librairie Hachette(Paris,1920), p,131.

(5) (G.G). LAPEYRE, (A). Pellegrin: **Carthage Punique (814-146 avant J-C)**, Payot, (Paris, 1942), p p, 180,181.

(6) أحمد صفر: **مدنية المغرب العربي في التاريخ**، الدار التونسية للنشر والتوزيع، بوسلامة،(تونس، 1959)، ص، 141.

وابتداءً من القرنين (6 و5 ق.م)، أصبحت قرطاجة تتعامل مع منتجي هذه المصنوعات و تقوم باستيرادها مباشرة [1]، وقد ساعد الموقع الجغرافي لقرطاجة على عملية التبادل التجاري سواء مع داخل إفريقيا أو مع الحوض الشرقي والغربي للبحر المتوسط.[2]

وتسهيلا لدراسة موضوع الواردات القرطاجية إرتأيت أن أقسمها حسب مجال التبادل الجغرافي إلى:

1-1- الواردات القرطاجية في حوض البحر المتوسط:

لقد مارست قرطاجة احتكار التجارة داخل إمبراطوريتها، سواء بإغراق أي سفينة تخرق هذا الاحتكار، أو عن طريق فتح أسواق جديدة[3]، أو بعقد معاهدات تجارية مع المنافسين لها، مثل المدن الأترورية وروما، والهدف من وراء كل هذا، هو ضمان احتكار التجارة[4] في حوض البحر المتوسط بالدرجة الأولى.

وكانت المبادلات التجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط تتم مع مختلف المدن الإغريقية، ومع الأتروسكيين وكامبانيا ومصر[5] ورودس بالإضافة إلى صقلية وإيبيزا وسردينيا وشبه الجزيرة الإيبيرية.

وكانت الواردات الإغريقية تشمل غالبا على الفخار خاصة الكورنثي والأتيكي، وقد ربطت قرطاجة علاقات تجارية وطيدة مع المدينتين المنتجتين لهذين الصنفين من الفخار وقد كشفت الحفريات عن وجود هذا الفخار بمختلف أنواعه في قرطاجة، خاصة خلال منتصف القرن (6 ق.م)، وكان تواجد الفخار الأتيكي ذي الطلاء الأسود في مختلف المستوطنات القرطاجية (في صقلية بقسيميها الشرقي والغربي، وفي جزيرة سردينيا، وسواحل غرب السرت الكبرى، وشبه الجزيرة الإيبيرية خاصة نهر الإبروس، وفي جزر البليار (خاصة إيبيزا)، وقد وصل الفخار الإغريقي إلى غاية الساحل الإفريقي الأطلسي، حيث يذكر سكيلاكس في رحلته، أن الفخار الأتيكي وصل إلى غاية سرني (Cerné) المستوطنة التي أسسها حانون في رحلته عبر الساحل الإفريقي الأطلسي.[6]

وقد لوحظ وجود الكثير من الأواني الفخارية الكورنثية بقرطاجة و التي وصلت إليها عن طريق الأتروسكيين مرورا بصقلية[7]، أوعن طريق سيراكوزة، وكانت موانئ صقلية بمثابة وسيط بين مراكز تصنيع الفخار الإغريقي

---

(1) (G.G). LAPEYRE, (A). Pellegrin: Op, Cit, p, 181.

(2) شارل أندري جوليان: **تاريخ إفريقيا الشمالية (تونس، الجزائر، المغرب الأقصى)، منذ البدء حتى الفتح الإسلامي**، تعريب (محمد مزالي والبشير بن سلامة)، ط3، السداد التونسية للنشر،(تونس، 1978)، ص، 87.

(3) Gsell: Op, Cit, p, 113.

(4) (G.G). LAPEYRE, (A). Pellegrin: Op,Cit, p,177.

(5) ب. هـ. ورامنجتون: المرجع السابق، ص، 461.

(6) الشاذلي بورينة: **قرطاج البونية**، مكتبة الإسكندرية،(مصر، 1999)، ص، 226.

(7) (M).Gras, (P). Rouillard, (J), Teixidor**: L'univers Phénicien**, Hachette, (Paris, 1995), p, 294.

وقرطاجة [1]، كما تم العثور أيضا على أباريق برونزية[2] ومصابيح[3] ذات اللون الأسود[4] في المقابر القرطاجية وهي من أصل إغريقي.[*]

وفيما يخص المبادلات الأتروسكية، فقد ربطت قرطاجة علاقات تجارية مباشرة مع الأتروسكيين منذ القرن 7(ق.م)، كما تدل على ذلك اللقى الفخارية المعروفة بإسم "البوكيرو الرفيع"[**] (Buchero fin).

وإنطلاقا من منتصف القرن (6 ق.م) إلى غاية بداية القرن (5 ق.م)، الشيء الملاحظ هو وجود الواردات الأتروسكية بكثرة في المقابر القرطاجية، خاصة المزهريات والجرات والقارورات الصغيرة المخصصة للزيت المعطر، وأواني الشرب[5] خاصة البرونزية، مع العلم أن أتروريا كانت تسيطر على المنطقة الغنية بالمعادن في إيطاليا والتي أدت إلى أن تصبح المصنوعات المعدنية أو المعادن الخام جزءا من هذه المبادلات التجارية بين قرطاجة وأتروريا.[6]

وقد عثر في المقابر الأترورية على جعارين والحجر الغرامنتي، وهي تشبه تلك التي وجدت في قرطاجة وسردينيا وكذلك في فينيقيا، ونتيجة لهذه العلاقات فقد وجد أترويون بقرطاجة، وقرطاجيون بأتروريا[7]، حيث عثر في أحد الأضرحة القديمة بمقبرة القديسة مونيكا (Sainte Monique) على صفيحة من العاج نقش عليها العبارة التالية: "Mi Puinel Karthagie" والتي تعني "أنا أكون بوني من قرطاجة" وهذه الصفيحة بمثابة "بطاقة زائر" حملها أحد التجار القرطاجيين عند تواجده بأتروريا، وقد لوحظ وجود ثقب لتعليق هذه الصفيحة، وتؤرخ هذه الاخيرة بنهاية القرن 5 (ق.م) وبداية القرن 4(ق.م)، وهي المرحلة التي ثبت فيها التواجد القرطاجي

---

(1) Gsell: Op,Cit, p, 147.

(2) (G.G) LAPEYR: Op,Cit, p, 181.

(3) Jean Deneave: **Lamps de Carthage**, Editions du centre national de la recherche scientifique, (Paris, 1969), p p, 43,44.

(4) أحمد صفر: المرجع السابق، ص، 140.

(*) بالرغم من القطيعة التجارية الطويلة خلال القرنين الخامس والرابع ق.م بين قرطاجة والمدن الإغريقية، حيث لوحظ ندرة الفخار الأتيكي في المقابر البونية، لكن بعد حملة الإسكندر المقدوني استرجعت العلاقات التجارية القرطاجية الإغريقية نشاطها، للمزيد أنظر: Hédi Slim: **Histoire de la Tunisiens, des origines à la conquête Romaine** , Editions société tunisienne de diffusion, (Tunis.s.d), p,73.

(**) **البوكيرو الرفيع** أو Bucchero fin وفي الأصل ينطق Bouk-ké-ro، وهذا الإسم يطلق على نوع من صناعة الفخار عند الأتروسكيين واشتهرت صناعته خلال القرن 7 ق.م. إلى غاية القرن 4 ق.م، ويمتاز بلونه المائل للرمادي يعلوه لون أسود خالص ذو لمعان معدني يقع الحصول عليه بواسطة التبخير بالدخان، للمزيد أنظر: أحمد صفر: المرجع السابق: ص، 140 ؛ Gsell: Op,Cit, p, 147

(5) (M).Gras, (P). Rouillar, (J). Teixidor: Op,Cit, p, 293.

(6) أبو المحاسن عصفور: **المدن الفينيقية**، دار النهضة العربية، (بيروت، 1981)، ص، 53.

(7) Gsell: Op,Cit, p, 148.

بيرجي (Pyrgi)[1]، كما قامت قرطاجة باستيراد الفخار[2] والخمر[3] من كامبانيا، وكانت لقرطاجة علاقات تجارية مع روما خاصة في العام الأول من تاريخها الجمهوري، ودليل ذلك هو المعاهدات التجارية بين قرطاجة وروما سنة 509 (ق.م)[4]، و 348 (ق.م).

وقد بلغ الفخار الروماني رواجا كبيرا في معظم المواقع البونية، وهو الخزف المنتج بورشات يطلق عليها اسم "الورشات ذات الأختام الصغيرة" (أي وجود أختام على الأواني) وكان هذا قبل الحرب البونية الأولى، أما بعد الحرب البونية الثانية فقد ظل الفخار الروماني من أهم الواردات القرطاجية خاصة الفخار الكمباني صنف "أ" "**A**"، وتعتبر أواني الشرب الخزفية من أشهر أنواع الخزف رواجا داخل قرطاجة وأصبحت تنافس الأواني المصنوعة من الفضة والبرونز[5].

وكان لقرطاجة علاقات تجارية حتى مع جزيرة رودس حيث عثر بقرطاجة على مقابض جرات مخصصة لنقل الخمور ذات أصل رودسي، وتؤرخ فيما بين 220 ق.م و 150 ق.م [6]، بالإضافة إلى المزهريات الملونة وبعض المصنوعات البرونزية[7].

وقد لعبت جزيرة صقلية دورا مهما في المبادلات التجارية القرطاجية، وما تلك التدخلات العسكرية القرطاجية بالجزيرة إلا دليل على أهميتها[*]، وهذا من أجل المحافظة على المصالح الإقتصادية للقرطاجيين، و إعتمدت المبادلات بين صقلية وقرطاجة، بالدرجة الأولى على تبادل المواد الغذائية والنسيج وفي المقابل يتم تصدير الخمور وزيت الزيتون نحو قرطاجة ، فهذه التجارة ساهمت في ثراء مدن صقلية كسيلينونت وأقريقنتة[8].

ونفس الشيء بالنسبة لجزيرة سردينيا، فبعد إستيلاء القرطاجيين على الجزيرة قاموا بقطع كل الأشجار المثمرة ومنعوا السكان المحليين من إعادة غرسها، وهذا الإجراء كان في إطار سعي قرطاجة لتحقيق نوع من التوازن بين جزيرتي سردينيا وصقلية، فكانت مهمة سردينيا إنتاج الحبوب بينما مهمة صقلية إنتاج الخمور والزيوت وقد نجحت قرطاجة في تحقيق هدفها من جعل سردينيا منطقة تنتج كميات هامة من الحبوب[9]، والذي كانت قرطاجة تستورده.

---

(1) (M).Gras, (P). Rouillard, (J).teixidor: locit, p, 293.

(2) Gsell: Op,Cit, p, 131.

(3) (G.G). LAPEYRE: Op,Cit, p, 181.

(4) أبو المحاسن عصفور: المرجع السابق، ص، 53

(5) الشاذلي بورينة: المرجع السابق، ص ، 232.

(6) Gsell: Op,Cit, p, 154.

(7) Toutain (J) : **L'economie antique** ,La ranaissance du livre, (Paris, 1927),p,252.

(8) الشاذلي بورينة: المرجع السابق، ص ص،219،217 .

(9) نفسه: ص ص، 220، 223.

كما كان لإيبيزا دور هام في المبادلات القرطاجية حيث كانت تستورد منها الصوف والجلود.[1]

أما المبادلات مع مصر فلم تتعرض المصادر الأدبية القديمة إلى المبادلات التجارية بين قرطاجة ومصر، ومن خلال الأثاث الجنائزي في المقابر القرطاجية، أمكن معرفة ما كانت تستورده قرطاجة من مصر، كالجعلان والتمائم[2]، بالإضافة إلى العثور على أواني زجاجية[3] وحلي مصرية بكميات كبيرة ترجع إلى القرنين (7 و6 ق.م)[4].

وقد نشأت علاقات مباشرة بين مصر وقرطاجة بعد تأسيس الإسكندرية، كما وجدت في قرطاجة بعض العملات المعدنية تعود إلى عهد البطالمة [5].

و تم العثور على كميات من المنتجات المصرية في شبه الجزيرة الإيبيرية ففي مدافن "لوريت" عثر على أوان من الزجاج الشفاف كانت تستعمل كمراهم حملت أسماء فراعنة السلالة الثانية عشر[6]، كما وجد في كل من قابس وقادس تمائم وتماثيل برونزية وطينية، و عثر في مدينة ليكسوس بالمغرب الأقصى حاليا على جعل مصري يحمل إسم إيمينحوتب الثالث[7].

1-2- الواردات القرطاجية في غرب أوربا:

ما ميز المبادلات التجارية في هذه المنطقة هو التجارة بالمعادن خاصة الفضة والقصدير، وترجع تجارة القصدير إلى عصور ما قبل التاريخ مع جنوب غرب بريطانيا، وكانت عملية تصدير القصدير تنقل عبر غالة إلى نهر الرون ثم إلى البحر
المتوسط، وقد حصل القرطاجيون على معظم إحتياجاتهم منه من شبه الجزيرة الإيبيرية، وقد ألهبت هذه المنطقة الفينيقيين والإغريق من بعدهم بمعادنها، خاصة القصدير والنحاس والفضة، والتي صنعوا منها التحف الفنية كالأباريق البرونزية والمجامر[8]، وقد تم العثور على أقراط في أوتيكا وهي شديدة الشبه بالأقراط القادسية[1]، كما تم العثور على ثلاثة جرات قرطاجية الصنع بجنوب غرب شبه الجزيرة الإيبيرية تؤرخ تقريبا بالثلث الأخير من القرن (3 ق.م) [2].

---

(1) G-G. LAPEYRE: Op,cit, p, 131

(2) الشاذلي بورينة: المرجع السابق، ص، 228.

(3) Gsell: Op,Cit, p, 131.

(4) أبو المحاسن عصفور: المرجع السابق، ص، 119.

(5) Gsell: Op,Cit, p, 166.

(6) تسيركين يولي بركوفيتش: **الحضارة الفينيقية في إسبانيا**، ترجمة (يوسف أبي فاضل)، دار جروس برس للنشر،(بيروت، 1987)، ص، 95.

(7) نفسه: ص ص، 90،91.

(8) تسيركين يولي بركوفيتش : المرجع السابق ،ص، 86.

وعندما سيطر الإغريق على مصب نهر الرون وتأسيسهم لمستعمرة متساليا قام القرطاجيون بالبحث عن طريق آخر للتزود بالقصدير فكانت رحلة هميلكون البحرية، والتي انطلقت من قادس إلى الجزر البريطانية[3].

كما إستوردت قرطاجة من شبه الجزيرة الإيبيرية الحلفاء اللازمة لصناعة الحبال[4]، ومختلف أنواع الأسماك خاصة التونا[5]، وقد جلب القرطاجيون أيضا العنبر من بحر البلطيق[6] والذي كان يستخرج من جزيرة "أوليل" والتي عرفت بإسم "جزيرة العنبر"[7].

1-3- الواردات القرطاجية في شمال إفريقيا والساحل الإفريقي الأطلسي:

تعود العلاقات الاقتصادية بين سكان شمال إفريقيا والفينيقيين ثم القرطاجيين من بعد إلى فترة زمنية بعيدة جدا وهي أسبق من تأسيس قرطاجة نفسها، حيث ترجع إلى مرحلة الارتياد ثم الاستقرار الفينيقي في شمال إفريقيا خلال نهاية القرن (12ق.م)، حيث أسسوا بالمنطقة محطات تجارية للإستراحة والتزود بالمؤونة والقيام بعملية التبادل التجاري مع سكان المنطقة، وقد ورثت قرطاجة فيما بعد جميع هذه المحطات التجارية سواء في ساحل شمال إفريقيا أو الساحل الإفريقي الأطلس وقد كانت قرطاجة تتزود من هذا الشريط الساحلي بالعسل والتين والرمان والأخشاب لصناعة السفن[8]، بالإضافة إلى القمح والشعير[9].

ومن الساحل الإفريقي الأطلسي أيضا جلب القرطاجيون كميات كبيرة من الأسماك خاصة التونا من أجل تصبيرها وتمليحها[10].

---

(1) نفسه، ص، 90.

(2) Chelbi Fethi: "**Amphores Ibériques du Bardo, remarques sur le commence Carthaginois avec l'Espagne**", (Revue du études Phéniciennes et Puniques des antiquites , IV), Institut national d'archéologie et d'art,Tunis, p p, 161,164.

(3) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق، ص، 462.

(4) Gsell: Op,Cit, p, 136.

(5) (G-G). LAPEYRE: Op,Cit, p, 181.

(6) Charles. André Julien: **Histoire de l'Afrique Blanche**, que sais-je? Presses universitaires de France, (Paris, 1976), p, 50.

(7) محمد بيومي مهران: **المغرب القديم**، دار المعرفة الجامعية، (الإسكندرية، 1990)، ص، 365.

(8) محمد العربي عقون: **الإقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم**، ديوان المطبوعات الجامعية، (الجزائر، 2008)، ص ص، 61، 62.

(9) Amaracisse (Daniel): **Histoire économique de l'Afrique noire**,T2, L'Harmattan, (Paris, 1988),p,23

(10) أحمد صفر: المرجع السابق، ص، 139.

وقد كانت تجارة الساحل الإفريقي الأطلسي بالنسبة للقرطاجيين، تجارة جد مربحة[1] ودليل ذلك هو الرحلة التي قام بها الملك القرطاجي "حانون" من أجل تثبيت الإستيطان القرطاجي بالساحل الأطلسي واحتكار سوق الذهب بالمنطقة.

1-4- الواردات القرطاجية الصحراوية:

لقد نشطت التجارة القرطاجية الصحراوية بفضل القبائل الليبية القديمة (النسامونس والجرمانتيون)، ولسوء الحظ فإن ممارسة هذه التجارة لم تترك أي أدلة أثرية، وفي المؤلفات القديمة يذكر فقط العقيق الأحمر، وتجارة العبيد، ويقال أن الجرمانتيون كانوا يتعقبون

الإثيوبيين (أي الشعوب الزنجية) بعربات تجرها أربعة جياد، ثم يلقون القبض عليهم ليبيعوهم في أسواق العبيد، وبالإضافة أيضا إلى العاج[2]، حيث كان من الكماليات المرغوب فيها حيث يصنع منه أدوات الزينة وأواني للشراب والملاعق ، ويزينون به الخيول[3]، كما جلب القرطاجيون من الصحراء جلود الحيوانات والحيوانات المفترسة والتي لاقت رواجا كبيرا خاصة بعد أن أصبحت تستخدم في الألعاب الرومانية، فكان الرومان يقبلون على اقتناء الأسود والنعام والفيلة والتي كانوا يطلقون عليها اسم "بقر لوقانيا" والنمور التي كانوا يسمونها "فئران إفريقية"، كما إستوردت الذهب من السودان[4]وكذلك الملح، وريش وبيض النعام[*]، ومرمر شمتو، والتمور الصحراوية[5].

ومما ساعد على نشاط التجارة الصحراوية هو سيطرة القرطاجيين على أهم المدن الليبية، خاصة بعد تأسيس الأمبوريات الثلاثة "صبراتة – أويا – لبدة"، في أواخر القرن(6 ق.م)[6] ، لذلك يمكن القول بأن الصحراء كانت من أهم أركان ثروة قرطاجة خصوصا وأنها لقبت بـ: "ملكة إفريقية". [7]

2- الصادرات:

---

(1) Hédi Slim : Op,Cit, p, 73.

(2) Toutain (J) : Op,Cit , p p, 252,253.

(3) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص، 365.

(4) أحمد صفر: المرجع السابق، ص ص، 125، 126.

(*) لقد أستخدم بيض النعام في تزيين صالونات البيوت القرطاجية ، كما كانت توضع عن مقربة من أبواب البيوت لتقوم بدور مبارك يطرد العين الشريرة وقد قام البونيون برسم صورة عين على قشرة هذه البيوض بواسطة الحناء أو الأرجوان وذلك لزيادة قدرتها السحرية، للمزيد أنظر: جان مازال: **مع الفينيقيين في متابعة الشمس على دروب الذهب والقصدير**، ترجمة (نجيب غزاوي)، دار المرساة للطباعة والنشر والتوزيع، (سوريا، 1998)، ص، 196.

(5) Gsell: Op,cit, p, 150.

(6) نجم الدين غالب: **مدينة طرابلس عبر التاريخ**، الدار العربية للكتاب، ط2، (ليبيا، تونس،1978)،، ص، 14.

(7) أحمد صفر: المرجع السابق: ص ص، 125، 126.

لقد كانت قرطاجة مركز تجميع وتوزيع للسلع[1]، لذلك فقد تنوعت صادراتها، حيث كانت تصدر قرطاجة الخمور والزيوت، وفي أواخر القرن السادس ق.م عرفت الجرار المنتجة في إيبيزا[2] رواجا كبيرا خاصة التي كان يطلق عليها الجرار القرطاجية-الإيبيزية ، وكانت معدة لنقل الزيوت والموالح ومنتجات الصيد، كما صدرت قرطاجة الحبوب واللحوم المقددة والأرجوان وأصناف الخزف العادي والتمائم، والأنسجة المطرزة والزرابي[3]، كما صدر القرطاجيون الأرائك[4] والعاج والعبيد وجلود الحيوانات والصوف، والحيوانات المفترسة وأنواع الطيوب و قناني العطور والحلي والآنية الثمينة والمعادن الخام كالفضة والذهب والقصدير والنحاس... [5]، بالإضافة إلى المباخر التي لها رأس إمرأة[6] وكذا الشمع والعسل والتين والرمان[7]، وقد كان الرومان معجبين بشمع قرطاجة وعسلها وتينها ورمانها والذي كانوا يطلقون عليه اسم "التفاح البوني"[8] ، وصدرت أيضا مرمر شمتو.

ثانيا: الطرق التجارية

لقد أصبحت قرطاجة أغنى مدن العالم في القديم بفضل تجارتها، وبالرغم من ذلك وأمام صمت المصادر الأدبية تعذر على الباحثين تحديد مسألة الخطوط التجارية بدقة والبضائع المتبادلة وتنظيم التجارة البونية. [9]

وتعتبر شبكة الطرق التجارية سواء كانت برية أو بحرية من أهم عوامل إزدهار التجارة القرطاجية، ونتيجة لسيطرة قرطاجة على هذه الطرق جلبت لها المنافسة الخارجية خاصة من طرف الإغريق ثم الرومان فيما بعد.

1- الطرق البرية:

لقد عمل القرطاجيون على إيصال مختلف محطاتهم التجارية ببعضها البعض، خاصة المحطات الواقعة بالسواحل الشمالية والغربية لإفريقيا، وهذا عن طريق شبكة طرق تمر عبر الغابات والتلال،تربط بين قرطاجة وطنجة، كما وجدت في قرطاجة شبكة طرق تربط بين قرطاجة ونيابوليس، وطرق أخرى كانت تتجه إلى أوتيكا وحوض مجردة، كما شيدوا جسرا على نهر مجردة لتسهيل عمليات التنقل [10].

---

(1) محمد العربي عقون: المرجع السابق، ص، 61.

(2) الشاذلي بورينة: المرجع السابق، ص، 236.

(3) مادلين هورس ميادان: **تاريخ قرطاج**، ترجمة (إبراهيم بالش)، منشورات عويدات، (بيروت، باريس،1981)، ص ص، 91،92.

(4) (G-G), LAPEYRE: Op,Cit, p, 182.

(5) Gsell: Op, Cit, p,150

(6) تسيركين يولي بركوفتيش: المرجع السابق، ص، 90.

(7) (G-G), LAPEYRE: Op,Cit, p, 182 ; Gsell: Op,Cit, p,150.

(8) أحمد صفر: المرجع السابق، ص، 140.

(9) الشاذلي بورينة: المرجع السابق، ص، 217.

(10) نفسه: ص، 239.

وبما أن القرطاجيين كانوا تجارا بالدرجة الأولى ومزارعين بالدرجة الثانية فقد كان من المنطق أن يختاروا مواقع مستوطناتهم الساحلية على مصبات الأنهار والأودية، لتكون بمثابة مرافئ تمكنهم من البقاء على إتصال دائم مع البحر، أما الأودية فكانت في غير مواسم المطر تصبح طرقا طبيعية للقوافل القادمة بالسلع التجارية من أواسط إفريقيا، ولهذا نجد أن القرطاجيين أقاموا مدينة لبدةعلى مصب وادي لبدة، وأقاموا مدينة أويا (طرابلس) على مصب وادي "مجنين"، كما أقاموا صبراتة على رأس الطريق التجاري الهام الذي كان يحمل سلع أواسط إفريقيا إلى صبراتة مارا بغدامس[1].

وقد لعبت مدينة أويا دورا نشيطا في التجارة القرطاجية خاصة بعد إنشاء القرطاجيين للطريق الرئيسي الذي يمتد بمحاذاة الشاطئ انطلاقا من قرطاجة وصولا عند أويا وقد بلغ طول هذه الطريق 512 ميلا، ومن المؤكد أنه أصبح لهذا الطريق أثر كبير في زيادة حجم تلك المعاملات التجارية مع قرطاجة[2].

ويعتبر الطريق الصحراوي من أهم الطرق التجارية البرية لقرطاجة، وأسهل طريق هو الذي كان يمر من معبر واحات فزان ويربط بين البحر المتوسط والسودان، وكان من الممكن أيضا السير بجانب سواحل المغرب الأقصى حاليا ويقع الوصول بهذه الطريقة إلى الأنهار الكبيرة وإلى الغابات الملتفة والمتلبدة بالمنطقة الحارة[3].

وقد وصف لنا هيرودوت أحد المسالك الهامة، خاصة الطريق الذاهبة من الشرق إلى الغرب والتي تربط بين مصر والسودان، فتبدأ من طيبة (Thébes) بمصر وتمر من واحة آمون في مرحلة أولى تدوم 10 أيام، ومنها إلى واحة أوجلة في مرحلة ثانية تدوم 10 أيام أيضا، ثم تأتي مرحلة ثالثة تقطع أيضا في 10 أيام وتنتهي عند قبائل الغرامنت القاطنين بفزان[4]، ومن فزان التي يمكن اعتبارها كمرفق الثنايا يمكن الإتجاه إما نحو صبراتة بالجهة الشمالية الشرقية بعد المرور من غدامس ولبدة أو نحو نهر النيجر.

ولم يتاجر القرطاجيون بأنفسهم مع بلاد السودان بل قضوا مدة طويلة وهم يستخدمون وسائط من الأهالي، فكانت تأتي القوافل تحت حراسة الغرامنت إلى أن تبلغ طرابلس وكانت قبائل الفاروزيين (Pharusiens) تراقب القوافل التي تصعد من مسلك آخر إلى مدينة سيرتا.

ونتيجة للتكاليف الباهضة للقوافل التي كانت تحت إشراف القبائل الليبية الصحراوية، فعزم القرطاجيون على التوغل بأنفسهم في تلك المسالك الصعبة والاستغناء عن الوسطاء والالتحاق مباشرة بمصدر الخيرات، التي

---

[1] عبد اللطيف محمود البرغوثي: **التاريخ الليبي القديم** ، دار صابر،(بيروت، 1971)، ص، 311.

[2] نجم الدين غالب: المرجع السابق ، ص ص، 14،15.

[3] محمد سليمان أيوب: جرمة من تاريخ الحضارة الليبية، دار المصراتي للطباعة والنشر، (ليبيا، د.ت)، ص،199؛ موسوعة تاريخنا: ليبيا من عصور ما قبل التاريخ حتى القرن 7 ق.م، ج1، دار التراث،(ليبيا، 1988)
، ص، 216.

[4] هيرودوتس: كتاب التاريخ، ج4، نصوص ليبية، ترجمة علي فهمي خشيم، منشورات دار مكتبة الفكر، (طرابلس، 1967)، الفقرات، 181،182،183.

ترتكز عليها تجارتهم ودليل ذلك الرحلات الصحراوية[1]، فقد ذكر كاتب اغريقي إسمه أثونوس (Athenaeus) أن أحد القرطاجيين واسمه ماقو (Mago)[2]، قد عبر الصحراء ثلاث مرات، كما ذكر هيرودوت أن خمسة أشخاص من جماعة النسامونس قد قاموا برحلة عبر الصحراء الكبرى إلى مدينة يسكنها أقزام زنوج[3].

2- الطرق البحرية:

تعد الطرق التجارية البحرية عصب التجارة القرطاجية، سواءا في البحر المتوسط أوالمحيط الأطلسي .

2-1- الطريق نحو مصر: لقد كان الطريق نحو مصر يمر بحرا من قرطاجة ثم جزيرة صقلية ليصل إلى أقصى غرب جزيرة كريت ثم إلى مصر.[4]

2-2- الطريق نحو الأترسيكين: لقد مثلت جزيرة صقلية محور إتصال بين الحوضين الشرقي و الغربي للبحر الأبيض المتوسط وهذا نتيجة لموقعها الإستراتيجي وتحكمها في أهم طريقين تجاريين في البحر الأبيض المتوسط.

إن تركز اللقى الفخارية الأتروسكية خاصة في جنوب شرق وغرب صقلية (سرقوسة، سيلينوت، ميغارا)، وهذا خلافا للساحل الجنوبي بين كامارين وأقريقنتة حتى موتيا، فإن المبادلات بين الأتروسكيين من جهة وقرطاجة والمستوطنات الإغريقية وشرق المتوسط من جهة ثانية مست السواحل الغربية لجزيرة صقلية تجنبا للطريق الواقعة تحت مراقبة الكلكيديين.

2-3- الطريق نحو شبه الجزيرة الإيبيرية: إن سيطرة القرطاجيين على المسالك التجارية بأقصى غرب المتوسط ترتبط بشكل وثيق بسيطرتهم على جزيرتي صقلية وسردينيا.

ونتيجة لتزايد طلب الأشوريين على معادن الفضة والقصدير والحديد، من هنا نشأت الحاجة إلى ضرورة إيجاد طرق تجارية تتوجه نحو جنوب شرق شبه الجزيرة الإيبيرية ونحو وسط بلاد غالة.

لذلك قام القرطاجيون بتأسيس مستوطنة إيبيزا سنة (654 ق.م) [5]، وهذا من أجل سد الطريق المؤدية إلى الغرب في وجه الإغريق من ناحية، ومن ناحية أخرى إيجاد محطة تدعم بها الطرق التجارية نحو أقصى غرب البحر المتوسط، ومن هنا يمكننا التعرف على الطريق التجاري نحو شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث ينطلق من قرطاجة ثم نحو

---

[1] أحمد صفر: المرجع السابق، ص ص، 125، 126.

[2] Gsell: Op, Cit, p, 136.

[3] هيرودوتس: المصدر السابق، ج2، الفقرة ،32.

[4] الشاذلي بورينة: المرجع السابق، ص ص،229،228.

[5] الشاذلي بورينة: المرجع السابق، ص ص،230، 233، 235.

غرب صقلية، ومنه إلى جنوب غرب سردينيا [1] ومن هذه الأخيرة إلى جزر البليار وبالتحديد إلى إيبيزا ومنها تتفرع طريقان، طريق تتجه نحو شرق وجنوب شرق شبه الجزيرة الإيبيرية، وطريق نحو السواحل الجنوبية لبلاد غالة.

2-4- الطريق نحو غرب أوربا: بعد أن أسس الإغريق مستعمرة متساليا، أضروا بإحتكار القرطاجيين لتجارة المعادن خاصة القصدير بهذه المنطقة[2]، فسيطروا

بذلك على مصب نهر الرون طريق تجارة القرطاجيين القديم عبر غالة، والذي كانوا يجلبون منه المعادن خاصة من بروتاني الفرنسية ومن جزر الكاسيتريد، فأراد القرطاجيون إيجاد طرق مباشرة مع مناجم القصدير، فكانت رحلة هيملكون القرطاجي لتحقيق هذا الهدف، وقد انطلق هذا القائد من مستوطنة قادس الفينيقية مرورا بالسواحل الشمالية الغربية لشبه الجزيرة الإيبيرية وصولا إلى منطقة البروتاني الفرنسية، ومنها يكملون طريقهم نحو جزر الأسترمنيد والجزر البريطانية وجزيرة إيرلندا، وهناك من يقول بأن القرطاجين أكملوا هذا الطريق البحري ووصلوا إلى غاية بحر الشمال وبحر البلطيق.

2-5- الطريق نحو السواحل الشمالية والغربية لإفريقيا:

وقد لعبت كل من جزيرة رشقون[3] ومحطة قورايا دورا هاما في التاريخ الإقتصادي للجهة الغربية من البحر المتوسط، إذ كونت حلقة من شبكة الطرق البحرية التي سلكها الفينيقيون والقرطاجيون من بعد، مارين بشواطئ الغرب الجزائري ثم السواحل المغربية المتوسطية عبر أعمدة هرقل في إتجاه ليكسوس، وخلال القرن(5 ق.م)، قام القرطاجيون بإستكمال فتح الطرق البحرية خاصة نحو السواحل الإفريقية الأطلسية، وهذا من خلال ما قام به الملك حانون في رحلته عبر هذه السواحل، حيث وصل إلى غاية سواحل الكاميرون وبذلك أمكن للقرطاجيين السيطرة على هذا الطريق المؤدي إلى التجارة مع أواسط إفريقيا، وبتحكمها في مضيق جبل طارق من جهة وتحكمها في الطريق التجاري نحو شمال غرب أوربا وجنوب غرب إفريقيا، استطاعت قرطاجة بذلك التحكم في شبكة الطرق البحرية في الحوض الغربي للمتوسط وفي المحيط الأطلسي لدرجة أن الرومان سموا هذه البحار: بالبحار الصورية.[4]

ثالثا: تنظيم التجارة القرطاجية

لعبت التجارة دورا هاما في حياة قرطاجة، وكانت سياستها تتلخص في فتح الأسواق سواء بالمعاهدات أو بإنشاء المستعمرات وإبعاد المزاحمين من طريقها بكافة الوسائل، وقد نجحت قرطاجة في ذلك خاصة خلال القرنين

---

(1) Massimo Botto : "**Les commerces dans l'esctréme occident de la Mediterranée et dans l'Atlantique**", Les Phéniciens en Algérie,les vois du commerce entre la Méditirranée et L'Afrique noire, Ministre de culture,(2011),p ,86.

(2) كارلهاينز برنهردت: **لبنان القديم**، ترجمة (ميشيل كليو)، قدمس للنشر والتوزيع، (دمشق،1999)، ص، 136.

(3) Massimo Botto : Op,Cit ,p, 91.

(4) موسوعة تاريخنا: المرجع السابق، ص ص، 200، 201.

(5 و4 ق.م)، حتى أنها فرضت على روما معاهدة سنة (509 ق.م) تنص على عدم اتجار الرومان مع سواحل إفريقية وسردينيا وليبيا، وقد وضعت قرطاجة على السواحل الإفريقية أبراج مراقبة كثيرة تعرف باسم أبراج حن بعل[1]، وبذلك هيمنت قرطاجة على كامل الجزء الغربي من البحر المتوسط، وكل هذا من أجل الحفاظ على أسواقها مصدر خيراتها[2].

1- الأسواق:

لقد إهتم القرطاجيون بتنظيم التجارة داخل الأسواق التابعة لها، وهذا من أجل ضمان السير الحسن و الحفاظ على العلاقات التجارية الحسنة مع جميع المتعاملين معها، هذه السياسة نابجة عن تركيبة المجتمع القرطاجي المتكون من الطبقة الأرسطوقراطية الحاكمة والمسيطرة على آليات التجارة، وهم مالكي السفن والمصارف، ثم تأتي طبقة مدراء المؤسسات التجارية المتواجدين في قرطاجة أو المحطات التابعة لها، وحتى في مناطق التبادل التجارية الخارجية، ثم تأتي فئة مجهزي السفن ومنظمي القوافل، ثم الوكلاء والكتبة وقباطنة السفن والبائعين [3]، وقد وجدت لهؤلاء الأخيرين عدة ألقاب منها، **موكارسوبر**(Mokersober) بمعنى تاجر، وكان يطلق على بائع العطور إسم **موكار كوتبيروت** (Moker a qotberot)، وعلى بائع الذهب إسم **موكار باباروس** Moker ba barous)، وعلى بائع الحديد إسم **موكار بابارسيل** (Moker ba barsel) [4].

وتعتبر المستوطنات القرطاجية ومجالات التبادل التجاري في مختلف المناطق أسواقا شاسعة لترويج السلع القرطاجية وجلب المادة الأولية، وقد كانت المحطات التجارية القرطاجية موزعة توزيعا ماهرا لتكون أسواقا ومراكز تموين[5]، وهذا على مستوى الشريط الساحلي الإفريقي والأوربي وجزر البحر المتوسط، وهذه المحطات التجارية لم تكن لها أهمية من حيث الملاحة فحسب، بل من حيث أنها تمثل نقاط الإنطلاق والوصول بالنسبة للبعثات والقوافل [6].

وكانت أسواق ليبيا المشهورة بالأمبوريا (Emporia) ذات أهمية كبيرة حيث كانت مدينة لبدة تجمع يوميا المكوس والأداءات الجمركية لفائدة الخزينة القرطاجية.

---

(1) Gsell: Op, cit, p, 126.

(2) Amaracissé Daniel : Op,Cit, p,22.

(3) Gsell : Op,Cit, p,110.

(4) Fantar (M,H) : **Carthage approche d'une civilisation**, T1, Alif les éditions de la méditerranée, (Tunise, 1993), p, 311.

(5) شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص، 109.

(6) نفسه: ص، 111.

وتعتبر محطات لبدة وأويا وصبراتة من أهم الأسواق التي تصل إليها القوافل الصحراوية الصحراوية القادمة من السودان[1]، كما ساهمت التجارة الداخلية في إزدهار مدينة سيرتا[2]. ومنذ القرن (5 ق.م) كان التجار يأتون من قرطاجة إلى هذه المدن وينزلون بها في انتظار قدوم قوافل الصحراء.[3]

وقد أقيمت في المنطقة الممتدة ما بين صبراتة وحضرموت محطات كانت عبارة عن أسواق ثانوية وأقل أهمية من ناحية التجارة الخارجية، وتتمثل في قابس (Thocapab) وأشولة (Acholla) ورأس الديماس (Thapsus) بالإضافة إلى لمطة Liptis-Minor)، وفي المنطقة الممتدة ما بين حضرموت وقرطاجة أنشئت نيابوليس Neapolis) وكيراكوان (korkowane) وفي المنطقة ما بين قرطاجة إلى غاية أعمدة هرقل توجد كل من (Hippo-Rigius) وروسيكاد، إيجيجلي، صلداي، تيبازة، روسكبير (دلس)، يول، قورايا، كارتينا (تنس)، ثمودا (تيطوان)، طنجة، ليكسوس[4]، بالإضافة إلى المحطات التي أسسها حانون فيما بعد.

وقد تمتع القرطاجيون بسمعة كبيرة في الأسواق المتوسطية[5]، وتعتبر إيبيزا أكبر سوق بونية في شبه الجزيرة الإيبيرية[6]، حيث كانت بمثابة مركز توزيع للسلع الإيبيرية والبونية[7]، كذلك نورا بسردينيا، تعتبر أكبر سوق للمعادن في الحوض الغربي للمتوسط[8].

وبعد إنهزام قرطاجة في معركة هميرا (480 ق.م) أمام الإغريق، حيث سيطر هؤلاء الأخيرين على الحوض الشرقي للمتوسط، وغلقهم لطريق الشرق في وجه الملاحة التجارية القرطاجية وبالتالي فقدان هذه الأخيرة لأهم أسواقها، مما جعلها تدخل في أزمة إقتصادية، تجسدت في كساد تجارتها، وتراجع مداخيلها وانخفاض مستوى معيشة سكانها وقد استفادت قرطاجة من هذه الأزمة، حيث قامت بفتح أسواق جديدة خاصة على سواحل المحيط الأطلسي الأوربية والإفريقية وهذا من خلال رحلتي هيملكون وحانون البحريتين.

2- العملة:

لقد كانت المبادلات التي تتم داخل هذه الأسواق عن طريق المقايضة وهذا بالرغم من وفرة المعادن التي كانت تجلبها قرطاجة، غير أن ضرب العملة تأخر بها مع العلم أن الإقتصاد القرطاجي يعتمد بالدرجة الأولى على

---

(1) أحمد صفر: المرجع السابق، ص ص،125، 126.

(2) محمد العربي عقون: المرجع السابق، ص، 50.

(3) نفسه: ص، 62.

(4) محمد الصغير غانم: **التوسع الفينيقي في غربي البحر الأبيض المتوسط**، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع،(الجزائر، 2003)، ص، 96.

(5) Hédi Slim: Op, cit, p 75.

(6) Massino Botto : Op,Cit ,p,92.

(7) Chelbi Fethi: Op, cit, p, 164.

(8) Gaudio Attilio: **Les empires de la mer**, Rene Julliard,(Paris, 1962),p,92.

النشاط التجاري الذي من المفترض أن تكون قرطاجة هي السباقة في إعتماد العملة فيه، وهذا راجع إلى تعود القرطاجيين إرتياد مناطق لا تعتمد العملة ولا تعترف بها كأداة للتبادل مما اضطرها أن تمارس في هذه المناطق التجارة البدائية أو ما يسميها هيرودوتس بالمقايضة الصامتة[1].

وبالنسبة لمناطق التبادل الأخرى التي تعتمد فيها العملة فقد كانت قرطاجة تلعب فيها دور الوسيط، وقد تعاملت قرطاجة مع عدة عملات أجنبية كالأوبية الأتيكية والكدات (Kedet) المصرية، وقد تبنت قرطاجة نظام تبادل يتنزل بين العملة والمقايضة ويعرف بنظام "وزن المعدن الثمين"[2].

وقد شاع استعمال العملة في أسواق الإغريق خلال القرن (7 ق.م) وسك الفرس عملتهم الذهبية في عصر داريوس منذ نهاية القرن (6 ق.م)، أما الفينيقيون فقد ظلوا يفضلون استعمال المقايضة إلى أن أصدرت مدينة صور أول عملة نقدية ثم تبعتها صيدا وبعلبك، وهذا في فترة اتسمت بازدهار التجارة مع جزر الإغريق من جهة وتراجع هيمنة الفرس على الشرق من جهة أخرى.

وكانت هذه العملات الفينيقية كلها من الفضة والبرونز، وقبل أن تسك قرطاجة عملتها، استعملت الوعد المالي المكتوب على الجلد أو الرق والمذيل بخاتم بعض المدن الشهيرة تتعهد فيه بدفع قدر معين من الذهب أو الفضة، وقد استعمل القرطاجيون مثل هذا النقد الجلدي [3] .

وخلال القرن (5 ق.م) تم سك العملة الذهبية القرطاجية[4]، وهذا في إطار الإصلاحات الإقتصادية التي قامت بها قرطاجة بعد معركة هميرا[5]، وقد ظهرت هذه العملات أولا في غرب جزيرة صقلية، في مستوطنتي موتيا وبانورموس، وتسمى بالعملات الصقلية البونية(Siculo Punique) [6] وقد وجدت قرطاجة نفسها مجبرة على إعتماد العملة إستجابة لمتطلبات التعامل سواء في داخلها أو خارجها لأن نشاطها التجاري كان يتم مع مناطق إعتمدت هذه الوسيلة في التبادل منذ فترة طويلة[7]، كما إضطرت إلى دفع مرتبات جنودها في جبهات القتال، وما يميز عملات هذه الفترة أنها تحمل رمز الإلاهة تانيت الليبية على وجه والحصان أو النخلة على الوجه الآخر.[8]

---

[1] هيرودوتس: المصدر السابق، الفقرة 196.

[2] الشاذلي بورينة: المرجع السابق، ص ص، 239، 240.

[3] هـ. ج. ولز: **معالم تاريخ الإنسانية**، مج1، ج1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة، 1947)، ص، 184.

[4] موسوعة تاريخنا: المرجع السابق، ص، 212.

[5] Fantar (M,H) : Op,Cit ,p,322.

[6] Harden Donald : **The Phoenicians**, Thames and Hudson, London, 1963. ,p,167.

[7] الشاذلي بورينة: المرجع السابق، ص، 240.

[8] موسوعة تاريخنا: المرجع السابق، ص، 212.

ولم تضرب قرطاجة نقودها البرونزية الأولى إلا في النصف الثاني من القرن(4 ق.م)[1]، حيث توجد الآن قطعة نقدية بالمتحف البريطاني عليها رأس الإلهة تانيت وغطاء رأس بوني وعلى الوجه الآخر صورة الأسد وشجرة النخيل ونقش مكتوب بالبونية "رجال المعسكر" [2]، وكانت النقود البرونزية والرصاصية تستخدم داخل الأقاليم القرطاجية من أجل تسهيل عملية التبادل التجاري، كما يمكن للجنود إستعمالها داخل معسكراتهم من أجل اقتناء مستلزماتهم اليومية[3].

وبعد استيطان القرطاجيين لإسبانيا ووصولهم إلى مناجم الفضة في القرن (3 ق.م) صدرت في مدن قادس وإيبيزا عملات فضية ذات قيمة ومكانة خاصة بين بقية عملات قرطاجة، فقد حملت بعض القطع صورة القادة الكبار (هميلكار، هزربعل، حنبعل) على وجه، وصورة الفيل على الوجه الآخر في محاولة لتخليد الزحف القرطاجي على روما في نهاية القرن (3 ق.م) [4].

الخاتمة:

نتيجة الشهرة التي نالتها التجارة القرطاجية جلبت إليها المنافسة التجارية الخارجية ، والتي تحولت الى منافسة عسكرية من طرف الاغريق في اطار مايسمى بحروب صقلية، ثم انتقلت المنافسة العسكرية الى الرومان من خلال الحروب البونية والتي كانت نهايتها وخيمة على القرطاجيين، حيث سقطت قرطاجة في ايدي الرومان في 146 ق،م وفقد القرطاجيون احتكاراتهم واسواقهم التجارية.

---

[1] شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص، 111.

[2] عبد الحميد زايد: **الشرق الخالد**، دار النهضة العربية، (القاهرة،1966) ، ص، 331.

[3] Fantar (M,H) : Op,Cit ,pp, 322,323.

[4] موسوعة تاريخنا: المرجع السابق، ص، 213.

محتوى العدد

*- جرائم التنظير والممارسة في الفعل الاستعماري الفرنسي بالجزائر بروسبير أونفونتان وألكسي دو طوكفيل أنموذجا د. مصطفى عبيد. قسم التاريخ، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة 04

*- السياسة الإدارية الفرنسية في الجزائر 1830 . 1848 د. أبو بكر الصديق حميدي. قسم التاريخ، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة 10

*- المشاركة الجزائرية في مؤتمر باندونغ 1955 حيثياتها وإنعكاساتها على مسار تدويل المسألة الجزائرية د. عمر بوضربة. قسم التاريخ جامعة محمد بوضياف بالمسيلة 16

*- قراءة نقدية لكتاب أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف أ.د. خير الدين شترة قسم التاريخ جامعة محمد بوضياف بالمسيلة 25

*- مظاهرات 11 مارس ومجزرة 13 مارس 1962 بالنقر- الطيبات من خلال شهادات صانعيها. أ. جمال البوص. قسم التاريخ جامعة محمد بوضياف بالمسيلة 47

*- جرائم التعذيب الاستعماري خلال ثورة التحرير الجزائرية والقوانين الدولية. أ. نورالدين مقدر. قسم التاريخ جامعة محمد بوضياف بالمسيلة 61

*- استقلال الجزائر من منظور عربي أ.د عبد الكامل جويية قسم التاريخ جامعة محمد بوضياف بالمسيلة 70

*- الكتابات الأثرية العربية في المغرب الإسلامي مقاربة هستوغرافية د. سرحان حليم قسم التاريخ جامعة محمد بوضياف بالمسيلة 78

*-العلاقات الجزائرية التركية زمن الثورة التحريرية 1956. 1962 إعداد أ. د. مقلاتي عبد الله جامعة المسيلة..... 84

*- توسع الاحتلال والمقاومة الشعبية بالصحراء الشرقية من خلال مصادر الأرشيف العسكرية الفرنسية (تقرير مخطوط الضابطان بورال ***borel*** وهيربيون ***herbillon 1849***) د. كمال بيرم قسم التاريخ جامعة محمد بوضياف بالمسيلة 90

*- مدرسة دار الحديث الإبراهيمية بتلمسان إشعاع ثقافي بالجزائر أة. بن حامد سعدية قسم التاريخ جامعة محمد بوضياف بالمسيلة 101

*- نظرات تاريخية على واحة بوسعادة قبيل الاحتلال الفرنسي 1814 . 1849 م د. خميسي سعدي باحث بجامعة الجزائر (02) أبو القاسم سعد الله 112

*- الصورة الجغرافية لمنطقة المسيلة من خلال رحلة شارل دوغالون1897م الباحث. راجعي عبد العزيز جامعة قسنطينة 02 عبد الحميد مهري 121

*- ظاهرة التصوف النسائي في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط د.الطاهر بونابي قسم التاريخ -جامعة المسيلة- 139

*- مقاومة الأوراس للاحتلال الروماني ثورة تاكفاريناس أنموذجا (17-24م) الأستاذة: بن رحال يمينة قسم التاريخ جامعة محمد بوضياف بالمسيلة 154
*-مقاومة الأوراس للاحتلال البيزنطي. أ. حفيظة لعياضي قسم التاريخ جامعة محمد بوضياف بالمسيلة.....165
*- المبادلات التجارية القرطاجية في العصور القديمة الأستاذة: مليزي ريمة، أستاذة مساعدة صنف "أ" ،جامعة المسيلة..... 178
*- فهرس المحتوى 193

مجلة البحوث التاريخية
Revue des Recherches Historiques
العدد 01 مارس 2017
ISSN:2543-389X **ردمد**